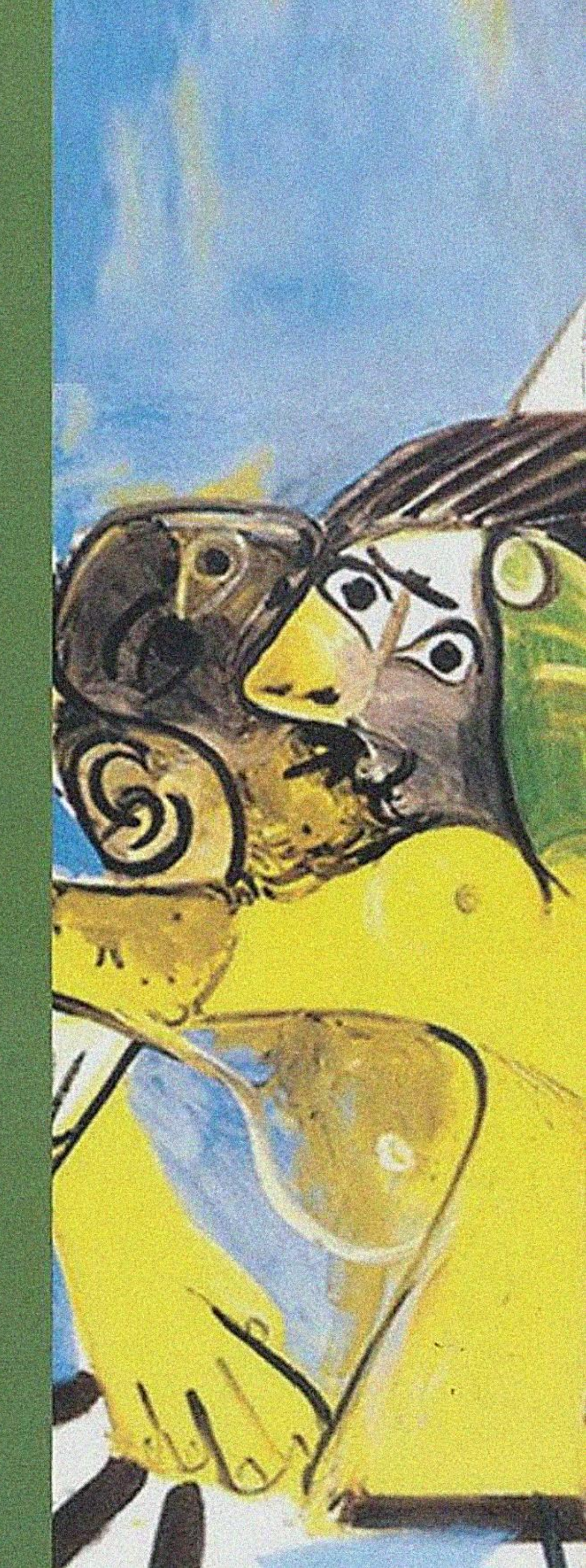
رواية

ميلان كونديرا

غراميات مرحة



ترجمة: محمد التهامي العماري

المركز الثقافي العربي

علي مولا

ميلان كونديرا

غراميات مرحة

رواية

ترجمة محمد التهامي العماري



هذه ترجمة عن اللغة الفرنسية لكتاب:

Risibles Amours

Milan Kundera

إن حقوق الترجمة العربية محفوظة للمركز الثقافي العربي
بموجب عقد مع صاحب حقوق النشر

© Milan Kundera, Risibles Amours 1968

وأي نسخ لهذه الطبعة أو أي ترجمة أخرى تقع في دائرة العمل غير المشروع
وتخضع للملاحقة القانونية

طبع هذا الكتاب بدعم من الملحقية
الثقافية لسفارة فرنسا في المغرب

الكتاب

غراميات مرحة

تأليف

ميلان كونديرا

ترجمة

محمد التهامي العماري

الطبعة

الأولى ، 2012

عدد الصفحات: 272

القياس: 14 x 21

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-534-7

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء - المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 - 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت - لبنان

ص.ب: 5158 - 113 الحمراء

شارع جاندارك - بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 - 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

الفهرس

لا أحد سيضحك

1

قالت لي كلارا: "اسكب لي كأساً أخرى من السليفوفيتس"، فلم أمانع. لفتح الزجاجة تذرعنا بحجة عادية، لكنها مقبولة: فقد تلقيت ذلك اليوم مبلغاً لا بأس به عن دراسة مطولة نشرتها في إحدى مجلات تاريخ الفن.

وإذا كانت دراستي قد وجدت طريقها إلى النشر، فذلك لم يكن بلا عناء. لقد كانت كلّها جدلاً وسجالاً، وهو ما جعل هيئة تحرير مجلة **الفكر التشكيلي** الرزينة والمتحفظة ترفض نشرها، ودفعني من ثمة إلى أن أعهد بها إلى مجلة منافسة. صحيح أنها أقل أهمية، لكن المشرفين على تحريرها هم أكثر شباباً واندفاعاً.

أحضر لي ساعي البريد الحوالة إلى الكلية مصحوبة برسالة، وهي رسالة غير مهمّة، بالكاد ألقيت عليها نظرة في الصباح وأنا مزهو برفعة مقامي الطارئة. لكنّني لمّا عدت إلى البيت، وبينما كانت الساعة تقترب من منتصف الليل، وكان محتوى الزجاجة يتناقص، تناولت الرسالة على سبيل التسلية عن المكتب، ورحت أقرأها على كلارا:

"رفيقي العزيز - هلاّ سمحت لي باستعمال عبارة: زميلي العزيز - اعذر رجلاً لم تسبق لك معرفة به بأن يتجاسر على الكتابة لك، ملتمسًا منك التفضل بقراءة المقالة المرفقة بهذا الخطاب. وإذا كنت لا أعرفك شخصيًا، فأنا أكنّ لك تقديراً كبيراً، لأنّني كنتُ دائماً أجد في آرائك واستنتاجاتك وخلاصاتك ما يؤيد بشكل مدهش نتائج أبحاثي الخاصة..."، وأردف هذا بإطراء على فضائلي وبالتماس: طلب منّي أن أتفضّل بكتابة تقرير عن مقالته، أوجّهه لمجلة **الفكر التشكيلي** التي رفضت نشرها، وظلّت تماطل منذ ستة أشهر. وقد قيل له إن نشرها يتوقف على رأيي فيها، بحيث صرت أمله الأخير، والبصيص الوحيد في ظلماته العنيدة.

تبادلنا أنا وكلارا كل أنواع المزح حول السيد زاتورتسكي الذي راقنا اسمه الضخم. كانت الطُّرف ودّية بطبيعة الحال، لأن المدح الذي كاله لي جعلني أبدو كريمًا، لا سيما وأنّني كنت أستمتع بزجاجة من "السليفوفيس" الجيّدة. وقد بلغ بي الكرم في هذه اللحظة التي لا تنسى بحيث غمرني شعور بحب العالم كلّه. وبما أنّني لم أكن أستطيع تقديم هدايا لكلّ العالم، فقد اكتفيت بتقديمها لكلارا على الأقل، أو بالأحرى تقديم وعود بها.

كانت كلارا فتاة في العشرين من العمر، تنحدر من عائلة كريمة. ليس من عائلة كريمة، بل راقية! فقد رُحّل أبوها، وهو مدير مصرف سابق -ومن ثمة ممثّل للبرجوازية الكبيرة- من براغ نحو سنة 1950، واستقرّ بقرية سيلاكوفيتس الواقعة بعيدًا عن العاصمة. أما ابنته التي لم تمنحها هيئة المشرفين علامة مشرّفة،

فكانت تشتغل خيّاطة في مصنع كبير تملكه إحدى المقاولات البراغية المتخصصة في صنع الملابس. كنت ذلك المساء جالساً قبالتها، ورحت أشجّع ميولها نحوي متفاخراً - بلا تروٍّ - بمزايا المنصب الذي وعدتها بأنّني سأتدبره لها بمساعدة أصدقائي. أكّدت لها أن من غير المعقول أن تفني فتاة جميلة مثلها جمالها أمام آلة خياطة، وقرّرت أنّ عليها أن تصير عارضة أزياء.

لم تعترض كلارا على كلامي، وقضينا الليلة في وفاق متناغم.

2

نجتاز الحاضر بعيون معصوبة، وأقصى ما نستطيعه هو أن نستشعر ونخمّن ما نعيشه. ونحن لا ندرك ما عشناه ونفهم معناه إلا لاحقاً، عندما تزول العصابة عن أعيننا، ونعيد تفحّص الماضي.

كنت أتخيّل نفسي ذلك المساء أشرب نخب نجاحي، ولم يخطر ببالي أبداً أنّ الأمر كان يتعلق بتدشين مهيب لنهايتي.

وما دمت لم أكن أشتبه في شيء، فقد استيقظت في اليوم التالي بمزاج رائق. وبينما كانت كلارا لا تزال نائمة نوماً سعيداً، تناولت المقالة المرفقة برسالة السيد زاتورتسكي، ومضيت أقراها في السرير بلا مبالاة مسلّية.

لم تكن المقالة المعنونة **رائد الرسم التشيكي**، ميكولاس آليس، تستحقّ حتّى هذه الثلاثين دقيقة اللامبالية التي منحتها إياها. كانت عبارة عن حشو من الأفكار المبتذلة حُشرت من بدون أدنى حسّ تحليلي منطقي، ومن دون أدنى فكره أصلية.

كانت تافهة بشكل لا جدال فيه، وهو ما أكّده لي رئيس تحرير مجلة **الفكر التشكيلي** الدكتور كالوسيك (وهو من أبغض الخلق) عبر الهاتف في اليوم نفسه. هاتفني وأنا في الكليّة وقال: "هل وصلتك مقالة السيد زاتورتسكي؟ هلا قدّمت لي خدمة بكتابة تقرير عنها، فقد سبق لخمسة متخصصين أن أبدوا حولها ملاحظات سلبية، لكنه ما زال يلحّ أنك المخوّل الوحيد في نظره. حرّر عنه بضعة أسطر تقول فيها إنّ المقالة واهية، فأنت مؤهّل لذلك، وتعرف كيف تكون لاذعاً، فتخلّصنا منه".

لكن شيئاً بداخلي ظل يمانع: لِمَ أكون أنا بالتحديد جلاد السيد زاتورتسكي؟ أأنا من يتقاضى عن ذلك راتب رئيس تحرير؟ ثم إنّني ما أزال أذكر جيّداً أنّ مجلة **الفكر التشكيلي** رفضت نشر بحثي. وعلاوة على هذا كلّه، فقد كان اسم السيد زاتورتسكي وثيق الصلة بالنسبة لي بذكرى كلارا، وبزجاجة "سليفوفيتس" وبسهرة رائعة. وأخيراً، وهو أمر لا أستطيع إنكاره، لأنّه إنساني. فمن يعتبرونني "سلطة وحيدة" لا يتجاوزون على الأرجح عدد أصابع اليد الواحدة. فكيف أجعل من هذا المعجب الأوحد عدوّاً؟

وأنهيت محادثتي مع كالوسيك ببضع طُرف وكلمات غامضة يستطيع كل منّا أن يفهمها على هواه. سيعتبرها هو وعداً، وأنا أعدّها مخرجاً؛ ثم وضعت السماعة وقد عقدت العزم على ألا أكتب أي تقرير عن السيد زاتورتسكي.

تناولت إذاً ورقة من درجي وكتبت للسيد زاتورتسكي رسالة تلافيت فيها بعناية إبداء أيّ حكم كيفما كان عن عمله، مفسّراً له أن معلوماتي عن رسم القرن التاسع عشر تعتبر في مجملها

خاطئة، لا سيما في نظر هيئة تحرير **الفكر التشكيلي**، إلى حدّ أن ضرر تقريري قد يكون أكبر من نفعه؛ وفي الوقت نفسه حاصرت السيد زاتورتسكي ببلاغة ودّية لا يسعه إلا أن يرى فيها علامة تعاطف معه.

وبمجرّد أن وضعت الرسالة في صندوق البريد، نسيت السيد زاتورتسكي، لكنه هو لم ينسني.

3

ذات يوم جميل بينما فرغت من درسي (وأنا أدرِّس تاريخ الرسم)، طرق باب قاعة الدرس، وأطلّت السيدة ماري السكرتيرة، وهي سيدة مسنّة ولطيفة، تُعِدّ لي القهوة، وتردّ على الهاتف بأنّني غير موجود عندما تسمع أصواتاً نسائية غير مرغوب فيها، وأخبرتني بأن شخصاً ينتظرني.

الرجال لا يخيفونني، لذلك ودّعت طلبتي، وخرجت بقلب مطمئن إلى الممرّ حيث كان ينتظرني سيد قصير القامة، يلبس بدلة بالية سوداء وقميصاً أبيض، فحيّاني وأعلن لي بأدب جمّ بأنه يدعى زاتورتسكي.

أدخلت زائري إلى قاعة فارغة، وقدّمت له مقعداً، ومضيت بنبرة مرحة أحدّثه عن كل شيء وعن لا شيء، عن الصيف الرديء الذي كنا نعيشه، وعن معارض براغ. وكان السيد زاتورتسكي يوافقني بأدب على ما أقول من تفاهات، لكنّه ما لبث أن أخذ يبحث في كلّ منها عمّا يعيدنا إلى مقالته التي حلّت بيننا بغتة بمادتها اللامرئية كما لو كانت مغناطيساً لا يقاوم.

وقلت له أخيراً: "سأكتب تقريراً حول مقالتك، وإن كان لا أحد كما شرحت لك في رسالتي يعتبرني متخصصاً في رسم القرن التاسع عشر الجمالي، هذا فضلاً على أنّ علاقتي بهيئة تحرير مجلة **الفكر التشكيلي** ليست على ما يرام، فهم يعتبرونني حداثياً عنيداً، بحيث إن حكمي حتّى ولو كان إيجابياً، قد يؤذيك". فردّ زاتورتسكي : "لا تقل هذا، فأنت تبالغ في التواضع. كيف لمتخصص مثلك أن يكون بهذا القدر من التشاؤم حول مكانته! فقد قالت لي هيئة التحرير بأنّ الأمر يتوقّف على رأيك، فإن كتبت تقريراً إيجابياً عن مقالتي، سينشرونها. إنك أملي الوحيد. لقد أخذ منّي هذا العمل ثلاث سنوات من الدراسة، ثلاث سنوات من البحث. الأمر كله الآن بين يديك".

بأيّ تهوّر ومن أي معدن رخيص نصنع حيلنا! ولم أعد أدري بِما أجيب السيد زاتورتسكي . وحين رفعت عينيَّ لكي أنظر إلى وجهه، رأيت نظارتين بريئتين باليتين، ولكنّني أبصرت أيضًا تغضّنًا عميقًا حازمًا يعبُر جبهته عموديًا. وشعرت في لحظة جلاء قصيرة برعشة تسري في عمودي الفقري: فهذا التغضّن الحذر العنيد لا يعكس فقط ملامح الاستشهاد الثقافي لصاحبه، المنكب على رسومات ميكولاس آليس، بل يعكس قوة إرادة غير معهودة. فقدت حضور بديهتي، ولم أعد قادرًا على العثور على عذر مقنع. كنت أعلم بأنّني لن أكتب هذا التقرير، لكنّني كنت أعرف أيضًا أنّني لا أملك الجرأة على مصارحة الرجل الضئيل المتوسل إليّ بذلك.

رحتُ أبتسم وأتلفظ بوعود غامضة، وشكرني السيد

زاتورتسكي قائلا إنّه سيعود لاحقًا للاستخبار، وودّعته مبتسمًا.

وعاد فعلاً بعد بضعة أيام، وأفلحت في تجنّبه، لكن قيل لي في اليوم التالي إنّه جاء من جديد يبحث عنّي في الكليّة. وأدركت أنّ الأمور بدأت تسوء، فهرعت فورًا إلى السيّدة ماري حتّى أتّخذ الإجراءات المناسبة.

"من فضلك سيدة ماري، إذا عاد هذا السيد وسأل عنّي، قولي له إنّني مسافر إلى ألمانيا في رحلة دراسيّة، وإنّي لن أعود قبل شهر. هناك أمر آخر: كلّ دروسي ألقيها يومي الثلاثاء والأربعاء. ابتداء من اليوم، سألقيها يومي الخميس والجمعة. بلغي هذا الأمر إلى طلبتي فقط، ولا أحد سواهم. ثم لا تغيّري جدول حصصي. ينبغي أن أظل متخفّيًا.

4

لم يكد يمضي وقت وجيز حتّى جاء السيد زاتورتسكي فعلاً يسأل عني في الكلية، وقد بدت عليه أمارات اليأس لمّا أخبرته السكرتيرة بأنّني سافرت على نحو مستعجل إلى ألمانيا. "لكن هذا مستحيل! فالسيد المساعد ينبغي أن يكتب تقريرًا حول مقالتي! كيف له أن يسافر هكذا؟ فأجابته السيدة ماري:

-لا علم لي بذلك، لكنه سيعود بعد شهر.

قال السيد زاتورتسكي متأوّهاً:

-شهر آخر... ألا تعرفين عنوانه في ألمانيا؟

ردّت ماري:

-لا علم لي به".

وهكذا نعمتُ بالطمأنينة لمدة شهر.

لكن الشهر مرّ أسرع مما كنت أتخيّل، وعاد السيد زاتورتسكي إلى مكتب السكرتيرة. فقالت له السيدة ماري "لا، لم يعد بعد". وحين التقيتها، قالت لي بنبرة متوسّلة: "لقد عاد صاحبك، ماذا تريدني أن أقول له؟ -قولي له إن اليرقان أصابني بألمانيا، وإنّني أرقد بالمستشفى في يينّا". ولما نقلت له السكرتيرة هذا الخبر بعد بضعة أيام صاح السيد زاتورتسكي: "بالمستشفى؟ هذا مستحيل، فالسيد المساعد ينبغي أن يكتب تقريرًا حول مقالتي!". فأجابته السكرتيرة معاتبة: "سيد زاتورتسكي، إن السيد المساعد طريح الفراش في الخارج، وأنت لا تفكر إلا في مقالتك!"، فما كان من السيد زاتورتسكي إلا أن طأطأ رأسه وغادر. لكنّه عاد من جديد بعد خمسة عشر يومًا: "لقد بعثت برسالة مضمونة إلى يينا، وقد أرجعوها إلي!". وفي اليوم التالي، قالت لي السيدة ماري: "سيصيبني صاحبك بالجنون. أرجو ألا تغضب، ولكن ماذا تريدني أن أقول له؟ لقد قلت له إنّك عدت، ينبغي أن تعتمد على نفسك في التصرّف معه!".

لست ألوم السيدة ماري، فقد فعلتْ ما بوسعها. ومهما يكن، كنت أبعد ما أكون عن الاعتراف بالهزيمة. كنت أعلم أنّني أتقن المراوغة. وهكذا صرت دائم التخفي، ألقي دروسي خلسة يومي الخميس والجمعة، وأتوجّه إلى الكلية يومي الثلاثاء والأربعاء متخفيًا، فأقبع عند بوابة إحدى العمارات الواقعة مقابل المؤسسة، وأتسلّى بمنظر السيد زاتورتسكي وهو يترصّد خروجي.

كان بودّي أن أضع شعرًا ولحية مستعارين، وكنت أتصور نفسي مثل شارلوك هولمز أو جاك السفاح، رجلاً خفيًا يجوب شوارع المدينة. وكان هذا يجعل مزاجي رائقًا.

لكن حلّ اليوم الذي ملّ فيه السيد زاتورتسكي من ترصدي، فتجرأ على السيدة ماري وقال لها: "متى يلقي الرفيق المساعد محاضراته؟"، فردّت السيدة ماري وهي تشير إلى لوحة مربعة على الجدار كتبت عليها مواقيت الدروس بوضوح مثالي: "ما عليك إلا أن تبحث في جدول حصصه". قال السيد زاتورتسكي مقاطعًا إياها:

"أعلم ذلك، لكن السيد الرفيق لا يلقي دروسه أبدًا يومي الثلاثاء والأربعاء. هل هو متوقّف عن العمل؟"

أجابت السيدة ماري بضيق: "كلا".

فعاب عليها عدم إعداد جدول الحصص. وتساءل بسخرية كيف تسمح لنفسها بعدم معرفة الأوقات التي يلقي فيها الأساتذة دروسهم، وأعلن أنه سيتقدم بشكاية ضدّها. كان يتحدث بصوت عال، وصرّح بأنه سيشكو أيضًا الرفيق المساعد الذي لا يلقي دروسه، وسأل ما إذا كان عميد الكلية موجودًا.

ومن سوء الحظ كان العميد موجودًا.

طرق السيد زاتورتسكي بابه، ودلف إلى المكتب. وبعد عشر دقائق عاد إلى مكتب السيدة ماري، وطلب منها بفظاظة أن تعطيه عنواني الشخصي.

"20، شارع سكالنيكوفا في ليتوميسل"، قالت السيدة ماري.

-كيف ذلك، في ليتوميسل؟

-السيد المساعد يقطن في منزل موقت هنا في براغ، وهو لا يرغب في أن أدلّ أحدًا على عنوانه...

-لا بدّ أن تعطيني عنوان السيد المساعد ببراغ، صاح الرجل الضئيل بصوت متهدّج.

فترت همّة السيدة ماري، فقدّمت له عنوان غرفتي الواقعة على السطوح، ملاذي البائس، جحري الذي سيتعقبونني إليه.

5

أجل، كان مقرّ سكني الدائم في "ليتوميسل". هناك توجد أمي وبعض ذكريات أبي. وكلما سنحت الفرصة، أترك براغ إلى مسكن أمي الصغير، لكي أعمل وأدرس، حتّى إني احتفظت بعنوان أمي عنوانًا دائمًا لي. لكنّني في براغ، لم أفلح في العثور حتّى على شقة من غرفة واحدة تليق بي وبوضعي. فقد كنت أسكن في غرفة علوية صغيرة مستقلة استأجرتها سرًّا، تقع في أحد أحياء الضاحية. وكنت أجتهد في إخفاء وجودها عن الآخرين حتّى أتلافى لقاء زواري غير المرغوبين مع عشيقاتي العابرات.

لا أستطيع أن أزعم إذاً أن سمعتي في العمارة كانت على أحسن ما يرام، فضلاً عن أنني كثيرًا ما كنت خلال سفري إلى ليتوميسل أعير الغرفة لبعض الأصدقاء ليمرحوا فيها طوال الليل، حارمين بذلك الجيران من النوم. كل هذا أثار عليّ سخط المستأجرين الآخرين الذين كانوا يناصبونني العداء بصمت، وهو

عداء كان يفصح عن نفسه بين الفينة والأخرى من خلال الآراء التي تتداولها لجنة الحي بشأني، ومن خلال الشكاوى التي كانت تقدّم ضدي إلى مصلحة السكن.

في هذه الفترة التي أتحدث عنها، قرّرت كلارا، التي بدأت تتعب من التنقل بين تسيلاكوفيتس وبراغ للعمل، أن تبيت عندي، بشكل خجول واستثنائي في البداية، ثم أودعت في الشقة فستانًا، ثم فساتين عديدة. ولم تكد تمضي مدّة من الزمن حتّى أزاحت بدلتيّ إلى أقصى الخزانة، وحوّلت غرفتي إلى صالون نسائي.

كان جمال كلارا الأخاذ نقطة ضعفي، وكان يروقني أن يلتفت الناس لاستراق النظرات إلينا حين نخرج معًا. كانت تصغرني بثلاثة عشر عامًا، وهو أمر ما كان له إلا أن يرفع من قدري في عيون طلبتي. وعمومًا: كان لي ألف سبب لأتمسك بها. غير أنّني لم أكن أرغب في أن يشيع خبر سكنها معي. كنت أخشى أن أعرّض مؤجّري الجريء لسوء، لا سيما وأنه رجل عجوز يبدي كثيرًا من التواضع ولا يهتم بأمري. وكنت أخاف أن يأتيني يومًا ممتعضًا مغمومًا يرجوني أن أطرد رفيقتي حرصًا على سمعته. لذلك أصدرت تعليماتي الصارمة لكلارا بألا تفتح الباب لأحد.

كانت ذلك اليوم بمفردها، وكان الجو مشمسًا بحيث كانت حرارة الغرفة خانقة. استلقت إذًا عارية على الأريكة، ومضت تتأمل السقف.

في هذه اللحظة بالذات، سمعت نقرًا على الباب. لم يكن ثمّة ما يدعو للقلق. فما دام لا يوجد جرس بباب غرفتي، كان الزوار مضطرين للطرق، وهو ما لم يزعج كلارا، ولم يجبرها

على قطع حبل تأملها للسقف. لكن الطرق لم يتوقف، بل تواصل بعناد هادئ وغامض. وانتهى الأمر بأن ثارت أعصابها، ومضت تتخيّل سيّدًا أمام الباب يتفحص ياقة سترته، وأنه سيسألها بفظاظة عن سبب امتناعها عن فتح الباب، وعمّا تخفي، وما إذا كان مصرّحًا لها السكن في هذا العنوان أم لا، فاستسلمت لشعور بالذنب، وكفّت عن التحديق في السقف، وجالت بعينيها في الغرفة بحثًا عن ملابسها. لكن الطرقات كانت من العناد بحيث لم تجد من شدّة ارتباكها غير سترتي الواقية من المطر معلقة في المدخل، فارتدتها وفتحت الباب.

لكنها عوض أن تجد وجهًا متجهّمًا وفضوليًا عند عتبة الباب، لم تر غير رجل ضئيل حيّاها: "-هل السيد المساعد موجود؟ -كلا، لقد خرج! قال الرجل الضئيل: يا للأسف، ثم اعتذر بأدب. ينبغي أن يكتب السيد المساعد تقريرًا حول مقالة كتبتها. لقد وعدني بذلك، وهو أمر في غاية الاستعجال. إذا سمحت، أودّ أن أترك له على الأقل رسالة".

قدمت كلارا للرجل الضئيل ورقة وقلمًا. وفي المساء قرأتُ أنّ مصير مقالته حول "ميكولاس آليس" موضوع بين يدي، وأن السيد زاتورتسكي ينتظر باحترام أن أكتب التقرير الموعود. وأضاف أنه سيسأل عني من جديد في الكلية.

6

وفي اليوم التالي حكت لي ماري أنّ السيد زاتورتسكي هدّدها، وأنه استشاط غضبًا، وذهب يشكوها. كان صوت

المسكينة متهدّجًا وقد أوشكت على البكاء. وهذه المرّة تملّكني السخط. لم أفهم لماذا شعرت السيدة ماري بالإهانة، وهي التي كانت تتسلّى حتى ذلك الحين بلعبة الغميضة هذه (بدافع التعاطف معي أكثر منه بدافع فكاهي صريح)، فاعتبرتني مصدر متاعبها. ولمّا أضفت إلى هذا كشف السيدة ماري للسيد زاتورتسكي عن عنواني، وأنه طرق بابي لمدة عشر دقائق، تحول سخطي إلى غيظ.

وبينما كنت أذرع مكتب السيدة ماري، وأنا أعض على شفتيّ وأغلي، مفكرًا في طريقة للانتقام، إذا بالباب يفتح، ويظهر منه السيد زاتورتسكي .

وما إن رآني حتّى استبشر، وانحنى لتحيتي.

لقد جاء مبكّرًا قبل أن أجد الوقت للتفكير في انتقامي، وسألني ما إن كنت تسلّمت الرسالة التي تركها لي في اليوم السابق.

لم أجب.

فكرّر سؤاله. وأجبته أخيرًا: تعم.

-وهل ستحرر ذلك التقرير؟.

كنت أنظر إليه أمامي: سقيمًا، عنيدًا، مرعبًا، ورأيت تلك التجعيدة العمودية التي ترسم على جبينه ملمح شغف وحيد. نظرت إلى ذلك الخط، ففهمت أنه مستقيم تحده نقطتان هما: تقريري ومقالته، وأنه باستثناء هذا الخط الهذياني، لا يوجد في حياته شيء غير زهد يليق بقديس. واستسلمت لسوء نية مخلّصة.

فقلت له: "أرجو أن تفهم أنه ليس لي ما أقوله لك بعد الذي وقع في الأمس.

-لا أفهم قصدك.

-لا داعي للتمثيل، لقد قالت لي عن كل شيء. لن يفيدك الإنكار في شيء.

-لا أفهم قصدك". كرر الرجل الضئيل مرة أخرى، ولكن بنبرة أكثر حزمًا هذه المرّة.

ثم قلت له بنبرة مرحة تكاد تكون ودية: "اسمع يا سيد زاتورتسكي ، لا أريد أن ألومك، فأنا أيضًا زير نساء، ولهذا فأنا أفهمك. أنا بدوري لو كنت مكانك، ووجدت فتاة جميلة في شقة بمفردها، عارية لا تلبس غير واقٍ من المطر لقدمت لها اقتراحات بكل طيبة خاطر".

قال الرجل الضئيل وقد شحب لونه: "إنها إهانة!

-لا ، ليست إهانة يا سيد زاتورتسكي ، إنها الحقيقة.

-أتلك المرأة هي التي قالت لك هذا؟

-ليس بيني وبينها أسرار.

-إنها إهانة أيها الرفيق المساعد. أنا رجل متزوج! لدي زوجة وأولاد!". وخطا الرجل الضئيل خطوة نحوي بحيث أجبرني على التراجع إلى الوراء.

"وهذا ظرف مشدّد للعقوبة يا سيد زاتورتسكي .

-ماذا تقصد؟

-أقصد أن الزواج يشكل ظرفًا مشدّدًا للعقوبة بالنسبة لزير نساء.

-اسحب هذا الكلام، قال السيد زاتورتسكي بلهجة متوعّدة.

-موافق! قلت بنبرة ودودة. ليس الزواج ظرفًا مشدّدًا للعقوبة بالنسبة لزير نساء. على كل حال، فقد قلت لك إني لا أعتب عليك، وأفهمك جيدًا، لكنْ، هناك بالرغم من هذا أمر يتجاوزني وهو أن تطلب من رجل كتابة تقرير عن مقالتك بعد أن تحرّشت بصديقته.

-أيّها الرفيق المساعد! من يطالبك بكتابة ذلك التعليق هو السيد كالوسيك، دكتور الآداب ورئيس تحرير مجلة **الفكر التشكيلي** الصادرة عن أكاديمية العلوم، ويتعيّن عليك أن تكتبه.

-اختر! هل تريد الحصول على تقريري أم على صديقتي! لا يمكن أن تحصل على الاثنين معًا!".

صاح زاتورتسكي وقد تملّكه غضب يائس:

-"يا له من سلوك!".

وساورني إحساس، وهو أمر غريب، بأن السيد زاتورتسكي قام فعلاً بمراودة كلارا عن نفسها، فانفجرت بدوري ورحتُ أصرخ: "كيف تسمح لنفسك بأن تلقّنني دروسًا في الأخلاق؟ كان حريًا بك أن تطلب مني المعذرة أمام سكرتيرتي!"

وأدرت ظهري للسيد زاتورتسكي الذي غادر الحجرة متخبّطًا من الاضطراب.

"الحمد لله" قلت متنهّدًا بعد أن انتصرت في هذه المعركة الصعبة، وأضفت موجّهاً كلامي للسيدة ماري: "أظن أنه سيريحني الآن من هذا التقرير!".

وبعد لحظة من الصمت، سألتني السيدة ماري بخجل:
"ولماذا لا تريد أن تكتب له هذا التقرير؟

-لأن مقالته، يا صغيرتي ماري، عبارة عن حشو من الترّهات.

-ولماذا لا تكتب تقريرًا تقول فيه إنها مجرد حشو من الترّهات؟

-ولماذا ينبغي أن أكون أنا من يكتب ذلك؟ لماذا ينبغي أن أخلق لنفسي أعداء؟".

وبينما كانت السيدة ماري تنظر إليّ بابتسامة سمحة، إذا بالباب يفتح، ويظهر منه السيد زاتورتسكي مادًّا ذراعه إلى الأمام:

"سنرى من منّا سيقدّم الاعتذار للآخر!".

ألقى بهذه الكلمات بصوت متهدّج واختفى.

7

لا أذكر بالتحديد أكان ذلك في اليوم نفسه أم بعد بضعة أيام، إذ وجدنا في صندوق البريد ظرفًا ليس عليه عنوان. وكان الظرف يحمل ورقة كتب عليها بحروف كبيرة وخط رديء: سيدتي! أرجو أن تزوريني في بيتي لكي نتحدث عن الإهانة التي وُجّهت لزوجي! سأكون بالبيت طوال اليوم. وإذا لم تأتي، سأجدني مضطرة للتصرّف. آنا زاتورتسكي ، براغ 3، داليمولوفا 14.

بدأ الخوف يتسرب إلى نفس كلارا، وقالت إنّني مسؤول عمّا يحدث. وبحركة من يدي أزحت مخاوفها، وأعلنت أن معنى الحياة هو على وجه التحديد التسلّي بها، وإذا ما ألفينا الحياة أخمل من أن تطاوع ذلك، وجب أن نعطيها دفعة خفيفة. ينبغي على الإنسان أن يركب دومًا مغامرات جديدة، أن يسرج أحصنة جديدة من دونها سيجد نفسه معفّرًا بالتراب مثل جندي مشاة متعب. ولما أجابت كلارا بأنها لا ترغب في ركوب أي مغامرة، أكدت لها أنها لن تلتقي أبدًا لا بالسيد زاتورتسكي ولا بزوجته، وأن المغامرة التي اخترت ركوبها طوعًا سأروضها من دون مساعدة من أحد.

في الصباح، وبينما كنا نهمّ بمغادرة العمارة، استوقفنا الحارس. لم يكن الحارس عدوًا، فقد منحته خمسين كورونًا قبل أيام من ذلك، ومن حينها صرت أعيش باقتناع بهيج بأنه اعتاد على تجاهلي، وأنه لا يصب الزيت على النار التي يوقدها ضدي أعدائي بالعمارة. وقال لي:

"سأل عنك شخصان أمس".

-من هما؟

-قزم وزوجته.

-كيف هي الزوجة؟

-أطول منه برأسين. امرأة حازمة، صارمة. استخبرت عن كل شيء"، ثم توجه إلى كلارا: "ولا سيما عنك. كانت تريد أن تعرف من أنت وما اسمك؟". فصاحت كلارا:

-يا إلهي! وماذا قلت لها؟

-ماذا تريدين أن أجيبها؟ أأعرف من يزور السيد المساعد؟ قلت لها إنه يستقبل كل ليلة فتاة جديدة.

فقلت: "ممتاز!"، ثم أخرجت من جيبي ورقة من فئة عشر كورونات. "استمرّ على هذا النحو!".

إثر ذلك طمأنت كلارا:

-لا تخشي شيئًا، لن تذهبي يوم الأحد إلى أي مكان، ولن يمسّك أحد بسوء.

جاء يوم الأحد، وبعده الاثنين ثم الثلاثاء ثم الأربعاء. ولم يحدث شيء. "أرأيتِ" قلت لكلارا.

لكن لما حلّ يوم الخميس، وبينما كنت أشرح لطلبتي في درس سرّي -كالعادة- كيف أن الوحشيّين(*) الشباب حرّروا بتضامنهم وحماستهم اللون من التأثرية الوصفية، إذا بالسيدة ماري تفتح الباب وتقول لي بصوت خافت: "زوجة ذلك الزاتورتسكي تسأل عنك! -أنت تعلمين أنّني غير موجود. أطلعيها على جدول الحصص". لكن السيدة ماري حركت رأسها. قلت لها إنك غير موجود، لكنها أطلت على مكتبك فأبصرت معطفك معلقًا على المشجب، وهي لا تزال تنتظرك في الممر".

تشكل المآزق بالنسبة إليّ أجمل لحظة اختبار لذكائي. قلت لطالب أثير لدي: "أيمكن أن تسدي لي خدمة؟ اذهب إلى مكتبي

(*) لقب أطلق على أعضاء مدرسة فنية تشكيلية ظهرت مع مطلع القرن العشرين، وقد سميت كذلك لاعتماد الفنان في معالجة لوحته على الألوان الصارخة والشكل المبسط العفوي.

وارتدي معطفي، ثم غادر الكلية! ستحاول امرأة أن تتأكد من أنك أنا، لكن مهمّتك بالضبط هي إنكار ذلك مهما كلف الثمن".

خرج الطالب، ثم عاد بعد نصف ساعة معلنًا أن المهمّة تمّت بنجاح، وأنّ الطريق سالكة، والمرأة انصرفت.

وهكذا انتصرت هذه المرة.

لكن ما إن حلّ يوم الجمعة، حتّى عادت كلارا إلى البيت وهي ترتعش. في ذلك اليوم فتح السيد المسؤول عن استقبال الزبونات في مشغل الخياطة الجميل، الباب المؤدي إلى داخل الورشة التي تعمل فيها كلارا بينما كانت هي منكبة على آلتها بصحبة خمس عشرة عاملة أخريات، وصاح: "هل بينكن من تسكن في رقم 5، شارع الشاتو؟".

فهمت كلارا فورًا أنها هي المقصودة ما دام رقم 5 شارع الشاتو هو عنواني. لكنّها لم تجفل بفضل الحرص الذي رسخته فيها بعناية، فقد كانت تدرك أنها تسكن معي خفية، وأن الأمر لا يعني أحدًا. قال السيد المسؤول لما لاحظ صمت العاملات: "هذا ما شرحت لها"، ثم غادر. وعلمت كلارا في ما بعد بأن صوتًا نسائيًا صارمًا أجبره، في معرض محادثة هاتفية، على أن يراجع عناوين كل عاملاته، وبذل ما بوسعه طوال ربع ساعة ليقنعه بأنّ إحداهن تقطن في رقم 5، شارع الشاتو.

خيّم شبح السيد زاتورتسكي على شقتنا الهادئة. وقلت بصوت عال: "كيف اكتشفت مقرّ عملك؟ لا أحد هنا في العمارة يعرف عنك شيئًا".

أجل، لقد كنت مقتنعًا فعلاً بأنّ لا أحد يعرف شيئًا عن حياتنا. كنت أعيش مثل أولئك الأشخاص غريبي الأطوار الذين يعتقدون بأنهم يفلتون من نظرات المتطفلة، متحصنين بأسوار عالية، غافلين أمرًا ثانويًا: أن تلك الأسوار من زجاج شفاف.

رشوت الحارس لكي لا يبوح بأنّ كلارا تقطن معي، وألزمتها بالتخفي والتكتّم الصارمين، ومع ذلك كان كل سكان العمارة يعلمون بأمرها. كان يكفي أن تخوض ذات يوم في محادثة طائشة مع مستأجرة في`الطابق الثاني حتّى يعلم الجميع أين مقرّ عملها.

لقد انكشف أمرنا منذ زمن بعيد من دون أن ننتبه لذلك. شيء واحد فقط كان يجهله مضطهدونا: اسم كلارا. فبفضل هذا السرّ الصغير كان بإمكاننا الإفلات من قبضة السيدة زاتورتسكي التي كانت تخوض المعركة بشكل منهجي، وبإصرار اقشعرّ له بدني.

أدركت أن الأمر أصبح جادًّا، وأن حصان مغامرتي كان مسرجًا جيدًا هذه المرّة.

8

حدث ذلك إذًا يوم الجمعة. ولما عادت كلارا يوم السبت من عملها، كانت ترتجف. وهذا ما حصل:

لقد زارت السيدة زاتورتسكي برفقة زوجها مؤسسة الألبسة الجاهزة التي اتصلت بها عبر الهاتف في اليوم السابق، وطلبت من المدير أن يسمح لها ولزوجها بزيارة الورشة بغية تفحّص

وجوه العاملات الحاضرات. وطبعًا استغرب الرفيق المدير هذا الطلب، لكنه لم يجد بدًّا من الموافقة أمام إلحاح السيدة زاتورتسكي التي تفوّهت بكلام محيّر أشارت فيه إلى مسألة التشهير وإلى تحطيم حياة شخص وإلى المتابعة القضائية. كان السيد زاتورتسكي يقف بجانبها مقطّبًا بصمت.

سُمِح لهما إذاً بالدخول إلى الورشة. رفعت العاملات رؤوسهن بلا مبالاة، وتعرّفت كلارا على الرجل الضئيل، فشحب لونها، ومضت تخيط بتكتم واضح.

"تفضلا" قال المدير بتهذيب ساخر للزوجين المتصلبين، وأدركت السيدة زاتورتسكي أن عليها أن تأخذ المبادرة، فقالت لزوجها مشجّعة: "هيّا انظر!". ورفع السيد زاتورتسكي بصره الكئيب، وجال به الغرفة من أقصاها إلى أقصاها. وسألته السيدة زاتورتسكي بصوت خفيض: "هل هي هنا؟".

رغم نظارتيه لم يكن للسيد زاتورتسكي بصر حاد يسعفه في الإحاطة بنظرة واحدة بكل هذا المكان الواسع وغير المرتّب، المكتظ ببقايا السلع وبالملابس المعلّقة على قضبان أفقية طويلة، وبالعاملات المشاغبات اللواتي لا يستطعن البقاء ثابتات أمام الباب، بل كنّ يُدِرن ظهورهن، ويتحرّكن على كراسيهن، يقفن أو يلتفتن. وقرّر السيد زاتورتسكي أخيرًا أن يتقدم داخل الورشة لكي يتفحصهن واحدة واحدة.

لمّا وجدت النسوة أنفسهنّ محطّ نظرات رجل غريب وغير جذّاب، راودهن شعور غامض بالخجل، وعبّرن عن سخطهن بالاستهزاء والغمغمة. وصاحت إحداهن، وهي شابة قوية، بوقاحة: "يبحث عن الداعرة التي تسببت في حمله!".

انهال الضحك العنيف الصاخب على الزوجين الخجولين والعنيدين، فواجهاه بكبرياء غريب. وصاحت الجريئة بالسيدة زاتورتسكي :

"أمّاه، إنك لا تحسنين مراقبة صبيّك! لو كان لي صبيّ بهذا الجمال لما تركته يبرح البيت!

-أنظر"، همست الزوجة للزوج، بينما راح الرجل الضئيل المسكين يتجوّل ببطء داخل الورشة، وقد علته الكآبة والخجل، كما لو كان يتقدّم بين صفين من الضربات والشتائم، ولكن بخطى ثابتة، دون أن يغفل تفحّص كل وجه من الوجوه.

كانت تصدر عن المدير خلال كل هذا المشهد ابتسامة محايدة. فهو يعرف عاملاته، ويعلم أنه لن يستطيع ضبطهنّ، وسأل السيد زاتورتسكي متظاهرًا بعدم سماع جلبتهن: "لكن، كيف هي هذه المرأة؟".

التفت السيد زاتورتسكي نحو المدير وأجاب بصوت هادئ خفيض: "إنها جميلة... فائقة الجمال...".

في غمرة ذلك، انكمشت كلارا في ركن من أركان الحجرة، بخلاف كل النساء الأخريات الجامحات، بهيئتها القلقة ورأسها المطأطأ وحركاتها المضطربة. آه، كم كان أداؤها لدور الفتاة المتواضعة العادية سيئًا! وها هو السيد زاتورتسكي على بعد خطوتين من آلتها، وما هي إلا لحظة حتّى يحدّق فيها!".

استدرك الرفيق المدير بأدب وقال للسيد زاتورتسكي: "أنت تتذكر أنها جميلة، ولكن هذا لا يعني شيئًا. عندنا كثير من النساء الجميلات! أهي طويلة أم قصيرة؟

-طويلة.

-شقراء أم سمراء؟

-شقراء" أجاب زاتورتسكي بعد تردد قصير.

يمكن أن يُتّخذ هذا المقطع من حكايتي مثالاً لسلطة الجمال. فيوم رأى السيد زاتورتسكي كلارا في بيتي بهره جمالها إلى درجة أنه لم يرها في الحقيقة، ذلك أن الجمال بسط أمام عينيه غشاء غير شفاف، غشاء من نور حجبها عنه مثل خمار.

ذلك أن كلارا لم تكن طويلة ولا شقراء، ووحدها عظمة الجمال الداخلية جعلتها تبدو في عيني السيد زاتورتسكي طويلة القامة، وجعلت النور الصادر عن جمال شعرها يبدو بلون الذهب.

لما بلغ الرجل الضئيل أخيرًا إلى الركن الذي تجلس فيه كلارا ببدلة العمل البنية وقد علاها التوتر، منهمكة في خياطة أجزاء تنورة، لم يتعرف عليها، لأنه لم يسبق له قط أن رآها من قبل.

9

لما فرغت كلارا من سرد حكايتها بطريقة مرتبكة وغير واضحة، قلت لها: "أرأيت كم نحن محظوظان!".

لكنها قالت بعناد وهي تشهق: "كيف أننا محظوظان؟ إن لم يعثرا عليّ اليوم، فسيعثران عليّ غدًا".

-أودّ أن أعرف كيف.

-سيبحثان عنّي هنا، في بيتك.

-لن أفتح الباب لأحد.

-وإذا بعثا الشرطة؟ وإذا ألحّا وأجبراك على البوح بهويتي. لقد لوّحت باللجوء إلى الشرطة، إنها تتّهمني بالتشهير بزوجها.

-أرجوك! سأهزأ بها. كل هذا لم يكن سوى مزحة.

-ليس هذا وقت مزاح، فالناس في أيامنا يأخذون كل شيء على محمل الجد، وسيقولون إنّني تعمّدت الإساءة لسمعته. كيف تريد أن يصدّق الناس أنه راود امرأة عن نفسها إذا ما شاهدوه؟".

فقلت لها:

-أنت محقّة يا كلارا، سيتعقّبونك بلا ريب.

وأجابت كلارا قائلة:

-إنك تقول حماقات. أنت تعلم أنّني مضطرة لتوخّي الحذر. لا تنس من يكون أبي. حتّى لو تعلّق الأمر بمجرّد دعوة للتحقيق أمام محكمة جزائية، فإن ذلك سيُدوّن في ملفي، وسأقضي بقية حياتي في الورشة. وبالمناسبة أريد أن أعرف أين أصبح منصب عارضة الأزياء الذي وعدتني به. ثم إنّني لا أريد إمضاء الليل عندك بعد اليوم. فأنا أخشى قدومهما للبحث عنّي هنا. سأعود إلى تسيلاكوفيتس.

كانت تلك هي أوّل محادثة ذلك اليوم.

ثم جرت محادثة أخرى بعد ظهر اليوم نفسه، بعد اجتماع هيئة التدريس في القسم.

أدخلني رئيس القسم، وهو باحث محنّك في تاريخ الفن وسيّد سمح، إلى مكتبه، وقال لي:

"لعلك تدرك أنّ البحث الذي نشرته يضرّ بمركزك أكثر مما يفيدك؟

فأجبته:

-نعم، أدرك ذلك.

-يشعر عدد من الأساتذة هنا في الكلية بأنك تقصدهم، أما عميد الجامعة فيعتبر البحث هجومًا موجّهًا ضد أفكاره.

-وماذا عساني أفعل؟

-لا شيء، أجاب رئيس القسم. ولكنك تعلم أن الأساتذة المساعدين يعيّنون لثلاث سنوات. وفي ما يخصّك، فهذه المدة ستنقضي قريبًا، وستنظم مباراة لشغل المنصب الشاغر. وقد جرت العادة على أن تسند اللجنة المنصب لمرشح سبق له التدريس في الكلية. ولكن هل أنت واثق من احترام هذه العادة في حالتك؟ في نهاية المطاف ليس هذا ما كنت أودّ التحدث معك بشأنه. إلى الآن لا تزال هناك حجّة في صالحك: أنك كنت دائمًا تلقي دروسك بتفانٍ، وتحظى بحب طلبتك لأنهم يستفيدون ممّا تلقنهم. لكن حتّى هذه الحجّة ما عاد بإمكانك التعويل عليها. فقد أخبرني العميد بأنّك انقطعت بلا عذر عن إلقاء دروسك منذ ثلاثة أشهر. وقد يكون هذا مبرّرًا كافيًا لطردك فورًا.

شرحت للأستاذ أنّني لم أهمل أيّ درس، وأنّ الأمر مجرّد مزحة، ورويت له قصة السيد زاتورتسكي وكلارا. فقال الأستاذ:

طيّب، أنا أصدّقك. لكن تصديقي لكلامك لا يغيّر في الأمر شيئًا. فالجميع في الكلية الآن يردّدون أنك لا تلقي دروسك، وقد سبق للمسألة أنّ أثيرت في لجنة المشروع، وأثيرت بالأمس في مجلس الكلية.

-لكن لماذا لم يحدّثني أحد في المسألة سابقًا؟

-عمَّ سيحدثونك؟ فالأمر واضح على ما يبدو. هم بصدد مراجعة تصرفاتك في الماضي، ويبحثون فيها عن علاقة بين ماضيك وسيرتك الحالية.

-ما السوء الذي سيجدونه في سيرتي الماضية؟ أنت نفسك تعلم كم أتفانى في عملي. لم يسبق لي أن تغيّبت عن درس من دروسي. ضميري مرتاح من هذه الناحية.

فقال الأستاذ:

-تحفل حياة كل إنسان بعدد لا يحصى من الدلالات. فماضي كلّ منّا يمكن أن يصير، بحسب الطريقة التي يُقدّم بها، سيرة رئيس دولة محبوب أو سيرة مجرم. تفحّص حالتك فقط بإنعام. فأنت لا تحضر الاجتماعات، وحتّى حين تحضر، تلزم الصمت. فلا أحد يستطيع معرفة أفكارك على وجه التحديد. أنا نفسي أذكر أنه حتّى عندما نكون بصدد مناقشة أشياء جادة، تتفوّه أنت فجأة بطرفة تثير الشكوك، وهي شكوك تنسى على الفور، لكن اليوم حين نبحث عنها في الماضي، فإنها سرعان ما تتشبّع بإيحاءات دالة. أوَتذكر كل أولئك النساء اللواتي كنت تكلّف السكرتيرة بأن تزعم لهنّ أنك غير موجود في الكلية! أو لنأخذ بحثك الأخير الذي قد يشي بأنه مكتوب انطلاقًا من مواقف

سياسية مشبوهة. بطبيعة الحال، كل هذه ليست إلا وقائع معزولة. لكن يكفي تفحّصها في ضوء أخطائك الحالية لكي تشكّل كلاً منسجمًا يعطي صورة واضحة عن عقليتك وسلوكك.

فصرخت فيه:

-عن أي مخالفة تتحدث! سأشرح علناً الأمور كما حدثت، فالبشر إن كانوا بشرًا، لن يسعهم إلا أن يضحكوا منها.

-كما تريد. لكنك ستكتشف أن البشر ليسوا بشرًا، وأنك لا تعرف من هم البشر. لن يضحكوا. إذا حكيت لهم الأمور كما جرت، فسيظهر أنك لم تتوان عن القيام بواجبك كما هو محدّد في جدول الحصص فحسب، أي أنك لم تقم بواجبك كما ينبغي، بل ألقيت دروسك خلسة، أي أنّك قمت بما لا ينبغي لك القيام به. فضلاً عن ذلك، سيتّضح أنّك أهنت شخصًا قصدك لطلب المساعدة. سيتّضح أيضًا أنك تعيش حياة داعرة، وأنك تؤوي في بيتك فتاة من دون تصريح، وهو ما سيعطي رئيسة المشروع انطباعًا سيئًا عنك. سيشيع الأمر، والرب وحده يعلم عدد الإشاعات التي ستشيع عنك، وهو ما سينزل بردًا وسلامًا على كل من يكرهونك لأفكارك، ولكنهم سيهاجمونك تحت ذريعة أخرى.

كنت أعلم أن ذلك الأستاذ لم يكن يقصد إلى تخويفي ولا إلى تضليلي. فقد كنت أعتبره إنسانًا أصيلاً، ولم أشأ الانسياق وراء شكوكه. لقد امتطيت ذلك الحصان طوعًا، لذلك لن أرضى بأن ينتزع العنانَ من يدي، ويقودني حيث يشاء. كنت على استعداد لخوض المعركة.

لـم يكـن الحصـان يأبى النزال. وعندما عدت إلى البيت، وجدت في علبة الرسائل استدعاء لحضور الاجتماع القادم للجنة الحي.

10

كانت لجنة الحي تعقد اجتماعاتها في متجر قديم مهجور حول مائدة مستطيلة. عيّن لي رجل مقعدًا، وكان ذلك الرجل الغريب الأطوار ذا ذقن ضامرة، يضع نظارتين واشتعل رأسه شيبًا. شكرته وجلست، فبدأ الكلام. أعلن أن لجنة الحي وضعتني تحت المراقبة منذ مدة، وأن أعضاءها يعرفون حقّ المعرفة أنّني أعيش حياة فاسقة، وهو ما ترك انطباعًا سيئًا لدى محيطي، وأن جيراني في العمارة سبق أن اشتكوا من حرمانهم من النوم لليلة كاملة بسبب الضجيج الصادر عن شقتي، وأن كل هذا كان كافيًا لتشكيل صورة حقيقية عن شخصيتي. وعلاوة على كل هذا، وفدت على اللجنة الرفيقة زاتورتسكي ، وهي زوجة أحد العاملين في البحث العلمي، طالبة الدعم. ذلك أنه كان يتعيّن عليّ كتابة تقرير حول عمل زوجها العلمي منذ ستة أشهر، وأنّني لم أقم بذلك، بالرغم من أنّني أعلم أن مصيره العلمي كان بين يديّ. فقلت مقاطعًا الرجل ذا الذقن الضامرة:

"من الصعب وصف ذلك العمل بالبحث. إنه حشو من الأفكار المقتبسة!".

عندئذ تدخلت شقراء في الثلاثين من العمر، ترتدي ملابس أنيقة وقد علت وجهها ابتسامة بدت كما لو ألصقت عليه إلى

الأبد: "إنه أمر غريب أيها الرفيق، اسمح لي أن أسألك: ما تخصصك؟

-تاريخ الفن.

-وما تخصص الرفيق زاتورتسكي؟

-لست أدري، ربما هو يحاول الاشتغال في المجال نفسه.

فهتفت بحماسة وهي تتوجّه إلى باقي أعضاء اللجنة:

-أرأيتم، بالنسبة للرفيق كل من يشتغل في تخصصه لا يعتبره رفيقًا بل منافسًا.

عاد الرجل ذو الذقن المضامرة يقول:

-لنتابع.

قالت لنا الرفيقة زاتورتسكي إن زوجها جاء إلى بيتك باحثًا عنك، فوجد امرأة. ويبدو أن تلك المرأة افترت عليه لديك، إذ ادّعت أنه حاول التحرش بها. وبطبيعة الحال تستطيع الرفيقة زاتورتسكي أن تثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن زوجها لا يمكن أن يقدم على مثل ذلك الصنيع. وهي ترغب في معرفة اسم تلك المرأة التي أساءت لزوجها حتّى تقدّم شكوى ضدّها أمام المحكمة الجزائية لدى اللجنة الوطنية، لأنّ هذا الافتراء قد يسبب ضررًا لزوجها، ويحرمه من مصدر عيشه.

مع ذلك حاولت مرّة أخرى أن أنزع هذه المشكلة من جانبها المتضخم، فقلت: "اسمع يا رفيق، لا داعي لكل هذا. فالبحث المقصود هو من الضعف بحيث لن يقبل أحد بتزكيته. وفضلاً عن هذا، إذا كان قد وقع بين تلك المرأة والسيد زاتورتسكي سوء تفاهم، فالأمر لا يتطلب الدعوة لعقد هذا الاجتماع.

فأجابني الرجل ذو الذقن الضامرة:

-من حسن الحظ أيها الرفيق، لست أنت من يقرر مواعيد عقد اجتماعاتنا. وإذا كنت تزعم الآن أن عمل الرفيق زاتورتسكي لا أهمية له، فينبغي اعتبار هذا انتقامًا. لقد أطلعتنا الرفيقة زاتورتسكي على رسالة كتبتها لزوجها بعد قراءة بحثه.

-نعم، ولكنّني في تلك الرسالة لم أقل كلمة واحدة عن قيمة ذلك البحث.

-هذا صحيح، ولكنك كتبت للرفيق زاتورتسكي أنّك مستعد لمساعدته، ويبدو من قراءة الرسالة أنك تقدّر عمله. والآن تقول إنه مجرّد حشو من الأفكار. لماذا لم تكتب له ذلك في حينه؟ لماذا لم تصارحه بذلك؟

-الرفيق يملك وجهين، قالت الشقراء.

بدأ يتّضح لي أنه لم يعد بإمكاني أن أنزع عن هذه القضية خطورتها العبثية، وأنه لم يعد أمامي غير مخرج واحد: التشويش على هؤلاء الناس، وإبعادهم عن كلارا، وتحويل أنظارهم عنها كما تفعل الحجلة التي تحوّل نظر كلاب الصيد عن عشّها، مضحية بنفسها لفداء صغارها. فقلت لهم:

-للأسف، لا أذكر اسم تلك المرأة.

فبادرتني المرأة ذات التجعيدة:

-كيف لا تذكر اسم امرأة تعيش معها تحت سقف واحد؟

وقالت الشقراء:

-يبدو أنك تتصرف بطريقة نموذجية مع النساء أيها الرفيق.

- أستطيع تذكره، لكن قد أحتاج إلى تفكير. هل تعلمون في أي يوم زار السيد زاتورتسكي مسكني؟

فرد الرجل ذو الذقن الضامرة وهو يتفحص أوراقه:

-كان يوم... انتظروا لحظة من فضلكم، كان يوم الرابع عشر، إذًا مساء يوم الأربعاء.

-يوم الأربعاء الرابع عشر... انتظروا... ووضعت رأسي بين يدي، ورحت أفكر. "طيب، لقد تذكرت. إنها هيلين". ولاحظت أنهم كانوا جميعًا يصيخون السمع لما سأقول.

"حسنًا، تدعى هيلين، وماذا بعد...

-وبعد؟ للأسف، لا أعلم عنها شيئًا. لم أشأ أن أسألها. في الواقع لست متأكدًا حتّى من أنها تدعى هيلين. كنت أدعوها هيلين لأن زوجها بدا لي أصهب مثل مينيلاس. تعرفت عليها في مرقص مساء الثلاثاء، وأفلحت في أن أتبادل معها بضع كلمات بينما كان زوجها يحتسي قدح كونياك في المشرب. وقد زارتني في بيتي في اليوم التالي، وقضت معي الظهيرة. وفي المساء اضطررت لتركها في الشقة لساعتين بسبب اجتماع في الكلية. فلما عدت، كانت متقزّزة، وأخبرتني بأن شخصًا جاء يسأل عني، وأنه راودها عن نفسها، وظنت أنّني كنت متواطئًا معه. شعرت بالإهانة، ومنذ ذلك اليوم لم تعد تطيق لقائي. فأنتم ترون إذًا كيف أنّني لم أجد الوقت حتّى لمعرفة اسمها الحقيقي.

فقالت لي الشقراء:

-أيها الرفيق، فسواء أكان كلامك صادقًا أم لم يكن، يبدو

لي أنه من غير المعقول أن يعهد لشخص مثلك بتربية الشباب. فكيف يعقل أن الحياة في بلدنا لم تدفعك إلا للشرب وإغواء النساء؟ تأكد من أننا سوف نعبّر عن رأينا بهذا الشأن لمن يهمهم الأمر.

ثم أردفت المرأة ذات التجعيدة قائلة:

-لم يحدثنا حارس العمارة عن المدعوة هيلين، بل أخبرنا بأنك تؤوي منذ شهر، ومن دون تصريح، شابة تشتغل في مصنع للألبسة الجاهزة. لا تنس أنك تستأجر الشقة سرًّا يا رفيق! أتظن أنك تستطيع إيواء من شئت؟ أتعتبر بيتك ماخورًا؟ إذا رفضت البوح باسمها، فإن البوليس يعرف كيف يحصل عليه.

11

اهتزّت الأرض تحت قدمّي، وبدأت أشعر بتأزم وضعي كما تنبأ بذلك الأستاذ. من المؤكد أنّ لا أحد استدعاني، ولكنّني كنت أسمع بعض التلميحات هنا وهناك، بل إنّ السيدة ماري، التي يتجمّع الأساتذة في مكتبها لتناول القهوة، ويتحدثون من دون احتراس، أخبرتني ببعض الأشياء مبدية تعاطفها معي. فاللجنة ستجتمع في غضون أيام، وهي تتلقى الآراء والتقديرات من كل صوب، وكنت أتخيّل أعضاء اللجنة وهم يقرأون تقرير لجنة الحي، تلك الوثيقة التي لم أكن أعلم عنها إلا شيئًا واحدًا: إنها سرية، ولا حقّ لي في أن أبدي أي ملاحظة بشأنها.

هناك لحظات في الحياة ينبغي للمرء فيها أن ينسحب ويتخلى عن المواقع الأقل أهمية للحفاظ على مواقعه الحيوية.

والحال أن أهم موقع كان يبدو لي هو حبيبتي. أجل، ففي هذه الأيام المتقلبة، بدأت فجأة أدرك أنّني أحب خياطتي، أحبها حقًّا.

ضربت لها موعدًا ذلك اليوم أمام إحدى الكنائس، وليس في البيت. البيت! أكان بيتًا؟ كيف تكون حجرة جدرانها من زجاج بيتًا؟ غرفة يراقبها الجواسيس بالمناظير؟ غرفة لكي تستقبلوا فيها امرأة تحبونها يتعيّن عليكم إخفاؤها كما تخفى السلعة المهرّبة؟

فنحن لا نشعر حين نكون في بيوتنا بأنّنا في بيوتنا فعلاً. كنا نشعر كما لو أننا دخلاء اقتحموا أرضًا غريبة، وقد يجدون أنفسهم محاصرين في أي لحظة. كنا نفقد رباطة جأشنا بمجرد أن نسمع وقع الخطى في الممر، وكنا نتوقع في كل حين أن يقرع أحد بابنا بإلحاح. كانت كلارا قد عادت إلى تسيلاكوفيتس، ولم تعد لنا رغبة في اللقاء ولو لهنيهة في منزلنا الذي صار غريبًا عنا. لهذا التمست من أحد أصدقائي، وهو رسام، أن يعيرنا مرسمه لنقضي فيه أمسية. وكان ذلك اليوم هو أول يوم يسلمني فيه المفتاح.

التقينا إذًا خلسة في حجرة واسعة، لا يؤثثها غير أريكة صغيرة ونافذة مائلة تظهر منها براغ تحت أنوار المساء. ووسط عدد كبير من اللوحات المعلقة على طول الجدران، ووسط قذارة الفنان وفوضاه اللامبالية، عاودني شعور قديم بالحرية العذبة. تقلّبت بسرور على الأريكة، وغرزت فتاح القناني في السدادة، وفتحت قنينة نبيذ. كنت أثرثر بمرح وحرية مبتهجًا بالليلة الجميلة الموعودة.

غير أن القلق الذي فارقني، هوى بكل ثقله على كلارا. وقد أسلفت أنها استقرت عندي بلا أدنى تردد، بل قامت بذلك بمنتهى التلقائية. لكنها الآن وقد التقينا في مرسم غريب لإمضاء بعض اللحظات، ها هي تشعر بالضيق. بل أكثر من شعورها بالضيق، قالت: "هذا يشعرني بالخزي.

قلت لها :

-ما الذي يشعرك بالخزي؟

-أن تستعير شقة.

-كيف تشعرين بالخزي لكوني استعرت شقة؟

-لأني أجد في هذا نوعًا من الإهانة.

-ليس أمامنا خيار آخر.

-أعلم، لكنّني في شقة مستعارة أحس كما لو أنّني مومس.

-يا إلهي! كيف تشعرين كما لو أنك مومس لأننا في شقة مستعارة"؟ المومسات يمارسن عادة نشاطهن في بيوتهن، وليس في شقق مستعارة.

كان من العبث مهاجمة - بطريقة عقلانية - الحاجز اللاعقلاني الصلب الذي فطرت عليه الروح الأنثوية. كان الحديث بيننا ينذر منذ البداية بالشؤم.

رويت لكلارا ما قاله لي الأستاذ، كما أخبرتها بما جرى لي مع لجنة الحي، وحاولت إقناعها بأننا سنتغلّب في النهاية على كلّ تلك المصاعب.

صمتت هنيهة، ثم قالت إنّني أنا من يتحمّل مسؤولية ذلك.

"هل بإمكانك على الأقل إخراجي من مصنع الملابس الجاهزة ذاك؟ ".

أجبتها أن عليها في الوقت الحاضر أن تصبر قليلاً. فقالت:

-أرأيت، لم تكن تلك غير وعود كاذبة، وفي نهاية المطاف لم تفعل شيئًا. والآن لا مخرج لي حتّى ولو وجدت من يساعدني، لأنّ ملفي سيسوء بسببك.

وعدْتُ كلارا وعد شرفٍ بأنها ستظل خارج نزاعي مع السيد زاتورتسكي . فقالت:

-مع ذلك لست أفهم، لماذا ترفض كتابة ذلك التقرير. لو كتبته لتركونا لحالنا فورًا.

-لقد فات الأوان يا كلارا الآن. إذا كتبت التقرير الآن فسيقولون إنّني أتحامل عليه انتقامًا، وسيزيدهم ذلك سخطًا.

-لماذا ستقدح في ذلك البحث؟ قدّم عنه رأيًا إيجابيًا!

-لا أستطيع فعل ذلك يا كلارا. من المستحيل أن أكتب تقريرًا عنه.

-وماذا بعد؟ أيسرّك أن تمثل دور حامي الحقيقة! أليس من الكذب زعمك للرجل أنّ رأيك لا وزن له لدى مجلة الفكر التشكيلي؟ ألم تكذب حين اتّهمته بمراودتي عن نفسي؟ ألم تكذب حين حدّثتهم عن هيلين تلك؟ إذًا ما دمت قد أغرقت في الكذب، فماذا يضيرك أن تكذب مرة أخرى وتقدّم في مقالته شهادة إيجابية؟ إنها الوسيلة الوحيدة لإصلاح كل ما وقع.

-أترين يا كلارا، أنت تتصوّرين الكذبة تعادل الأخرى،

لكنّك مخطئة. أستطيع أن أختلق أيّ شيء، وأن أضحك على ذقون الناس وأخدعهم، وأن أقوم بكل أنواع التدليس من دون أن أشعر بأني كاذب. فهذه الأنواع من الكذب، إن شئت أن تسمّي هذا كذبًا، هي أنا، أنا على حقيقتي. فبهذه الأنواع من الكذب لا أخفي شيئًا، بل أعبّر عن الحقيقة. لكن هناك أشياء لا أستطيع الكذب فيها. هناك أشياء خبرتها جيدًا، أعرف معناها وأحبّها، وهي أشياء لا أتساهل فيها. الكذب فيها حطّ من قدري، وهو أمر لا أطيقه، فلا تطالبيني به، لأنّني لن أفعله.

لقد تعذّر التفاهم بيننا.

لكنّني كنت أحبّ كلارا حقًّا، وكنت مستعدًّا للقيام بأيّ شيء لكي أتلافى عتابها. وما إن حلّ الغد حتّى بعثت للسيّدة زاتورتسكي رسالة أضرب لها موعدًا عند الساعة الثانية في مكتبي في اليوم التالي.

12

انسجامًا مع أسلوبها المنهجي، طرقت السيدة زاتورتسكي باب مكتبي عند الساعة المحدّدة تمامًا. فتحت الباب، ودعوتها للدخول.

وأخيرًا رأيتها. إنها امرأة طويلة، بل فارعة الطول، تبرز من وجهها النحيل المستطيل عينان زرقاوان شاحبتان. قلت لها:

"تخفّفي من معطفك". وبحركات خرقاء نزعت معطفًا بنيًّا غامقًا وطويلاً، فُصّل بطريقة غريبة، ضيّقًا عند الخصر بحيث ذكّرني بالمعاطف العسكرية القديمة.

لم أشأ أن أكون أوّل من يهجم، وفضّلت أن أترك الخصم يفصح عن خطّته. ولمّا جلست السيدة زاتورتسكي ، شجّعتها ببضع كلمات كي تبدأ الحديث.

قالت بصوت رزين لا أثر للعدوانية فيه: "أنت تعلم سبب تعرّضي لك. فزوجي يكنّ لك كل التقدير، كإنسان وكعالم. كل شيء كان رهنًا بتقريرك عن مقالته، لكنك رفضت كتابة التقرير. لقد قضى زوجي ثلاث سنوات كاملة في إنجاز هذا العمل. وعاش حياة أصعب من حياتك، إذ كان معلّمًا، وكان يقطع ستين كيلومترًا كل يوم لكي يلتحق بمدرسته في تلك المنطقة النائية. وأنا من أجبرته على أخذ إجازة في السنة الماضية كي يتفرّغ للبحث.

فسألتها:

-ألا يشتغل السيد زاتورتسكي ؟

-كلا...

-وكيف تؤمّنان قوتكما؟

-في الوقت الراهن أنا مضطرّة للعمل بمفردي لتأمين حاجياتنا. إنه يهوى العلوم. ليتك تعلم كم ثابر. ليتك تعلم كم أوراقًا سوّد. فهو يقول دائمًا إن على العالم الحقّ أن يكتب ثلاثمائة صفحة ولا يحتفظ منها في النهاية سوى بثلاثين. ثم جاءت تلك المرأة. صدّقني، فأنا أعرفه، تأكّد من أنّه لن يفعل شيئًا ممّا اتّهمته به تلك المرأة. فلتردّد هذا أمامنا! أنا أعرف النساء، لعلّها مغرمة بك، لكنّك لا تبادلها الحب. فربّما قصدت

إلى إثارة غيرتك. لكن صدّقني، زوجي لن يجرؤ أبدًا على فعل ذلك!

بينما أنا أصغي للسيدة زاتورتسكي ، حدث لي أمر غريب: نسيت أنّني مهدّد بالطرد من الكليّة بسبب هذه المرأة، وبسبب هذه المرأة تسلّل شبح بيني وبين كلارا، وبسبب هذه المرأة قضيت أيامًا عديدة في الغمّ والمعاناة. وبدت لي الآن كلّ علاقة بين هذه المرأة والحكاية التي نمثل فيها دورينا الحزينين نحن معًا غامضة ودنيئة وعرضية. وأدركت فجأة أنّني واهم لما اعتقدت أننا نحن من يسرج حصان مغامراتنا، وأننا نحن من يوجّه السباق. فقد لا تكون هذه المغامرات مغامراتنا، بل هي مفروضة علينا من الخارج، وأنّها لا تخصّنا إطلاقًا، وأننا لسنا مسؤولين البتّة عن مجراها الغريب. فهي تسوقنا بتوجيه من قوى غريبة موجودة في مكان مجهول.

من جانب آخر، لمّا كنت أنظر إلى عينيّ السيدة زاتورتسكي، خيّل إلي أنّ هاتين العينين لا تقويان على رؤية عقبى الأفعال، وأنهما لا تبصران البتّة، وأنهما لا تفعلان شيئًا سوى الطفو على صفحة الوجه. فقلت لها بنبرة مسالمة:

-لعلّك على حقّ، يا سيدة زاتورتسكي . قد تكون صديقتي افترت عليه. لكنّك تعرفين ربّما تأثير الغيرة. لقد صدّقتها، ففقدت السيطرة على أعصابي. إنّها أمور تحدث لكلّ الناس.

ردّت السيدة زاتورتسكي وكأنها تخلّصت من حمل ثقيل:

-أجل، بالتأكيد. فما دمت تعترف بذلك، فهذا شيء طيّب. كنا نخشى أن تصدّقها. كانت ستدمّر حياة زوجي. ولا حاجة بي

للحديث عن الظلّ الذي ألقاه عليه ذلك من الناحية الأخلاقية. فهذا كان من الممكن تحمّله. لكن زوجي ينتظر بفارغ الصبر تقريرك عن بحثه. فقد أكّدت له هيئة تحرير تلك المجلة أنّ ذلك متوقّف عليك. وزوجي واثق من أنّ مقالته إن نشرت، سيُقبل في البحث العلمي. فهل ستكتب ذلك التقرير الآن بعد أن توضّحت الأمور؟ وهل بإمكانك أن تعجّل بذلك؟

أخيرًا جاء الوقت الذي أنتقم فيه وأشفي غليلي، لكنّني في تلك اللحظة، لم أكن أشعر بأيّ غيظ، وما قلته للسيّدة زاتورتسكي قلته لأنّه لم يعد بوسعي التهرّب: "السيدة زاتورتسكي، في ما يتعلّق بذلك التعقيب، تعترضني صعوبة. سأشرح لك صراحة كيف جرت الأمور. فأنا لا أطيق أن أواجه الناس بأشياء بغيضة، وهذه نقطة ضعفي. لقد فعلت كل ما بوسعي لكي لا ألتقي السيد زاتورتسكي ، وكنت أظن أنه سيفهم في الأخير أنّني أتجنّبه. والحقيقة هي أن بحثه ضعيف، ليست له أي قيمة علمية. هل تصدّقينني؟

فقالت السيدة زاتورتسكي :

-إنه أمر يصعب عليّ تصديقه. كلا، لا أصدّقك.

-هذا العمل يفتقر أولاً للأصالة. هل تفهمين؟ فالعالم الحقّ يأتي دائمًا بشيء جديد. لا حقّ له في أن ينسخ أشياء معروفة سلفًا، أيّ ما كتبه آخرون.

-زوجي لم ينسخ هذه المقالة.

-لعلّك قرأتها يا سيدة زاتورتسكي ...".

وأردت أن أتابع كلامي، لكن السيدة زاتورتسكي قاطعتني.

-كلا، لم أقرأها.

فاجأني جوابها، فقلت:

-في هذه الحالة، اقرئيها.

-بصري ضعيف. لم أقرأ سطرًا واحدًا منذ خمس سنوات، لكنّني لست في حاجة لقراءتها لكي أعرف ما إذا كان زوجي نزيهًا. إنها أشياء نحسّها، ولسنا في حاجة للقراءة لإدراكها. فأنا أعرف زوجي مثلما تعرف الأم طفلها، أعرف عنه كل شيء، وأعلم أن كلّ ما يعمله نزيه.

اضطررت إلى تحمّل ما هو أدهى من ذلك، إذ قرأت للسيدة زاتورتسكي بعض المقاطع من مقالة زوجها، ثم قرأت مقاطع تناسبها من كتب مؤلفين اقتبس السيد زاتورتسكي أفكارهم. لم يكن الأمر يتعلق بطبيعة الحال بانتحال متعمد، بل يتعلق بخضوع أعمى لسلطة يكنّ لها السيد زاتورتسكي احترامًا صادقًا ولا محدودًا. وقد كان جليًا مع ذلك أنه لا وجود لمجلّة علمية رصينة واحدة تقبل بنشر ذلك النص.

لست أدري ما طبيعة الاهتمام الذي أولته السيدة زاتورتسكي لشروحاتي، وإلى أيّ مدى كانت تتابعني وتفهم ما أقول. كانت جالسة على مقعدها باستسلام، مستكينة ومطيعة مثل جندي يعلم أن عليه ألا يبرح موقعه. تحدثت ما يناهز نصف ساعة، ثم قامت من مقعدها، وحدّقت فيّ بعينين شفافتين، ثم اعتذرت بصوت بريء. لكنّني كنت أعلم أنّها لم تفقد الثقة بزوجها. كانت تلقي

باللائمة على شخص ما، ربما على نفسها لأنها لم تقم بدحض حججي التي بدت لها غامضة وغير مفهومة. ارتدت معطفها العسكري، وأدركتُ أنّ هذه المرأة جندي، جندي بلحمه ودمه، جندي حزين ومخلص، جندي أتعبته الحروب الطويلة، جندي غير قادر على فهم معنى الأوامر، لكنّه مستعد لتنفيذها بلا احتجاج. جندي مهزوم، لكن بلا خزي.

13

قلت لكلارا في المطعم الدلماسي بعد أن حكيت لها ما دار بيني وبين السيدة زاتورتسكي:

-الآن، لا تخشي شيئًا.

فأجابتني بثقة فاجأتني:

-لست أرى ما الداعي إلى الخوف.

-كيف؟ لولاك لما فكرت قطّ بلقاء السيدة زاتورتسكي !

-فعلت خيرًا بلقائها، لأنّ ما فعلته لهؤلاء الناس سيئ جدًا. قال الدكتور كالوسيك إنه يتعذّر على عاقل أن يفهم ذلك.

-متى التقيت بكالوسيك؟

-التقيت به.

-ورويتي له كل شيء؟

-وماذا يضيرك؟ أهو سرّ؟ الآن عرفتك على حقيقتك.

-صحيح؟

-أترغب في أن تعرف؟

-أرجوك.

-إنك وقح تافه.

-أهذا ما قاله كالوسيك؟

-لماذا كالوسيك؟ أتظن أنّني عاجزة عن اكتشاف ذلك بنفسي؟ أتعتقد أننّي عاجزة عن إدراك ألاعيبك؟ إنك تعشق خداع الناس. فقد وعدت السيد زاتورتسكي بكتابة تقرير...

-لم أعده البتّة...

-ووعدتني بأن تجد لي منصبًا. لقد سخّرتني ضدّ السيد زاتورتسكي ، وسخّرت السيد زاتورتسكي والسيدة زاتورتسكي ضدّي. ولعلمك، فأنا سأحصل مع ذلك على المنصب.

فقلت وأنا أتكلّف السخرية:

-بمساعدة كالوسيك؟

-الشيء الأكيد هو أنّني لن أعوّل عليك في الحصول على المنصب! فأنت قد فُضحت، ولا تدرك مقدار ذلك.

-وأنت، أتعرفينه؟

-أجل، فعقدك لن يتجدّد، وينبغي أن تكون سعيدًا إذا قبلوك عاملاً في أحد المعارض الهامشية. ولكن يجب أن تفهم أنك تتحمّل مسؤولية كل ما جرى. وإذا سمحت لي بأن أسدي لك نصيحة، سيكون من صالحك في المستقبل أن تكون صادقًا وتتجنّب الكذب؛ لأنّ المرأة لا يمكن أن تكنّ التقدير لرجل كذوب.

ثم قامت وصافحتني (ربما للمرة الأخيرة) وانصرفت.

احتجت لبعض الوقت حتّى أدرك أنّ قصتي (رغم الصمت القاتل الذي خيّم من حولي) لم تكن من النوع المأساوي، بل بالأحرى من النوع المضحك، وهو ما منحني بعض العزاء.

التفاحة الذهب
للشهوة الخالدة

مارتان

مارتان قادر على فعل أشياء أعجز أنا عنها. فهو يستطيع مفاتحة أيّ امرأة في أيّ مكان. وينبغي أن أعترف بأنّني مذ عرفته (وقد مضى على ذلك زمن غير يسير) لطالما استفدت من موهبته. فأنا أعشق النساء مثله، لكنّني لا أملك جرأته المتهوّرة. على أنّ مارتان في المقابل سقط في مطبّة اختزال مطاردة النساء في تمرين يتوخى إثبات براعته، واستحال ذلك هدفًا في ذاته حتّى إنه درج على تشبيه نفسه، بنوع من المرارة، بمهاجم سخيّ يمرّر كرات مضمونة لزميله في الفريق، بحيث يمكّنه من تسجيل أهداف سهلة، وحصد مجد بأدنى مجهود.

لمّا غادرت عملي يوم الاثنين، انتظرته بمقهى في ساحة سان فينسيسلاس، واستغرقت في قراءة كتاب ألماني ضخم يتحدث عن الثقافة الأترورية(*) القديمة. وقد اضطررت لانتظار

(*) الحضارة الأترورية هي الاسم الحديث لحضارة عاشت في إيطاليا القديمة بمنطقة توسكانا الحالية تقريباً، وأطلق عليهم الرومان القدماء=

شهور طويلة للحصول على هذا المؤلف من مكتبة الجامعة التي استعارته لمصلحتي من ألمانيا. وبما أنّني حصلت عليه ذلك اليوم، كنت أحمله معي بحرص وعناية. وكنت سعيدًا في قرارة نفسي لتأخّر مارتان عن الموعد، لأنه أتاح لي بذلك فرصة تصفح كتاب طالما تمنّيت الحصول عليه.

لا أستطيع التفكير في تلك الثقافات القديمة من دون أن أشعر بنوع من الحنين. كان يساورني الحنين وكذلك التوق، بلا شك، عند التفكير في البطء العذب لتاريخ ذلك العهد. لقد دامت الثقافة المصرية القديمة بضعة آلاف من السنين، في حين لم يتجاوز عمر الحضارة الإغريقية القديمة ألف سنة بالتقريب. ومن هذا المنظور تحاكي حياة الإنسان التاريخ: فهي تكون مطمورة أوّل الأمر في بطء ساكن، ثم تأخذ في التسارع شيئًا فشيئًا. لقد تخطّى مارتان عتبة الأربعين منذ شهرين.

المغامرة تنطلق

هو من أوقف مجرى تأمّلاتي. فقد ظهر فجأة عند باب المقهى الزجاجي، وتقدّم نحوي وهو يقوم بحركات وإيماءات معبّرة باتجاه فتاة جالسة إلى إحدى الطاولات وعليها فنجان قهوة. جلس بقربي من دون أن يزيح بصره عنها، ثم قال لي: "ما رأيك فيها؟".

أحسست بالخجل، ذلك أنّني كنت مستغرقًا في الكتاب

= اسم إتروسكي أو توسكي. اسمهم الروماني هو أصل تسمية توسكانا (معقلهم) و إتروريا هي اسم منطقتهم.

بحيث لم ألحظ الفتاة إلا في تلك اللحظة، وكانت في الحقيقة جميلة. وفي تلك الأثناء عدّلت جلستها، ونادت النادل ذا ربطة العنق السوداء: أرادت دفع الحساب، فأمرني مارتان:

-ادفع الحساب أنت أيضًا!

كنّا نظنّ أنّنا سنضطر للجري خلفها في الشارع، لكنها توقفت لحسن حظنا في حجرة الملابس حيث كانت تركت حقيبتها. سارعت العاملة للبحث عنها لست أدري أين، ووضعتها على الكونتوار أمامها، ثم مدّت الفتاة إلى العاملة بضع قطع نقدية من فئة عشرة سنتيمات، عندئذ نزع مارتان من يدي الكتاب الضخم وقال بنبرة تلقائية وهو يضعه في حقيبة الآنسة التي بدت مدهوشة لا تجد ما تقول:

-لنضع هذا هنا.

ثم أردف قائلاً وهو يعاتبني على سوء تصرفي، لأنّ الفتاة كانت تتأهّب لحمل الحقيبة بنفسها:

-ليس من السهل حمل هذا الشيء باليد.

كانت ممرّضة في أحد المستشفيات الريفية، وقد جاءت إلى براغ في زيارة خاطفة وعليها الإسراع حتّى تلحق الحافلة. وكان يكفينا أن نرافقها حتّى موقف الترام لكي نعرف عنها ما يلزمنا، والاتفاق على السفر إلى "ب..." يوم السبت التالي للحاق بتلك الآنسة الفاتنة التي لا بدّ أن تكون لها زميلة ساحرة مثلها، وهو ما لم يغفل مارتان التلميح إليه بوضوح.

وصل القطار ببطء، فناولت الحقيبة للفتاة التي همّت بسحب

الكتاب منها، غير أن مارتان منعها من ذلك بحركة مهيبة، مصرًّا على أن تعيده لنا يوم السبت اللاحق، وأن تتصفّحه خلال تلك المدّة... وبينما كانت تضحك بضيق، تحرّك القطار، ورحنا نحييها بإيماءات مبالغ فيها.

لم يكن بوسعي أن أفعل شيئًا. فالكتاب الذي طالما انتظرته فارقني فجأة إلى مكان بعيد على نحو خطير. ولو نظرنا إلى الأمر ببرود، لوجدناه مزعجًا. لكن لا أدري أيّ حماقة كانت تحملني على جناحيها المبسوطين. وراح مارتان، من دون إضاعة الوقت، يبحث عن تبريرات لزوجته بغية التغيّب عن البيت ظهيرة وليلة يوم السبت - الأحد (لأنّ الأمر كان على هذا النحو. فمارتان كان متزوجًا، له زوجة جميلة، والأدهى أنه كان يحبها. والأسوأ من ذلك هو أنه كان يخشاها، واسوأ من كل ذلك أنه كان يخاف عليها).

استكشاف ناجح

استعرت لرحلتنا الاستكشافية سيارة جميلة من نوع فيات، وفي الساعة الثانية بعد ظهر يوم السبت، مررت ببيت مارتان، فوجدته بانتظاري، وانطلقنا في الحال. كان الفصل صيفًا والحرّ شديداً.

كنا نودّ الوصول إلى "بـ..." في أقرب وقت ممكن، لكن ما إن لمحنا في إحدى القرى فتاتين بسروال رياضي وشعر مبلّل، حتّى أوقفت السيارة. لم يكن حوض الماء بعيدًا عن المساكن، وشعرت بالحاجة إلى الاستحمام، فلم يعترض مارتان.

ارتدينا سراويل الاستحمام وارتمينا في الماء. وبسرعة بلغت الضفة المقابلة، أما مارتان فاكتفى بتبليل نفسه، ثم خرج من الماء وتنفّض. وما كدت أبلغ الضفة إثر عبوري البركة في الاتجاه المعاكس، حتّى وجدته مستغرقًا في تفكير عميق. كانت ثمّة مجموعة من الأطفال يمرحون بصخب على الضفة، وعلى مبعدة منهم كان بعض شباب القرية يلعبون الكرة. أما مارتان فكان يحدّق في جسد فتاة جالسة على بعد خمسة عشر مترًا منه، مديرة لنا ظهرها، تتأمل ماء البركة من دون حراك. فقال لي مارتان:

-"انظر.

-إنّني أنظر.

-وماذا تقول؟

-ماذا تريدني أن أقول؟

-ألا تعرف ما ينبغي لك أن تقول؟

-ينبغي أن أنتظر حتّى تستدير.

-لست بحاجة لأن تستدير. ما يظهر منها من هذا الجانب يكفيني.

-أوافقك، ولكن ليس لدينا وقت".

ردّ مارتان:

-"الاستكشاف، إنّه الاستكشاف!". ثم توجّه نحو طفل يرتدي سروالاً رياضيًا قصيرًا. "أيّها الصغير، ألا تعرف اسم تلك الفتاة؟". وأومأ إلى الفتاة التي كانت لا تزال في الوضع نفسه، مستسلمة لخمول غريب.

-تلك؟

-نعم تلك.

فقال الصبي: "ليست من هنا".

قصد مارتان إذًا فتاة في الثانية عشرة من العمر كانت تتشمّس بجانبنا.

"أيّتها الصغيرة، ألا تعرفين من تكون تلك الفتاة، تلك الواقفة بجانب الماء؟".

ونهضت الصبيّة بلطف: "تلك الواقفة هناك؟

-نعم.

-إنّها ماري.

-ما لقبها؟

-ماري بانيك من مدينة بوزدراني...".

كانت الفتاة لا تزال واقفة على حافة البركة مديرة لنا ظهرها. انحنت لتناول قبعة السباحة، ولما انتصبت واقفة ووضعتها على شعرها، كان مارتان قد صار على مقربة مني: "إنّها تدعى ماري بانيك من بوزدراني. بإمكاننا الانصراف الآن".

كان في منتهى الهدوء والرزانة، ويبدو أنه لم يكن يفكّر في شيء سوى مواصلة الرحلة.

شيء من النظرية

هذا ما يسميه مارتان الاستكشاف. فقد استخلص من تجربته الطويلة أن الأصعب بالنسبة لمن هو مهووس بالعدد في هذا

الميدان ليس هو إغواء الفتيات، بل هو التعرف على عدد كاف منهنّ لم يتم الإيقاع بهنّ بعد.

وفق ذلك فهو يزعم أنه يجب علينا باستمرار، حيثما كنّا وكيفما كانت الظروف، القيام باستكشاف ممنهج بحثًا عن النساء، أو بعبارة أخرى، تسجيل أسماء من أعجبننا منهنّ في مذكرة أو في ذاكرتنا، حتّى يتسنى لنا ذات يوم التصدي لهن.

والتصدي نشاط من درجة أرقى، ومعناه الاتّصال بهذه أو بتلك، نتعرّف عليها، ونمهّد لاقتحامها.

إنّ من يروقهم الالتفات للماضي، بدافع التبجح، يلحّون على عدد النساء اللواتي استمالوهن، لكن أولئك الذين يتطلّعون إلى الأمام، إلى المستقبل، عليهم أن يهتموا أولاً بتوفير عدد كاف من النساء اللواتي تمّ تحديدهنّ ومفاتحتهن.

ليس هناك بعد مرتبة التصدي غير نشاط وحيد أخير، وأودّ أن أؤكد، إرضاء لمارتان، أنّ من لا يطمحون إلى هذه المرحلة النهائية هم رجال بؤساء ومنحطون، هم أشبه بلاعبي كرة قدم قرويين نراهم يندفعون برؤوس مطأطأة نحو مرمى الخصم، ناسين أن الرغبة المحمومة في قذف الكرة ليست كافية لتسجيل هدف (وعدة أهداف)، بل ينبغي بالأحرى اللعب في الميدان بطريقة متقنة ومنظمة.

حين ركبنا السيارة من جديد سألت مارتان:

-هل تظنّ أن الفرصة ستواتيك يومًا لتبحث عنها في بوزدراني؟

فردّ قائلاً:

-لا نستطيع التكهّن بذلك أبدًا.

وعلّقت بدوري قائلاً:

-مهما يكن، فالإشارات الأولى هذا اليوم تبشّر بخير.

اللعبة والضرورة

بلغنا مستشفى "ب..." بمزاج رائق. كانت الساعة تشير إلى الثالثة والنصف تقريبًا. هاتفنا ممرّضتنا من مقصورة البواب، وما هي إلا لحظات حتّى نزلت بوزرة بيضاء وقبّعة تمريض، فلاحظت أنها تورّدت، وهو ما اعتبرته فاتحة خير.

بادرها مارتان بالحديث، فأخبرتنا بأنّها ستنهي الخدمة عند الساعة السابعة، ورجتنا أن ننتظرها آنئذ أمام المستشفى، وسألها مارتان:

-هل فاتحت زميلتك بالأمر؟

فردّت الفتاة موافقة:

-أجل، سنكون معًا.

قال مارتان: حسنًا، لا يمكن أن نفاجئ صديقي بوضعه أمام الأمر الواقع.

قالت الفتاة: طيّب. يمكن أن نذهب للقائها. إنها في قسم الجراحة.

عبرنا ببطء ساحة المشفى، وسألت بخجل: "أما زلت تحتفظين بكتابي؟".

أومأت الممرضة برأسها مجيبة بالإيجاب: إنّها لا تزال

تحتفظ به، وهنا في المشفى. وشعرت بأنّي تخلّصت من عبء ثقيل، وألححت عليها أن تحضر لي الكتاب أوّلاً.

بطبيعة الحال قدّر مارتان أنّه من غير اللائق تفضيل الكتاب على المرأة التي ستقدّم لي، ولكن ذلك كان رغمًا عنّي. وينبغي أن أعترف بأنّني تألمت كثيرًا خلال تلك الأيام التي فارقني فيها ذلك الكتاب. وقد تطلّب مني الأمر إرادة قوية لكي أخفي تذمّري، لأنّني كنت حريصًا على ألا أفسد اللعبة، وهي فضيلة تعوّدت على احترامها منذ صغري، وتعلّمت كيف أُخضع لها كل مصالحي ورغباتي الشخصية.

وبينما كنت أستعيد كتابي بتأثّر، استمرّ مارتان في الحديث مع الممرضة، بل ذهب بعيدًا بحيث وعدته باستعارة شاليه من أحد أصدقائها بقرب بركة "هوتر" لتمضية السهرة. كنّا في غاية الرضا، وتوجّهنا نحو البناية الصغيرة التي تحوي قسم الجراحة.

وفي تلك الأثناء كانت ممرّضة تعبر الساحة في الاتجاه المعاكس برفقة طبيب. كان ذلك الطبيب طويلاً وبالغ النحول، يدعو منظره للسخرية، بأذنين نافرتين، وهو ما سحرني، فلكزتني ممرّضتنا ورحت أضحك هازئًا. ولما ابتعدا عنّا، التفت مارتان نحوي وقال: "أنت محظوظ يا صديقي، إنك لا تستحقّ فتاة بهذا القدر من الجمال!".

لم أجرؤ على الردّ بأنّني لم أر غير مرافقها المهزول، وعبّرت عن رأيي بتملّق، وهو ما لم يكن بأيّ حال من الأحوال نفاقًا من جانبي. فأنا أثق بذوق مارتان أكثر من ذوقي، لأنّني أعلم أن ذوقه مسنود باهتمام أكبر من اهتمامي. فأنا أحب النظام

والموضوعية في كل شيء، بما في ذلك شؤون الحبّ، كما أنّني أقدّر رأي الخبير أكثر من الهاوي.

قد يعتبر بعضهم أن من باب النفاق أن ينعت رجل مطلّق مثلي نفسه بالهاوي وهو يقصّ إحدى مغامراته (التي ليست استثنائية). لكنّني مع ذلك مجرّد هاو. ويمكن القول إنّني أمثّل ما يعيشه مارتان. ويتهيّأ لي أحيانًا أن حياتي التي تتعدّد فيها النساء ليست سوى محاكاة للرجال الآخرين، ولا أخفي أنّني أجد نوعًا من المتعة في هذه المحاكاة. لكن لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير بأن في هذه المتعة شيئًا من التحرّر، شيئًا مجّانيًا وغير قابل للنقض، شبيهًا بما يوجد في زيارة معرض لوحات أو اكتشاف مناظر غريبة. وهو غير محكوم البتة بتلك الضرورة الحتمية التي ألمسها خلف حياة مارتان الجنسية. ما كنت أحترمه في مارتان هو تلك الضرورة الحتمية. كان يخيّل إليّ حين يصدر حكمًا على امرأة أنّ الطبيعة، بل الضرورة نفسها هي التي تتكلّم بلسانه.

شعاع الموقد

لما غادرنا المشفى نبّهني مارتان إلى أن أمورنا تلاقي نجاحًا باهرًا ذلك اليوم، ثم أردف قائلاً: "ينبغي أن ننجز أمورنا بسرعة هذا المساء. فأنا مضطر للعودة إلى البيت في الساعة التاسعة". فأجبته مذهولاً:

-الساعة التاسعة؟ معنى هذا أن علينا أن ننطلق عند الساعة الثامنة! لم يكن هناك داع للمجيء في هذه الحالة! كنت أعتقد بأن الليلة بكاملها لا تزال أمامنا!

-ولماذا تريدنا أن نضيّع وقتنا؟

-قدومنا إلى هنا من أجل ساعة واحدة لا معنى له. ماذا عساك تفعل من السابعة إلى الثامنة؟

-كل شيء. لقد سمعت كيف أنّني عثرت على شاليه، وفي مثل هذه الشروط، ستمضي الأمور على أحسن ما يرام. فكل شيء رهين بك، ينبغي أن تبدو مصممًا بما فيه الكفاية.

-وهل تستطيع إخباري لماذا أنت مضطر للعودة إلى البيت عند الساعة التاسعة؟

-لقد وعدت يارميلا بذلك. تعوّدنا على لعب الورق كل سبت قبل النوم.

فقلت متذمّرًا:

-يا إلهي!

-وقعت ليارميلا مشاكل في العمل بالأمس، أتريدني أن أحرمها من فرحة السبت هذه؟ أنت تعلم أنّها أفضل امرأة عرفتها في حياتي.

ثم أضاف:

-وستكون مسرورًا بأن تجد الليل كلّه بمتناولك في براغ...

أدركت أن لا جدوى من الحديث. فلا شيء يمكن أن يهدّئ هواجس مارتان على راحة زوجته، ولا شيء يمكن أن يزعزع ثقته بالإمكانات الجنسية اللانهائية لكل ساعة وكل دقيقة.

ثم قال لي:

-تعال، أمامنا ثلاث ساعات من الآن حتّى السابعة. لن نتركها تذهب هدرًا!

شرعنا بالمشي في ممرّ الحديقة العمومية الواسع الذي يتخذه سكان المدينة متنزّهًا، وتفحّصنا كثيرًا أزواج الفتيات اللواتي كنّ يتمشّين بمحاذاتنا، أو كنّ جالسات على المقاعد، لكنّنا لم نرض عن مواصفات أي منهنّ.

لكن مارتان تعرّض مع ذلك لفتاتين، وتحدّث إليهما، بل ضرب لهما موعدًا. غير أنّني كنت أعلم بأن الأمر لم يكن جادًّا، وهو ما كان يسمّيه التمرّن على التصدي، وهو تدريب يمارسه بين الفينة والأخرى حتّى لا يفقد مهارته.

غادرنا الحديقة العمومية منزعجين، وتوجّهنا إلى الشوارع الغارقة في ضجر المدينة الريفية الصغيرة وفراغها.

قلت لمارتان: "تعال نشرب شيئًا، إنّني أشعر بالظمأ".

ودخلنا إلى مبنى كتب عليه "مقهى"، لكننا اكتشفنا أنه لم يكن غير مقهى خدمة ذاتية. وهي عبارة عن قاعة مبلّطة، باردة ومن دون نُدُل، فتوجّهنا نحو الكونتوار لنشتري مشروبًا من امرأة كالحة، ثم جلسنا إلى طاولة ملطّخة بالمرق، كان من شأنها أن تحثّنا على المسارعة بمغادرة المكان. فقال مارتان: "لا تُلقي بالاً لذلك، فللقبح وظيفة إيجابية في عالمنا. لا أحد يريد التريّث، فما إن يجد المرء نفسه في مكان حتّى يسارع إلى مغادرته، مما يمنح الحياة إيقاعها المطلوب. لكننا لن ننساق مع ذلك. وبوسعنا أن نتحدّث عن أمور كثيرة ونحن محتميان ببشاعة هذا المقهى الهادئ"، ثم رشف مشروبه وسألني: "أتعرّضت لطالبة الطبّ التي تدرّسها؟

فأجبته:

-بطبيعة الحال.

-وكيف وجدتها؟ صفها لي بتفصيل.

وصفت له طالبة الطب بلا صعوبة، بالرغم من أنّها غير موجودة. أجل، ربّما هذا يلقي ظلالاً قاتمة على صورتي، لكن هذا ما حدث: فقد اختلقتها.

صدّقوني، فأنا لم أفعل ذلك بسوء نية لكي ألمّع صورتي أمام مارتان أو لكي أخدعه. لقد اختلقت طالبة الطب هذه لسبب بسيط وهو أنّني لم أعد أستطيع مقاومة إلحاح مارتان.

مارتان شخص لجوج في ما يتعلّق بنشاطي، وهو مقتنع بأنّني أصادف كل يوم نساء جديدات. إنه يراني بخلاف ما أنا عليه حقيقة. فلو قلت له إنّني لم أعاشر، بل لم ألتق بامرأة جديدة على مدى أسبوع، لاعتبرني منافقًا.

وجدت نفسي مجبرًا على أن أحكي له قبل بضعة أيام، بأنّني اكتشفت طالبة طب، فبدا عليه الرضا، وشجّعني على التعرّض لها. وفي ذلك اليوم أراد التأكد من تقدّمي.

"من أي صنف هي... من صنف..."، وأغمض عينيه باحثًا في الظلمة عمّن تشبهها، فتذكر اسم صديقة نعرفها معًا: "... من صنف سيلفي؟

-أجمل منها بكثير.

فاندهش مارتان:

-أتمزح...

-من صنف يارميلا."

كانت زوجته هي معياره الأسمى للجمال. وشعر بالرضا من علاقتي، واستسلم للحلم.

تعرّض ناجح

دخلت فتاة ترتدي سروالاً مخمليًا إلى قاعة المقهى. تقدمت نحو الكونتوار، وراحت تنتظر مشروبها، ثم توقفت عند طاولة مجاورة لنا، وراحت تشرب من دون أن تجلس.

التفت مارتان نحوها، وقال: "آنسة، نحن غرباء عن هذه المدينة ونريد أن نسألك عن شيء".

ابتسمت الفتاة، وكانت فائقة الجمال.

"إننا نختنق، ولا ندري ما نفعل...

-اذهبا للاستحمام.

-هذا ما نريد، لكننا لا نعرف مكان السباحة في هذه المدينة.

-لا يوجد.

-كيف؟

-هناك مسبح، لكنه فارغ منذ شهر.

-والنّهر؟

-هم بصدد تنظيفه من الوحل.

-أين يمكننا الاستحمام إذًا؟

-لا توجد غير بركة "هوتر"، لكنها تبعد ستة كيلومترات على الأقل.

-لا مشكلة، فنحن نملك سيارة، ويكفي أن ترشدينا إليها.

وأضفت: ستكونين رُبّاننا.

قال مارتان: بل ربانتنا.

وأردفت: نجمتنا".

وافقت الفتاة على مرافقتنا أخيرًا وقد ظهر عليها الارتباك، لكن كان عليها قضاء بعض الحاجات، وإحضار مايوه السباحة، واتفقنا معها على اللقاء في المكان نفسه بعد ساعة تمامًا.

شعرنا بالرضا. ورحنا ننظر إليها تبتعد مؤرجحة ردفين جميلين، وهازّة قرطيها السوداوين.

قال مارتان: "أرأيت، الحياة قصيرة، لذا ينبغي الاستمتاع بكل دقيقة منها".

تمجيد الصداقة

عدنا إلى الحديقة العمومية لكي نتفحّص الفتيات الجالسات على المقاعد، إلا أنه عندما تكون إحداهما جميلة، وهذا يحدث أحيانًا، تكون الأخرى عكس ذلك.

فقلت لمارتان: "إنها قاعدة غريبة من قواعد الطبيعة: المرأة الدميمة تسعى للاستفادة من ألق رفيقتها الحسناء، في حين تسعى هذه للاستفادة من إشعاع أكبر على خلفية الدمامة، وينعكس هذا على صداقتنا التي تخضع لاختبار مستمرّ. وأنا فخور بكوننا لم نترك الصدفة ولا المنافسة تقرّران بالنيابة عنّا. فالاختيار بيننا كان دومًا مسألة مجاملة. كل منّا يتنازل للآخر عن الفتاة الأجمل، ونحن نشبه في هذا عجوزين محافظين لا يجرآن على دخول حجرة، لأن أحدًا منهما لا يرضى أن يتقدم على رفيقه.

فقال مارتان بتأثر:

-أجل، إنك صديق حقيقي. تعال نجلس قليلاً، قدماي تؤلمانني".

ذهبنا وجلسنا بالتذاذ وقد سطعت أشعة الشمس على وجهينا، تاركين العالم لدقائق يواصل سباقه حولنا من دون أن نأبه به.

الطفلة بالزي الأبيض:

فجأة وقف مارتان (مدفوعًا ولا شك بحاسة غريبة) وعيناه مسلطتان على ممشى الحديقة الوحيد الذي كانت تسير فيه طفلة ترتدي فستانًا أبيض. وبالرغم من أنها كانت لا تزال بعيدة بحيث يصعب تبيّن أبعاد جسدها، كانت توحي بفتنة متميزة يصعب استيعابها. نوع من الصفاء أو الرّقة.

ولمّا مرت بقربنا، لاحظنا أنها لا تزال صغيرة جدًا. لم تكن طفلة ولا شابة، وهو ما زادنا إثارة. قفز مارتان من مكانه وبادرها: "آنستي، أنا المخرج فورمان. أتعرفينني، أنا المخرج السينمائي".

ومدّ يده إلى الفتاة فصافحته وقد علاها الذهول.

التفت مارتان إليّ وهو يقول: "أقدم لك مصوّري.

-اسمي أندريسيك"، قلت وأنا أمدّ لها يدي بدوري، فانحنت وهي تحيّيني.

"نحن حائران يا آنستي. أبحث هنا عن مناظر خارجية تصلح لفيلمي القادم. وكان من المفروض أن نجد هنا مساعدي الذي

يعرف المنطقة جيدًا، لكنه تخلّف عن الموعد. ونحن نسأل عن المكان الذي سنشرع منه بزيارة المدينة وضواحيها". ثم أضاف: "ومصوّري يدرس المسألة في هذا الكتاب الألماني الضخم، لكنّه لم يعثر فيه على شيء يذكر".

ضايقني تلميحه للكتاب الذي حرمت منه لأسبوع كامل، فانتقلت للهجوم على مخرجي قائلاً: "من المؤسف ألا تكون أوليت هذا الكتاب عناية أكبر. فلو أنّك اهتممت جديًا بالإعداد، ولم تترك كل العمل التوثيقي لمصوّريك لكانت أفلامك أقلّ سطحية بلا شك، ولتضمّنت أخطاء أقلّ". ثم قدّمت اعتذاري للفتاة الصغيرة: "عذرًا يا آنستي، لم نقصد إزعاجك بأحاديثنا المهنية. بالفعل، نحن نستعد لتصوير فيلم تاريخي حول الثقافة الأترورية في بوهيميا.

-طيّب، قالت وهي تنحني احترامًا.

-إنه كتاب مشوّق، انظري!".

مددت لها الكتاب فتناولته بورع ديني ومضت تتصفّحه باهتمام نزولاً عند رغبتي على ما يبدو.

وأردفت قائلاً: "أظنّ أنّ قصر بشاسيك لا يبعد عن هذا المكان. كان مركز الأتروريين التشيك. لكن ما الطريق الذي يقود إليه؟

-إنه قريب جدًّا من هنا، قالت الفتاة وقد دبّ فيها النشاط فجأة، لأنّ معرفتها بالطريق إلى بشاسيك منحتها أرضية صلبة في هذا الحوار الذي لا يخلو من غموض.

-كيف؟ أتعرفين هذا القصر؟ سأل مارتان وهو يتظاهر بالارتياح.

-بالطبع، قالت. إنه على بعد ساعة من هنا.

-مشيًا؟ قال مارتان.

-نعم مشيًا.

فقلت:

-ولكننا نملك سيارة.

-فلتكوني دليلنا"، قال مارتان. غير أنّني فضّلت ألا نستمرّ في طقس اللعب بالكلمات المعهود، لأنّني أملك قدرة على التشخيص السيكولوجي أضمن من مارتان، وشعرت بأن هذا المزاح السهل قد يضرّ بنا، وأن الجدّ قد يكون أنفع. فقلت لها:

-لا نريد إهدار وقتك يا آنسة، ولكن لو تفضّلت بمرافقتنا لساعة أو ساعتين إلى الأماكن التي نرغب في زيارتها، سنكون ممتنّين لك.

-أجل، قالت الفتاة وهي تنحني من جديد. بودّي مرافقتكما، لكن..."، وعندها فقط لاحظنا أنّها تحمل في يدها سلّة فيها خستان... "ينبغي أن أحمل السلطة إلى والدتي. أنا أسكن قريبًا جدًّا من هنا. سأعود سريعًا.

-بالطبع ينبغي أن تحملي السلطة لأمك، قلت لها. سننتظرك ها هنا.

-أجل، سأعود بعد عشر دقائق على الأكثر".

انحنت من جديد، وانصرفت مسرعة.

قال مارتان: "اللعنة.

-من الدرجة الأولى، أليس كذلك؟

-أظنّ ذلك. أنا مستعد للتضحية بالممرضتين من أجلها".

فخ الإيمان المفرط

مرّت عشر دقائق ثم ربع ساعة، لكن الفتاة لم تعد.

طمأنني مارتان: "لا تخف. إذا كنت واثقًا من شيء، فهو مجيئها. فتمثيليّتنا أمامها كانت موفّقة وأدخلت البهجة إلى قلبها".

كنت أنا أيضًا أشاطره الرأي، بحيث بقينا هناك ننتظر، وكانت كل دقيقة تمضي تؤجّج رغبتنا في تلك المراهقة التي لا تزال طفلة. وبسبب ذلك لم ننتبه للموعد الذي ضربناه للفتاة ذات السروال المخملي. لقد بهرتنا صورة الصبية باللباس الأبيض بحيث لم نعد نفكر حتّى في القيام من مكاننا.

مرّ الوقت، فقلت لمارتان أخيرًا:

-"اسمع يا مارتان، أعتقد بأنها لن تأتي.

-كيف تفسّر هذا؟ لقد صدّقت كلامنا.

-أجل، وهذا هو مبعث شقائنا. لقد بالغت في تصديقنا.

-وماذا إذًا؟ أتريدها ألا تصدّقنا؟

-ربما كان ذلك أفضل. إن المغالاة في الإيمان هي أسوأ حليف".

انسقت وراء هذه الفكرة، ومضيت أقول: "عندما يؤمن الإنسان بشيء ما حرفيًا، يحيل الإيمان ذلك الشيء إلى عبث.

ذلك أن المؤيّد الحقيقي لسياسة من لا يتعامل بجدية مع مغالطات تلك السياسة، بل يهتمّ فقط بالأهداف العملية التي تختفي خلفها، لأن الكليشيهات السياسية والمغالطات لم توضع لكي نؤمن بها، بل لاستعمالها كمبرّرات خفية متّفق عليها. ولا يلبث السذّج الذين يصدقونها أن يكتشفوا، عاجلاً أم آجلاً، تناقضاتها، فيتمرّدون عليها وينتهي بهم الأمر إلى تقمّص دور المهرطق أو المنشق. كلا، إن الإيمان المبالغ فيه لا يجلب خيرًا أبدًا، ليس للأنظمة الدينية والسياسية فحسب، بل حتّى بالنسبة للأسلوب الذي استعملناه لإغراء الصبية.

-لم أعد أفهم شيئًا، قال مارتان.

-مع أنّ الأمر واضح تمامًا: لم نكن بالنسبة لهذه الفتاة غير سيدين وقورين، فتصرفت معنا بلباقة كما تتصرف فتاة طيبة الأخلاق حين تترك مكانها للمسنين في القطار.

-ولماذا لا تتصرّف بهذه اللباقة حتّى النهاية؟

-لأنّها صدقتنا أكثر مما يلزم. لقد أخذت الخس إلى والدتها، وقصّت عليها بحماسة كلّ ما جرى: الفيلم التاريخي، الأترووريون في بوهيميا... ووالدتها..."

قاطعني مارتان: "أجل... لقد فهمت ما حدث". ثم نهض من مكانه.

الخيانة

أشرقت الشمس ببطء على سقوف المنازل، وهبّ نسيم عليل منعش، وكنا حزينين. وبالرغم ممّا حدث، توجّهنا إلى

المطعم لنرى ما إذا كانت الفتاة ذات السروال المخملي لا تزال في انتظارنا. وبطبيعة الحال لم نعثر عليها. كانت الساعة تشير إلى السادسة والنصف، فنزلنا نحو السيارة، وشعرنا فجأة كما لو أننا رجلان منبوذان في مدينة غريبة، محرومان من مباهجها، ولم يعد أمامنا سوى الاحتماء بسيارتنا التي بدا أنها توفّر لنا الحصانة. وما إن دخلناها حتّى صاح بي مارتان:

"هيّا، لا تعبس! المهم ما يزال أمامنا". وددت أن أجيبه بأننا لا نملك سوى ساعة واحدة لهذا المهم بسبب زوجته يارميلا ولعبة الورق، لكنّني أحجمت.

واستطرد قائلاً:

"ثم إن هذا النهار طيب. فقد اكتشفنا فتاة بوزدراني، وتعرّضنا للفتاة صاحبة السروال المخملي. كل شيء ممهّد لنا في هذه المدينة، ولم يعد أمامنا سوى العودة مرة أخرى."

لم أجب بشيء. أجل، لقد كان الاستكشاف والتعرّض موفقين، وكل شيء على ما يرام، لكنّني تذكرت فجأة أن مارتان منذ سنة لم يحقّق شيئاً يذكر باستثناء الاستكشاف والتعرّض.

نظرت إليه فوجدت عينيه تشعان كالعادة ببريقهما المتلهف، وعندئذ أدركت مقدار شغفي به، وإلى أي حد كانت الواجهة التي تجري خلفها كل حياته عزيزة عليّ: واجهة الملاحقة الأبدية للنساء.

كان الوقت يمرّ، فقال: "الساعة تشير إلى السابعة".

ركنّا السيارة على بعد عشرة أمتار تقريبًا من السياج الحديد للمشفى، وذلك حتّى أتمكن من مراقبة المدخل عبر المرآة.

واصلت تفكيري في تلك الواجهة، وقلت لنفسي مع مرور السنين لم تعد النساء هن الأهم في هذه الملاحقة، بل الملاحقة بحدّ ذاتها. ففي الإمكان ملاحقة عدد لا نهائي من النساء كل يوم، بحيث تغدو الملاحقة ملاحقة مطلقة، لكن شريطة أن تكون منذ البداية بلا جدوى. أجل، لقد كانت ملاحقات مارتان من هذا النوع المطلق.

ها نحن ننتظر منذ خمس دقائق من دون أن يظهر للفتاتين أثر، وهو ما لم يثر قلقي. فقد صار مجيئهما عندي كعدمه. فحتّى لو جاءتا، فهل تكفي ساعة واحدة لمرافقتهما إلى شاليه بعيد، ثم كسب ثقتهما، فمضاجعتهما، لنتركهما بكيفية لبقة على الساعة الثامنة؟ لا، فمنذ اللحظة التي قرّر فيها مارتان أنّ كل شيء ينبغي أن ينتهي قبل الثامنة، صارت هذه المغامرة (مثلما هو شأن مغامرات كثيرة) لعبة وهميّة.

ها نحن ننتظر منذ عشر دقائق، ولم يظهر أحد عند مدخل المشفى.

قال مارتان ساخطًا بما يشبه الصراخ: "سأمنحهما خمس دقائق إضافية، ولن أنتظر بعد ذلك".

فكّرت في أنّ مارتان لم يعد شابًا. فهو مخلص في حبّ زوجته، ويعيش في الحقيقة حياة زوجية في غاية الاستقرار. إنها الحقيقة. وفوق هذا الواقع، على مستوى وهم بريء ومؤثّر، يستمرّ شباب مارتان، شباب قلق، مشاغب وسخي، مختزل في لعبة بسيطة لا تتجاوز حدود مجالها لتصل إلى الحياة وتتحوّل إلى واقع. وبما أنّ مارتان هو فارس الحاجة الأعمى، فإنه يحوّل

مغامراته إلى لعبة بريئة، ويستمرّ فيها بكل جوارحه من دون أن يلتفت لذلك.

طيّب، قلت في نفسي. إن مارتان سجين أوهامه، لكن أنا؟ لماذا أجاريه في هذه اللعبة السخيفة؟ أنا من يدرك أنّ كل هذا ليس إلا سرابًا؟ ألست أسخف من مارتان؟ لماذا أتظاهر بالرغبة في مغامرة غرامية أعلم أن كل ما يمكن أن أجنيه منها هو هدر ساعة مع فتاتين مجهولتين ولامباليتين؟

في تلك الأثناء لمحتهما في المرآة وهما تغادران المشفى. ورغم بُعد المسافة، كان في الإمكان تمييز بريق المساحيق والحمرة على وجهيهما. كانتا تلبسان بأناقة صارخة، وربما تأخّرتا بسبب انشغالهما بالعناية بمظهرهما. نظرتا حولهما، ثم توجّهتا نحو سيارتنا.

قلت لمارتان وأنا أتظاهر بعدم رؤية الفتاتين: "لا عليك، مهلة ربع الساعة انتهت، فلنغادر!". وضغطت على دوّاسة السرعة.

الحسرة

شارفنا على الخروج من مدينة "ب..." وتجاوز آخر المنازل متوغّلين في مناظر الحقول والأشجار مع الشمس المنحدرة فوق قمم الجبال.

كنّا نلوذ بالصمت. وكنت أفكر في يهوذا الاسخريوطي الذي يقول عنه أحد الكتّاب الظرفاء إنه في الواقع إنما خان يسوع لشدّة إيمانه به. لم يكن يملك الصبر لانتظار المعجزة التي كان

سيثبت بها يسوع لكلّ اليهود قدرته الإلهية، فوشى به إلى مضطهديه حتّى يجبره على التسريع بذلك. لقد خانه لأنّه كان مستعجلاً لحظة نصره.

قلت في نفسي إذا كنت قد خنت للأسف مارتان، فلأنّني لم أعد أؤمن به (وبقدرته الإلهية على مطاردة الفتيات). فأنا نتاج هجنة خبيثة بين يهوذا الأسخريوطي وتوما الملقب بالشكاك. أحسست بأن شعوري بالذنب يضاعف تعاطفي مع مارتان، وأن واجهة ملاحقته الأبدية للنساء (تلك الواجهة التي نسمع اهتزازها باستمرار فوق رأسينا) تثير شفقتي إلى درجة البكاء. ورُحت ألوم نفسي على تسرّعي.

هل سأنجح يومًا بالفعل في التخلّص من هذه الحركات التي تدلّ على الشباب؟ وماذا بوسعي أن أفعل غير الاكتفاء بمحاكاتها ومحاولة البحث في حياتي الحكيمة على مساحة صغيرة أمارس فيها هذا النشاط الطائش؟ وما أهميّة أن يكون كل هذا مجرّد لعبة لا جدوى منها؟ وما أهميّة معرفتي بذلك؟ هل سأتخلّى عن مواصلة اللعب لمجرّد أنه بلا جدوى؟

التفاحة الذهب للشهوة الخالدة

كان مارتان بجانبي على مقعده وغيظه يتلاشى بهدوء. وقال لي:

"اسمع، هل طالبتك التي تدرس الطبّ هي حقًّا من الصنف الرفيع؟

-كما سبق أن قلت لك، إنها من مستوى حبيبتك يارميلا".

طرح عليّ مارتان أسئلة أخرى. وكان عليّ أن أصف له مرّة أخرى طالبة الطب.

ثم أردف: "أتستطيع أن تتنازل لي عنها في ما بعد؟".

سعيت لأن أكون مقنعًا: "أخشى أن يكون الأمر متعذّرًا. ربّما ضايقها كونك صديقي. فهي صاحبة مبادئ...

-صاحبة مبادئ..." ردّد مارتان بأسى، وقرأت علامات الأسف على وجهه.

لم أشأ أن أعذّبه، فأردفت قائلاً: "إلا إذا تظاهرتُ بعدم معرفتك. تستطيع بلا شك أن تتظاهر بأنك شخص آخر.

-فكرة رائعة! كأن أزعم أنّني أدعى فورمان كما فعلنا اليوم.

-هي لا تعبأ بالمخرجين. إنها تفضل الرياضيين.

-لم لا، فكل شيء ممكن"، ودار الحديث بيننا من جديد. وشرعت الخطّة تتّضح شيئًا فشيئًا، وسرعان ما ستتراءى لنا في هذا الليل الذي بدأ يسقط كما لو أنها تفاحة ناضجة ومتألقة.

اسمحوا لي أن أسمّي هذه التفاحة، بشيء من التفخيم، التفاحة الذهب للشهوة الخالدة.

لعبة الأوتوستوب

1

مال مؤشر البنزين فجأة نحو الصفر، فعلّق السائق الشاب بأن ما تلتهمه هذه السيارة من بنزين غير معقول. وقالت الفتاة (البالغة من العمر نحو اثنتين وعشرين سنة): "آمل ألا ينفد البنزين وتتعطّل بنا مثلما حدث في المرّة الأخيرة". ومضت تتذكّر أماكن عديدة تعطلت فيها سيارتهما. أجاب الشاب بأنّه لا يأبه لذلك، لأنّ كل ما يقع له حين تكون بصحبته يملك نكهة المغامرة. لكن الفتاة لم تشاطره الرأي: لأنّ السيارة عندما تتعطّل في الريف بسبب البنزين، يصير الأمر مغامرة لها وحدها. فهو يختبئ، بينما تضطرّ هي إلى توظيف، وبشكل سيئ، مفاتنها الأنثوية: تشير إلى سيارة من السيارات، فتحملها إلى أقرب محطّة وقود، ثمّ توقف سيارة أخرى وتعود حاملة وعاء مليئًا بالبنزين. وعلّق الشاب بأنّ السائقين الذين يحملونها في سياراتهم لا بدّ أنهم يتصرّفون معها بطريقة بغيضة حتّى تتحدّث عن مهمّتها تلك كما لو كانت سخرة، فأجابته الفتاة (بغنج أخرق) بأنهم كانوا أحيانًا مبالغين في لطفهم، ولكن لا يمكنها بتاتًا أن تستفيد من ذلك، لأنّها تكون حاملة وعاء البنزين، ومضطرّة لتركهم من دون أن يتوفّر لها الوقت للقيام بشيء معهم. "يا لك من بشعة!"

قال لها، فردّت عليه إن كان ثمّة من إنسان بشع، فإنه هو. الرّب وحده يعلم كم فتاة تستوقفه عندما يتجوّل بالسيارة بمفرده! وبينما هو يقود، طوّقها بذراعه وطبع قبلة على جبينها. كان يعلم أنّها تحبّه وتغار عليه، والغيرة ليست من الطباع الظريفة، لكن إذا حرص المرء على عدم الغلوّ فيها (واقترنت بالتواضع)، فإن فيها، رغم كل مساوئها، شيئًا مؤثرًا. هذا ما كان يعتقده على الأقل. ولأنّه لم يكن يتجاوز الثامنة والعشرين، كان يعتبر نفسه عجوزًا، ويظنّ أنّه يعرف من أسرار النساء ما يلزم أن يعرفه أيّ رجل. وما كان يعجبه في الفتاة الجالسة بجواره هو بالضبط ما وجده نادرًا لدى النساء: البراءة.

كان المؤشّر قد استقر عند نقطة الصفر حين لمح على يمين الطريق لوحة تشير إلى وجود محطّة وقود على بعد خمسمائة متر. وما كادت تعبّر عن ارتياحها حتّى أشعل الوامض اليساري، وصعد على المنبسط الترابي أمام مضخات الوقود، لكن شاحنة صهريج ضخمة كانت متوقّفة أمام المضخات تملأها بواسطة أنبوب كبير. فقال وهو يغادر السيارة: "لقد وصلنا في وقت غير مناسب". وصرخ بمشغّل المضخة: "هل سيدوم هذا طويلاً؟". - سيستغرق دقيقة. - دقيقة، نحن نعرف هذا". وهمّ بالجلوس في السيارة، لكنه لاحظ أن الفتاة نزلت من الباب المقابل، فسألها عمدًا لإحراجها: "المعذرة! إلى أين أنت ذاهبة؟" لقد مرّت سنة على تعارفهما، لكنها كانت ما تزال تتورّد خجلاً أمامه، وكان يحبّ لحظات الخجل هذه لأنّها تميّزها أولاً عن غيرها من النساء اللواتي تعرّف عليهن قبلها، ولأنّه ثانيًا كان

يعرف قانون الزوال العام الذي يجعل حتّى خجل صديقته شيئًا ثمينًا.

2

كانت الفتاة تكره أن تُجبر على التوسل إليه لكي يوقف السيارة أمام أجمة من الأشجار (لأنّه كان يقود لساعات متواصلة). كانت تنزعج دائمًا من الدهشة المتكلّفة التي تعلوه عندما يسألها عن السبب. وكانت تعلم أنّ حياءها سخيف ومتجاوز. وقد لاحظت مرارًا في العمل أنّهم يسخرون منها ويستفزّونها عمدًا بسبب حشمتها، وكانت تتورّد دائمًا لمجرّد التفكير في أنها ستتورّد، وتتوق لأن تحسّ بأنّها مرتاحة في جسدها، بلا قلق ولا هموم، كمعظم من كانت تخالطهم من النساء. بل إنها ابتدعت لنفسها أسلوبًا مبتكرًا للإقناع الذاتي: كانت تكرّر لنفسها أنّ كل كائن إنساني يستقبل عند ولادته جسدًا جاهزًا من بين ملايين الأجساد الأخرى، كما لو أنّه يحصل على مسكن مشابه لملايين المساكن الأخرى في البناية نفسها، ومن ثمة فالجسد إذاً شيء عرضي لا شخصي، ولا يعدو أن يكون بضاعة مستعارة ومصطنعة. هذا ما كانت تردّده في كلّ التغيرات الممكنة، لكن من دون أن تنجح في ترسيخ هذا النوع من الشعور في نفسها. فهي لم تكن تعرف ثنائية الجسد والروح هذه، بل كانت شديدة الاندماج في جسدها إلى حدّ أنها لم تكن قادرة على الإحساس به من دون القلق.

كان هذا القلق يداخلها حتّى عندما تكون مع هذا الشاب

الذي تعرفت عليه منذ سنة، وسعدت بمعرفته لأنّه لا يمّيز ربّما بين جسدها وروحها، ممّا يسمح لها حين تكون بقربه بأن تعيش بالروح والجسد. ومبعث سعادتها هو غياب ذلك الازدواج، غير أن المسافة بين السعادة والشكّ ليست كبيرة، وقد كانت هي مثقلة بالشكوك. فمثلاً كانت كثيرًا ما تقول في نفسها إن حياته حافلة بحشد من النساء الأخريات اللواتي يفقنها جمالاً (ولا يشعرن بالقلق)، وهو لا يخفي عنها ذلك، وسينتهي به الأمر إلى تركها من أجل إحداهن (من المؤكد أن الشاب يصرّح بأنّه عاشر من النساء في الماضي ما يكفيه طول حياته، لكنّها كانت تعلم أنه أكثر شباباً مما يعتقد هو نفسه). كانت تريده أن يكون لها بكامله، وترغب في أن تكون بكاملها له. لكن بقدر ما تجهد نفسها لكي تمنحه كل ما بمستطاعها، يزيد شعورها بأنها تبخل عليه بما يوفّره حبّ ضحل وسطحي، وما تهبه المغازلة. وكانت تلوم نفسها على عجزها عن الجمع بين الجدية والخفة.

لكنها لم تكن قلقة ذلك اليوم، ولم تفكّر في شيء من هذا. كانت تشعر بنفسها بأنها على ما يرام. وكان ذاك هو أوّل أيام عطلتهما (خمسة عشر يومًا من العطلة ظلّت طوال السنة نقطة اتصال كلّ رغباتهما). كانت السماء زرقاء (ولطالما تساءلت على امتداد السنة عما إذا ستكون السماء زرقاء فعلاً) وكان هو برفقتها. عندما سألها: "إلى أين تذهبين؟"، تورّدت، واندفعت مهرولة دون أن تنبس بكلمة. دارت حول محطة الوقود الموجودة على جانب الطريق بالريف، وعلى بعد مئة متر تقريبًا (في الاتجاه الذي يقصدونه) تمتد غابة. انطلقت في ذلك الاتجاه، واختفت

خلف دغل مستسلمة لشعور بالابتهاج. (فحتّى البهجة التي يخلقها وجود الحبيب، تحتاج إلى الوحدة ليكتمل الشعور بها).

ثم خرجت من الغابة وعادت إلى الطريق. وكانت محطة الوقود ظاهرة من المكان الذي وقفت فيه. غادرت الشاحنة الصهريج المحطة، ولاحت السيارة الحمراء وهي تتقدم نحو عمود محطة الوقود الأحمر. أخذت تتمشى على جانب الطريق، وبالكاد تلتفت بين الفينة والأخرى لترى ما إذا كان قادمًا. لمحته في النهاية، فتوقّفت، وأخذت تلوّح له كما تلوّح امرأة على جانب الطريق لسيارة مجهولة. توقفت السيارة، بمحاذاتها. مال السائق الشاب نحو النافذة، وأنزل الزجاج مبتسمًا، وسألها: "إلى أين تذهبين يا آنسة؟". استفهمت بدورها وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة مغناج - هل أنت ذاهب إلى بستريكا؟ فقال لها وهو يفتح باب السيارة - اصعدي من فضلك". صعدت، فانطلقت السيارة.

3

كان الشاب لا يزال مبتهجًا لرؤيتها رائقة المزاج، لأنّ ذلك نادرًا ما يحدث: فقد كانت تمتهن عملاً مرهقًا (في جو غير مريح، ساعات إضافية كثيرة من دون مقابل)، إضافة إلى عنايتها بأمّ مريضة في البيت. كانت مرهقة في غالب الأحيان، وضعيفة القدرة على التحمّل. كانت تفتقر أيضًا للثقة بالنفس، وتقع بسهولة فريسة للخوف والقلق. لهذا كان يستقبل كلّ علامة ابتهاج قد تلوح عليها بعناية ودّية عطوفة. ابتسم لها وقال: "أنا محظوظ

اليوم. فأنا أقود منذ خمس سنين، ولم تستوقفني قطّ مسافرة بهذا الجمال".

كانت الشابة تستقبل بامتنان أبسط إطراء من صديقها، وحتّى تحافظ على حرارة ذلك، قالت: "- إنك تتقن الكذب.
-أأبدو لك كاذبا؟"

قالت وقد ظهر في كلامها بلا قصد شيء من قلقها القديم، لأنّها كانت تعتقد فعلاً بأن صديقها يروقه الكذب على النساء:
-يبدو عليك أنك تحب الكذب على النساء".

كان في العادة يتضايق من نوبات غيرة صديقته، لكنّه لم يجد صعوبة يومئذ في تجاهل ذلك، لأنّ هذه الجملة لم تكن موجّهة إليه، بل لسائق مجهول، واكتفى بسؤال مبتذل: "هل يزعجك هذا؟

-لو كنت صديقتك، لأزعجني هذا الأمر"، وكان ذلك بمثابة درس مهذّب في الأخلاق موجه للشاب، لكن نهاية الجملة لم تكن موجهة إلا إلى السائق المجهول: "لا يزعجني ذلك لأنّي لا أعرفك.

-المرأة تسامح دائمًا رجلاً مجهولاً أكثر ممّا تفعل مع صديقها". (وكان هذا أيضًا درسًا أخلاقيًا لطيفًا يوجّهه الشاب بدوره لصديقته) "ومن ثمّة قد نتفاهم بشكل أفضل ما دمنا غريبين أحدنا عن الآخر".

وتظاهرت بعدم إدراك التلميح التوجيهي الذي تضمره هذه الملاحظة، وقرّرت ألا تخاطب سوى السائق المجهول. "ما الجدوى من ذلك ما دمنا سنفترق بعد دقائق؟

-لماذا؟ سألها.

-أنت تعلم أنّني سأنزل بمدينة بيستريكا.

-وماذا لو رافقتك؟".

حين سمعت هذه الكلمات، رفعت بصرها إلى الشاب، فلاحظت أنّه تمامًا كما تتخيّله في أكثر لحظات غيرتها إيلامًا، وارتعبت من هذه الطريقة الداعرة التي يخاطبها بها (باعتبارها امرأة مجهولة) والتي تجعله أكثر جاذبية. فأجابته بوقاحة مستفزّة:

-ماذا عساك تفعل بي؟

فأجاب بتودّد، وفي هذه المرة أيضًا كان يتوجه للصديقة أكثر مما يتوجه للفتاة المجهولة:

-لن أحتاج إلى تفكير طويل لأعرف ما سأفعله بفتاة في مثل هذا الجمال.

كانت كلمات المجاملة هذه بالنسبة إليها كما لو أنّها ضبطته متلبّسًا، كما لو أنّه اعتراف انتزعته منه بواسطة حيلة بارعة. وشعرت بحقد مفاجئ وخاطف يسيطر عليها، وقالت: "إنّك تخلط بين رغباتك والواقع!".

راح يراقبها: كان وجهها متجهّمًا، فشعر بشفقة غريبة عليها، وودّ لو تستعيد نظرتها المعهودة والمألوفة (التي يقول عنها إنّها بسيطة وطفولية). مال نحوها وطوّق كتفيها بذراعه وهو يهمس بالاسم الذي تعوّد أن يدعوها به في لحظاتهما الحميمة، ساعيًا إلى إيقاف اللعبة.

لكنها أفلتت منه وهي تقول: "لعلّك تسبق الأحداث!

فقال وهو يبتعد: معذرة يا آنستي ثم ركّز انتباهه على الطريق أمامه من دون أن ينبس ببنت شفة.

4

تخلّصت الفتاة من هذه الغيرة بنفس سرعة سيطرتها عليها. كانت تملك من الحس السليم ما جعلها تدرك أنّ كل هذا ليس سوى لعبة. بل لقد شعرت بنفسها سخيفة لأنّها صدّت صديقها بحركة تنمّ عن الغيرة، ولم تشأ أن ينتبه لذلك. ولحسن حظّها أنّها تملك قدرة خارقة على تغيير اتجاه تصرفاتها فورًا، واقتنعت بأنّها لم تصدّه بسبب الغيظ، بل فقط للاستمرار في لعبة كان عدم اكتراثها بها يناسب أوّل يوم من العطلة.

هكذا صارت من جديد المرأة التي استوقفت السائق وصدّت محاولاته الوقحة، ولكن فقط حتّى تؤخّر الخضوع له، وتضفي عليه نكهة أكبر. والتفتت إليه وهي تقول بصوت متغنّج: "لم أقصد إيذاءك يا سيدي.

ردّ قائلاً:

-المعذرة، لن ألمسك ثانية".

حنق عليها لأنّها لم تفهمه، ثم لأنّها رفضت أن تعود إلى شخصيتها عندما رغب هو في ذلك. وبما أنّها تمسّكت بقناعها، صبّ جامّ غضبه على المرأة المجهولة التي كانت تتقمّصها، وعندها اكتشف فجأة الشخصية التي يلعب دروها: تخلّى عن الملاطفات التي كانت وسيلة ملتوية لإدخال البهجة على قلب صديقته، ومضى يمثل دور الرجل الخشن الذي يُقيم علاقاته

بالنساء إلى مظاهر الفحولة الفظة: الصلابة والوقاحة والثقة بالنفس.

كان هذا الدور متناقضًا تمامًا مع العناية اللطيفة التي يكنّها للفتاة. صحيح أنه كان يعامل النساء قبل أن يتعرّف عليها بحساسية أقلّ، لكنّه حتّى في تلك المرحلة لم يكن رجلاً قاسيًا وشيطانيًا، لأنّه لم يكن يتميّز بقوة الإرادة ولا بانعدام الضمير. لكنّه وإن كان لا يشبه هذا النوع من الرجال في الماضي، فهو يتوق إلى التشبه بهم. من المؤكد أنّها رغبة لا تخلو من سذاجة، ولكن ما عساه يفعل: فالرغبات الصبيانية تفلت من كلّ فخاخ العقل الراشد، وتظلّ حيّة حتّى مرحلة متقدّمة من الشيخوخة. وهكذا اغتنمت هذه الرغبة الطفولية، هذه الفرصة، فتقمّصت الدور الذي عرض عليها.

وكان البُعد الساخر الذي اتخذه الشاب قد لاءم الفتاة: فقد حرّرها من نفسها. ونفسها كانت في البداية هي الغيرة. فما كاد صديقها يتوقّف عن استعراض مواهبه في الإغواء ويكتفي بإظهار وجهه المتجهّم حتّى خفّ شعورها بالغيرة، وصارت قادرة على نسيان ذاتها والاستغراق في دورها.

دورها؟ أي دور؟ إنّه دور مستمدّ من الأدب الرّخيص. فهي لم تستوقف السيارة للذهاب إلى هنا أو هناك، بل لتغوي السائق. فالمرأة التي استوقفت السيارة لم تكن غير غاوية حقيرة تتقن استغلال مفاتنها. لقد تقمّصت الفتاة دور هذه الشخصية الروائية التافهة بسهولة بهرتها هي نفسها.

على هذا النحو كانا جالسين أحدهما إلى جوار الآخر: سائق وامرأة التقطها من قارعة الطريق، كل منهما يجهل الآخر.

5

ما كان الشاب يأسف كل الأسف على خلوّ حياته منه هو اللامبالاة. فقد كانت سكّة حياته مرسومة بدقّة صارمة: كان العمل يستحوذ على ما يزيد على ثماني ساعات من يومه، والبقية غارقة في ضجر الاجتماعات الإجبارية والدروس المنزلية. بل كان هذا الضجر يلقي بظلاله، من خلال نظرات كثير من زملائه، حتّى على هنيهات حياته الخاصة النادرة التي لا تُحافظ على سريّتها أبدًا، وتصير في مناسبات عديدة مادّة للنميمة وللأحاديث العامة. وحتّى أيام العطلة لم تكن تمنحه الشعور بالخلاص أو بالمغامرة: هي أيضًا يخيم عليها ظل التخطيط المحكم القاتم. كان عليه، بسبب أزمة المساكن المخصصة للعطل، أن يحجز غرفة قبل ستة أشهر على جبال التاترا. وللقيام بذلك كان يلزمه الحصول على توصيّة من اللجنة النقابية للمؤسسة التي يعمل فيها، والتي لا تكفّ روحها الحاضرة في كل مكان عن ترصّد حركاته وسكناته.

انتهى به المطاف إلى قبول كل هذا، لكن رؤية رهيبة كانت تلازمه أحيانًا. كان يرى نفسه ملاحقًا بشكل علني بينما هو سائر في طريق لا يستطيع الحياد عنها البتّة. راودته هذه الرؤية في تلك الأثناء بالذات. وعبر انقطاع غريب اختلطت لديه هذه الطريق الخيالية بالطريق الواقعية التي كان يسير عليها. قاده ترابط الأفكار هذا، القصير والغريب، إلى نوع من الجموح المفاجئ:

"إلى أين قلتِ إنك ذاهبة؟

-إلى بيستريكا.

-وماذا ستفعلين هناك؟

-لدي موعد.

-مع من؟

-مع رجل".

وفي تلك الأثناء بلغت السيارة مفترق طرق كبيراً، فخفّف الرجل السرعة حتّى يتمكن من قراءة شارة الإرشادات، ثم اتّجه يمينًا.

"وماذا سيحدث لو لم تذهبي إلى موعدك؟

-سيكون الخطأ خطأك، وسيكون عليك أن ترعاني.

-ألم تلحظي أنّني أتّجه إلى نوفيه زامكي؟

-حقًّا؟ هل فقدت صوابك!

-لا تخشي شيئًا، سأتولّى أمرك".

سرعان ما اتّخذت اللعبة طابعًا جديدًا. لم تكن السيارة تسير بعيدًا عن الهدف الخيالي - بيستريكا - فحسب، بل حتّى عن الهدف الواقعي الذي كانا قد انطلقا باتجاهه ذلك الصباح: إلى جبال التاترا وإلى الغرفة المحجوزة. وهكذا طغى الوجود التمثيلي على الوجود الواقعي. كان الشاب يبتعد في الوقت نفسه عن ذاته وعن الطريق الصارم الذي لم يسبق له قطّ أن حاد عنه.

قالت الفتاة باستغراب:

-لكنك قلت لي إنك متوجه إلى جبال التاترا.

-أنا ذاهب حيث أشاء، يا آنسة. أنا رجل حرّ، وأفعل ما يحلو لي.

6

حين وصلا إلى نوفيه زامكي كان الظلام قد بدأ يخيّم.

لم يسبق للشاب أن زار هذا المكان، واحتاج إلى بعض الوقت لكي يحدّد الموقع ويعرف الجهات. توقّف مرّات عدّة ليسأل المارّة عن موقع الفندق. كانت الطرق مليئة بالحفر، ممّا تطلّب منهما ربع ساعة لبلوغ الفندق أخيرًا، بالرغم من أنّه (بحسب زعم المارّة الذين سألاهم) لم يكن بعيدًا، إذ سلكا إليه عددًا من المنعرجات والانحرافات. لم يكن في هذا الفندق ما يغري، لكنه كان الوحيد في المدينة. وكان الشاب مرهقًا من القيادة، فقال لها: "انتظريني هنا" وغادر السيارة.

وما إن خرج حتى عاد إلى شخصيته الحقيقية، وشعر فجأة بالتذمّر من أنه ألفى نفسه في مكان غير متوقّع تمامًا، لا سيما وأنّ أحدًا لم يلزمه بالمجيء إليه، بل لم يرغب هو ذاته في ذلك. ولام نفسه على تهوّره، ثم وطّن النفس على مقاومة قلقه: فالغرفة في جبال التاترا ستنتظره إلى اليوم الثاني، وماذا يضيره لو افتتح أوّل يوم من عطلته بشيء غير متوقّع؟

عبر قاعة الطعام المليئة بالأدخنة، المكتظة والصاخبة، وسأل عن مكتب الاستقبال. أرشدوه إلى أقصى الممرّ عند أسفل السلّم حيث تجلس شقراء ذابلة تحت لوحة مكسوة بالمفاتيح، وحصل بمشقة على مفتاح الغرفة الشاغرة الأخيرة.

أما هي، فما كادت تصير بمفردها حتّى خرجت هي أيضًا من دورها، لكنّها لم تكن مغتاظة من تغيير اتّجاه السفر. كانت

شديدة الإخلاص لصديقها بحيث لم تكن ترتاب في أيّ شيء يفعله، وكانت تمنحه لحظات حياتها بكل ثقة. ثم تخيّلت أنه التقى بنساء كثيرات في أسفاره انتظرنه في هذه السيارة مثلما تنتظره هي في تلك الأثناء. لم تعد هذه الخاطرة، وهو أمر غريب، تزعجها، وراحت تبتسم. راقها أن تكون هذه المرّة هي، هذه الغريبة اللامسؤولة والوقحة، إحدى أولئك الفتيات اللواتي كانت تشعر بغيرة شديدة منهنّ، وظنّت أنها بهذا تسحب البساط من تحت أقدامهن، وأنّها اهتدت إلى السبيل لامتلاك سلاحهن، وهو أن تمنح صديقها أخيرًا ما لم تفكّر في إعطائه إياه من قبل: الخفّة واللامبالاة والفجور. شعرت بالرضا من فكرة أنّها تستطيع بمفردها أن تختزل كل النساء، وتستطيع من ثمّة (هي وحدها) أن تستأثر بكل اهتمام عشيقها وتستحوذ عليه كاملاً.

فتح الشاب الباب وأدخل الفتاة إلى قاعة المطعم، وعثر على طاولة شاغرة وحيدة وسط الصخب والأدخنة والقذارة.

7

قالت الفتاة بنبرة مستفزّة:

"الآن سنرى كيف ستهتمّ بي.

-هل تشربين المقبّل؟".

لم تكن الفتاة تهوى الكحول. كانت تشرب قليلاً من النبيذ، وتفضل البورتو .

لكنها هذه المرّة أجابت عمداً: "كأس فودكا.

-طيّب، أتمنى ألا تسكري.

-وماذا بعد؟ ".

لم يجبها ونادى النادل فطلب كأسين من الفودكا، وشريحتي لحم مشوي. وما هي إلا لحظات حتّى عاد النادل يحمل قدحين ووضعهما أمامهما.

رفع كأسه وقال: "في صحتك!

-ألا تجد شيئًا أظرف من هذا؟ ".

بدأ شيء ما في لعبة الفتاة يضايقه. الآن وقد جلسا متواجهين، أدرك أنها إن كانت تبدو له فتاة أخرى، فليس بسبب كلامها، بل لأنّها تحوّلت بكاملها، إيماءاتها وحركاتها، وصارت للأسف أشبه بذاك النوع من النساء الذي يعرفه جيدًا، والذي يوحي له بشيء من التقزّز.

غيّر إذًا نخبه (وهو لا يزال يحمل كأسه بيده الممدودة) وقال: "حسنًا، فأنا لا أشرب نخبك، بل نخب صنفك الذي يجمع بين أفضل مزايا الحيوان وأسوأ عيوب بني آدم.

-حين تتحدّث عن صنفي، هل تقصد سائر النساء.

-أبدًا، أقصد من اللواتي يشبهنك.

-لا أجد مقارنة امرأة بحيوان أمرًا مهذّبًا على كل حال.

ردّ وهو لا يزال يمسك القدح بيده بعيدًا عنه:

-حسنًا، لن أشرب إذاً نخب مثيلاتك، بل نخب روحك. هل توافقين؟ في صحّة روحك عندما تنزل من رأسك إلى بطنك، وتخبو عندما تصعد من البطن إلى الرأس.

رفعت كأسها وهي تقول:

-موافقة، في صحّة روحي التي تنزل إلى بطني.

-ثمّة تصحيح بسيط، في صحة بطنك التي تنزل روحك إليها.

وردّت:

-في صحّة بطني.

بدت بطنها كما لو كانت تستجيب للنداء (عندما يشيران إليه باسمه)، فتشعر بكل ملليمتر من بشرتها.

ثم أحضر النادل شريحتي اللحم. وطلبا كأسين أخريين من الفودكا وماء غازيًا (وشربا هذه المرة في نخب ثديي المرأة الشابة)، وتواصلت المحادثة بلهجة عابثة على نحو غريب. وتعاظم انزعاجه من اكتشاف مدى إتقان صاحبته التصرّف كامرأة داعرة. وقال في نفسه إنّ براعتها في تقمّص هذه الشخصية تعود لكونها كذلك فعلاً. لم تكن في الواقع روح غيرها هي التي انبثقت من مكان ما بداخلها، واندسّت تحت جلدها، أي روح من تقمّصتها، بل كانت هي نفسها، أو بالأحرى الجزء من ذاتها الذي تحرص عادة على سجنه خلف القضبان، والذي حرّره وازع اللعب من قفصه. لعلّها كانت تعتقد بأنّها تتنكّر وهي تلعب هذه اللعبة، لكن ألم يكن العكس هو الصحيح؟ ألم تكن هذه اللعبة هي التي كشفت حقيقتها؟ هي التي خلصتها؟ كلا، لم تكن قبالته امرأة أخرى تحتلّ جسد صديقته، بل هي صديقته نفسها ولا أحد سواها. ومضى ينظر إليها بنفور متزايد.

لم يكن الأمر مجرّد نفور. فكلّما زادت غرابتها عنه ذهنيًا، زاد اشتهاؤه لها جسديًا. فغرابة روحها تجعل جسدها الأنثوي فريدًا. أكثر من ذلك، لقد جعلت هذه الغرابة من جسدها أخيرًا جسدًا حقيقيًا، كما لو أن هذا الجسد لم يوجد بالنسبة إليه من قبل إلا من خلال ضباب الشفقة والحنان والوحدة والحب والعاطفة؛ كما لو كان تائهًا في هذا الضباب (أجل كما لو كان الجسد مفقودًا!). فهذه هي المرّة الأولى التي ظنّ فيها الشاب أنّه يرى جسد صديقته.

بعد كأس الفودكا الثالثة الممزوجة بالماء الغازي، نهضت وقالت له وقد ارتسمت على محياها بسمة داعرة: "المعذرة.

-هل تسمحين بأن أسألك إلى أين أنت ذاهبة يا آنستي؟

-لأتبوّل، بعد إذنك".

وتسلّلت بين الطاولات نحو ستار مخملي في أقصى المطعم.

8

شعرت الفتاة بالرضا لأنها تركته مذهولاً بهذه الكلمة التافهة التي لم يسبق له أن سمعها منها قطّ. فلا شيء كان أكثر تعبيرًا في نظرها عن الشخصية التي كانت تتقمّصها من التفخيم المتغنّج الذي تكتنزه هذه الكلمة. أجل، لقد كانت راضية، وتشعر بنفسها على ما يرام. كانت اللعبة تسحرها، وتبثّ فيها مشاعر جديدة كل الجدّة: من قبيل الإحساس بلامبالاة غير مسؤولة.

هي من كانت ترتعش من اللحظة القادمة شعرت بنفسها

فجأة هادئة تمامًا. فحياة المرأة الأخرى التي وجدت نفسها منغمسة فيها فجأة كانت حياة بلا حياء، متحرّرة من إكراهات حياتها السابقة، بلا ماض ولا مستقبل، بلا التزام. كانت حياة حرّة بشكل استثنائي. لمّا صارت امرأة مجهولة، أصبحت قادرة على فعل أيّ شيء، واستباحة كل شيء؛ قادرة على قول وفعل أيّ شيء، وعلى الشعور بأيّ شيء.

لاحظت وهي تمرّ بين الطاولات أنّ الأعين تراقبها من كل جانب، وكان هذا أيضًا إحساسًا جديدًا عليها، لا عهد لها به من قبل: لذة الفجور التي تستمدها من جسدها. فهي إلى حدود تلك اللحظة لم تعرف كيف تتحرّر بالكامل من المراهقة ذات الأربعة عشر ربيعًا التي تستحي من ثدييها لأنّها حين تفكر في نتوئهما عن جسدها وبروزهما، ينتابها إحساس بغيض بقلّة الحياء. ورغم اعتزازها بجمالها ورشاقة قدّها، فإن الحياء كان يصحح هذا الاعتزاز مباشرة: كانت تشعر أنّ الجمال الأنثوي يؤثّر أولاً بقدرته على الإثارة الجنسية، وهو أمر كان بغيضًا بالنسبة إليها. كانت تتمنى ألا يتوجّه جسدها إلا للرجل الذي تحبّه. وحين كان الرجال يحدّقون في صدرها بالشارع، كان يتهيّأ لها أنّ تلك النظرات تدنّس إلى حدّ ما حميميتها الأكثر خفاء، تلك الحميمية التي تعود لها هي ولعشيقها فقط. لكنّها الآن صارت امرأة مجهولة التقطها سائق من قارعة الطريق، امرأة بلا مصير. لقد تحرّرت من قيود حبّها الناعمة، وشرعت تعي جسدها بكثافة، وصار هذا الجسد يستثيرها بمقدار ما كانت تلك النظرات المتركّزة عليها غريبة عنها.

وبينما كانت تمرّ بمحاذاة الطاولة الأخيرة صاح بها باللغة الفرنسية رجل بدأت الخمرة تلعب برأسه: "بكم يا آنسة؟"، متباهيًا ولا شك بثقافته.

فهمت الفتاة مراده، فتمايلت في مشيتها وهي تعيش كل حركة من حركات ردفيها بكثافة، ثم اختفت خلف الستار.

9

كانت لعبة غريبة. ومبعث هذه الغرابة هو أن الرجل مثلاً رغم تقمّصه دور السائق المجهول، لم يتخلّص لحظة من فكرة أن المرأة المجهولة هي صديقته. وكان هذا أمرًا شاقًا، لأنّه كان يشاهد صديقته وهي تغوي رجلاً مجهولاً، وكان يستفيد من هذا الامتياز البائس المتمثل في متابعة هذا المشهد، ورؤية مظهرها حينئذ، وسماع ما تقول خلال خيانته (حين ستخونه). لقد حظي بشرف - وهو شرف متناقض - أن يكون هو ذاته طُعم خيانتها.

والأدهى هو أنه يهواها أكثر مما يحبّها. لطالما قال في نفسه إنّ الفتاة ليس لها من وجود واقعي إلا داخل حدود الوفاء والطهارة، وخارج هذه الحدود فهي ببساطة غير موجودة، وخارج هذه الحدود لن تكون هي ذاتها، مثلما لا يصير الماء ماء حين يتجاوز درجة الغليان. وقد أحس بحنقه يتعاظم وهو يراها تتخطّى هذه الحدود الرهيبة برشاقة عفوية.

عادت من المراحيض وقالت شاكية: "سألني أحدهم: بكم يا آنسة؟

-لا تندهشي من ذلك! فأنت تبدين عاهرة.

-هل تعلم أن ذلك لا يهمّني؟

-كان عليكِ أن تبقي معه!

-لكنّني أنا الآن معك.

-بإمكانك أن تلحقي به في ما بعد. لم يبق لك إلا أن تتفاهمي معه.

-لم يرقني.

-لكنّك لن تنزعجي من معاشرة رجال عديدين في الليلة نفسها.

-لم لا؟ إذا كانوا وسيمين.

-هل تفضلين معاشرتهم دفعة واحدة أم الواحد تلو الآخر؟

-الأمران معًا".

وبدأ مجون المحادثة يتزايد، وهو ما صدمها قليلاً، لكنها لم تكن تستطيع الاحتجاج. فمن ينخرط في اللعبة لا يعود حرّاً، وتصير اللعبة فخًا للاعب. فلو لم يكن الأمر يتعلّق بلعبة، ولو كانا غريبين أحدهما عن الآخر، لكانت المرأة المستوقفة قد شعرت بالإهانة، ولكانت انصرفت منذ البداية. لكنها لا تستطيع الخروج من اللعبة. فليس بإمكان الفريق إخلاء الميدان قبل نهاية المباراة، وبيادق الشطرنج غير مسموح لها بالخروج من مربعات الرقعة، وحدود ميدان اللعب لا يجوز تخطيها. فما دام الأمر يتعلق تحديدًا بلعبة، فقد كانت الفتاة واعية بأنّ عليها أن ترضى بكل شيء. فهي تعلم أنّها كلّما مضت أبعد في اللعبة، زاد انغماسها في اللعب، واضطرت إلى الانخراط فيه باستسلام أكبر.

ولم يكن اللجوء إلى الحكمة يجديها نفعًا، مثلما لا يجديها نفعًا تنبيه الروح الغافلة لتتّخذ حذرها ولا تأخذ اللعبة على محمل الجد. وبما أنّ الأمر كان يتعلّق على وجه التحديد بلعبة، لم يتملّك الخوف روحها، ولم تدافع عن نفسها، واستسلمت للعب كما يستسلم المرء لمخدّر.

نادى الشابُ النادلَ ودفع الحساب ثم قام من مكانه وقال: "هيا بنا.

-إلى أين؟ سألته متظاهرة بأنّها لم تفهم قصده.

-كفي عن السؤال وتعالي!

-ما بالك تكلّمني هكذا!

-أكلمك كعاهرة".

10

صعدا الدرج، وكانت إنارته سيئة، فوجدا مجموعة من الرجال الثملين ينتظرون أمام المراحيض. طوّقها بذراعه بحيث أمسك من الخلف أحد نهديها براحته. فما إن رآه الرجال حتّى جعلوا يطلقون دعابات فاحشة دفعتها إلى محاولة التخلص منه، لكنّه أرغمها على الصمت، وقال لها: "ابقي هادئة!"، فاستقبل الرجال ذلك بتضامن صاخب، موجّهين للفتاة بعض الرسائل الفاجرة. ولما بلغا الطابق الأول، فتح باب الغرفة وأشعل النور.

كانت غرفة صغيرة تضمّ سريرين وطاولة وكرسيًا ومغسلة. أغلق الشاب الباب بالمزلاج، واستدار نحو الفتاة. كانت واقفة

أمامه في هيئة توحي بالتحدي، وقد علت عينيها شهوانية وقحة. راح ينظر إليها وهو يحاول أن يكتشف خلف تلك التعابيرالفاسقة القسمات الودودة التي كان يهيم بحبّها. كان الأمر كالنظر إلى صورتين بمنظار واحد، صورتين شفافتين تبدو إحداهما من خلال الأخرى. وكانت هاتان الصورتان المتطابقتان تقولان له إن صديقته يمكن أن تستوعب كل شيء، وأن روحها مبهمة على نحو فظيع، وأنها قد تكون مخلصة وقد لا تكون، قد تكون خائنة أو بريئة، فاجرة أو عفيفة. وبدا له هذا الخليط منفّرًا مثل مستودع قمامة. كانت الصورتان لا تزالان تلوحان بشفافية، إحداهما فوق الأخرى، فأدرك الشابّ أن الفرق بين صديقته وبقيّة النساء هو فرق سطحي للغاية، وأنّ بواطن وجودها الشاسعة تشبه الأخريات، في عموم أفكارها ومشاعرها وفي كلّ نقائصها الممكنة، وهذا هو ما يبرّر شكوكه وغيرته الدفينة. ثم إن المحيط الذي كان يعتقد بأنّه يحدّ شخصيتها لم يكن إلا وهمًا يقع الآخر في شراكه، أي الناظر، أي هو نفسه. وتهيّأ له أنها لم تكن، كما أحبّها، غير نتاج شهوته، ونتاج فكره المجرد وثقته. أما حقيقتها الواقعية فكانت شاخصة هناك أمامه، غريبة على نحو يدعو لليأس، وغير محدّدة بشكل يدعو للإحباط. كان يمقتها.

"ماذا تنتظرين؟ انزعي ملابسك!".

أمالت رأسها بشكل متغنّج وقالت: "أهذا ضروري؟".

أيقظت تلك النبرة في أذنه ذكرى مبهمة، كما لو أنّ امرأة أخرى سبق لها أن قالت له ذلك منذ زمن بعيد، لكنه لم يعد يذكر من تكون. اجتاحته رغبة في إهانتها. ليس إهانة المستوقفة،

بل هي، أي صديقته. وانتهى الأمر باللعبة أن امتزجت بالحياة. وهكذا لم تعد لعبة إهانة المستوقفة إلا ذريعة لإهانة الصديقة، ونسي أنّ الأمر يتعلق بلعبة، وصار يكره المرأة الشاخصة هناك أمامه. حدّق فيها ثم أخرج من محفظة نقوده ورقة من فئة خمسين كورنًا ومدّها لها. "هل هذا كاف؟".

تناولت الخمسين كرونة وقالت: "لست سخيًّا.

-إنك لا تستحقّين أكثر".

التصقت به وهي تقول: "إنك لا تحسن معاملتي. ينبغي أن تكون لطيفًا معي. هيّا حاول!".

ضمته بين ذراعيها، وقرّبت شفتيها من شفتيه، لكنّه وضع أصابعه على فمها، وصدّها بلطف. "أنا لا أقبّل إلا من أحبّ.

-وأنا، ألا تحبّني؟

-لا.

-من تحبّ إذًا؟

-أيهمّك هذا؟ هيّا، تعرّي!".

11

لم يسبق لها قطّ أن تعرّت هكذا. تلاشى كلّ ما كان ينتابها عندما تتعرّى أمام الشاب (حين لا يكون بإمكانها التستر بالظلام) من خجل وخوف ودوار. كانت تقف أمامه في الضوء الساطع واثقة من نفسها، وقحة، مدهوشة من اكتشاف حركات هذا التعرّي البطيء المستفز الذي كانت تجهله إلى حدود تلك

اللحظة. وراحت تتجرد من ملابسها بعناية، قطعة بعد أخرى، وهي تراقب نظراته متلذّذة بكل خطوة من هذا التعرّي.

لكنها بعد أن وجدت نفسها عارية تمامًا أمامه، قالت في نفسها إنّ الوقت قد حان لإنهاء اللعبة، وإنّها حين تجرّدت من ملابسها، نزعت قناعها، وصارت عارية، مما يعني أنّها صارت نفسها وحسب، وأنه آن الأوان لكي يتقدّم الشاب خطوة نحوها، ويقوم بحركة بيده، حركة تمحو كل شيء، وخارج تلك الحركة لن يكون هناك مكان إلا لمداعباتهما الحميمة. لقد كانت إذًا عارية أمامه بعد أن أوقفت اللعب، وشعرت بالضيق، وارتسمت على وجهها ابتسامة لم تكن غير ابتسامتها الحقيقية، ابتسامة خجولة ومرتبكة.

لكن الشاب ظلّ متسمّرًا، ولم يقم بأيّ حركة تدل على انتهاء اللعب. لم يلتفت لابتسامتها رغم أنها كانت مألوفة. لم يكن يرى أمامه سوى جسد صديقته المجهول الجميل (الذي صار يبغضه). كان البغض يغسل شهوته من كل الأصباغ العاطفية. همّت بالاقتراب منه، لكنه قال لها: "ابقي حيث أنت حتّى أراك جيّدًا". لم يكن يرغب إلا في شيء واحد: أن يعاملها كعاهرة. لكن لم تسبق له معرفة بعاهرة في ما مضى، وكل ما كان يعرفه عن العاهرات مستمدّ من الأدب أو من أحاديث الناس. لقد استحضر إذًا هذه الصورة، وكان أوّل شيء رآه هو امرأة عارية بملابس داخلية سوداء، ترقص فوق غطاء بيانو برّاق. لم يكن في غرفة الفندق بيانو، بل مجرد طاولة صغيرة مغطاة مسنودة إلى الحائط. فأمر صديقته بأن تصعد عليها. صدرت منها إيماءة مستعطفة، لكنها بادرها: "لقد دفعت لك".

لم تجد بدًّا من الاستمرار في اللعب أمام الإصرار الذي كان يشعّ في عينيه، لكنها لم تعد تطيق ذلك، ولم تعد تعرفه. صعدت على الطاولة وقد اغرورقت عيناها بالدموع. كان مقاس الطاولة مترًا مربعًا بالكاد، وكانت متهادية. وحين وقفت عليها، خافت أن تفقد توازنها.

لكنه شعر بالرضا وهو ينظر إلى هذا الجسد العاري الواقف أمامه، والذي تجعله حيرته المتحفظة أكثر استبدادًا. كان يتوق لأن يرى هذا الجسد في جميع أوضاعه ومن كل الزوايا وراح يتخيّل رجالاً آخرين رأوه أو سيرونه. كان بذيئًا وخليعًا، يتفوّه بألفاظ لم تسمعها منه قطّ. وكانت تريد أن تقاوم، وأن تفلت من هذه اللعبة، فنادته باسمه، لكنه نهرها، وقال لها أنْ ليس من حقّها أن تخاطبه بتلك النبرة غير المهذّبة. وانتهى بها الأمر إلى الاستسلام وهي مغتاظة وعلى وشك البكاء. ثم مالت إلى الأمام وقرفصت نزولاً عند رغبته، وأدّت التحية العسكرية، ثم انحنت لكي تؤدي رقصة التويست، إلا أن غطاء الطاولة انسحب بحركة مفاجئة من تحت قدميها، وكادت تسقط، لولا أنه تلقّفها وحملها إلى السرير.

التصق بها، فسرّها انتهاء هذه اللعبة البائسة، كما سرّتها العودة مجدّدًا إلى علاقتهما الحقيقية وإلى حبّهما. وهمّت بأن تلصق شفتيها بشفتيه، لكنه صدّها وهو يردّد بأنه لا يقبّل سوى من يحبّ. راحت تبكي، لكن لم يكن مسموحًا لها بالنحيب، لأن شهوة صديقها الغاضبة كانت تستولي على جسدها شيئًا فشيئًا، وانتهى بها الأمر إلى خنق أنين روحها. وسرعان ما لم

يعد على السرير غير جسدين متّحدين تمامًا، شبقين وغريبين أحدهما عن الآخر. وما كان يقع آنئذ هو ما كانت دائمًا تخشاه أكثر من أي شيء آخر، وما كانت دائمة الحرص على تجنّبه: الجماع بلا عواطف ولا حبّ. كانت تدرك أنها تخطّت الحدود المحرّمة التي ستتحرّك خارجها انطلاقًا من تلك اللحظة بدون أيّ تحفظ وبمشاركة مطلقة. كانت بالكاد تشعر في زاوية مظلمة من روحها بنوع من الخوف من فكرة أنها خارج تلك الحدود لم يسبق لها أن أحسّت بمثل هذه اللذة، وبهذا القدر من اللذة كما أحسّت هذه المرة.

12

ثم انتهى كل شيء. تنحّى الشاب عنها، وجذب الحبل المتدلّي فوق السرير، فانطفأ النور. لم يكن يريد رؤية وجهها. كان يعلم أنّ اللعبة انتهت، لكنّه لم يكن يرغب في العودة إلى عالم علاقاتهما المألوفة. كان يخشى هذه العودة. تمدّد بجوارها في الظلمة متحاشيًا ملامسة جسدها.

وبعد برهة، تناهى إليه صوت نحيب مخنوق، وبحركة خجولة وطفولية، لمست يد الفتاة يده. لمسته وانسحبت لتلامسه من جديد، ثم سُمع صوت متوسّل ومتهدج بالنحيب، يدعوه باسمه ويقول: "إنّني أنا، إنّني أنا...".

ظلّ صامتًا وبلا حراك، وفهم تناقض كلام صديقته المحزن، حيث يتحدّد المجهول بمجهول.

وما لبث النحيب أن تحوّل إلى نشيج طويل، ومضت الفتاة

تردّد لفترة غير قصيرة تلك الجملة المؤثرة: "إنّني أنا، إنّني أنا، إنّني أنا..."

ثم شرع يستغيث بالشفقة (وكان عليه أن يدعوها من بعيد، لأنّها لم تكن في متناوله) لكي يواسي الفتاة. كان لا يزال أمامهما ثلاثة عشر يومًا.

المسامرة

الفصل الأول

قاعة الحراسة

ضمّت قاعة الحراسة (في قسم ما، وفي مشفى ما يقع في مدينة ما) خمس شخصيات، ونسجت من أفعالهم وأقوالهم حكاية ساخرة بمقدار ما هي مرحة.

هناك الدكتور هافيل والممرّضة إليزابيث (وهما يقومان معًا بالمداومة الليلية)، ثم هناك طبيبان آخران (ساقتهما ذريعة تافهة إلى هناك لكي يثرثرا ويشربا معًا بعض الزجاجات): الرئيس بهامته الصلعاء تصاحبه طبيبة جميلة في الثلاثينات من عمرها، تعمل في قسم آخر، ولا يخفى على أحد أنّه يضاجعها.

(الرئيس متزوج، وقد نطق من توّه بجملته المفضلة التي تشي بحسّه الفكاهي وبمقاصده في الآن نفسه: "إن أكبر مصيبة يمكن أن تحلّ بالرجل، يا أصدقائي، هي الزواج السعيد، بحيث لا يعود له أمل في الطلاق").

وعلاوة على هذه الشخصيات الأربع، هناك شخصية

خامسة، لكنّها في الحقيقة لا توجد هنا. فبحكم أنّها أصغرهم سنًّا، فقد بعثوها لإحضار زجاجة جديدة. ثم هناك النافذة، وهي مهمّة لأنّها مفتوحة على ظلمة الخارج، ولأنّها تترك ضوء القمر يدخل باستمرار إلى الغرفة مع أجواء الصيف الدافئة العبقة. وأخيرًا هناك المزاج الرائق الذي توحي به ثرثرة الجميع اللطيفة، ولا سيما الرئيس الذي ينصت لما يصدر عنه من هراء بأذنين عاشقتين.

بعد هنيهة (وهنا تبدأ حكايتنا)، بدأ يظهر نوع من التوتّر: فإليزابيث شربت أكثر مما ينبغي لممرضة أثناء الخدمة. وممّا زاد الطين بلّة أنّها أبدت للدكتور هافيل غنجًا مثيرًا أغاظه، وجعله ينبّهها بنبرة لا تخلو من حدّة.

تنبيه الدكتور هافيل

"لا أفهمك يا عزيزتي إليزابيث. إنّك تقضين يومك في نكء الجراح المتقيّحة، وحقن أرداف العجزة المتغضنة، وإجراء الحقن الشرجية، وإفراغ أوعية تبوّل المرضى في المراقد. لقد أعطاك القدر فرصة تحسدين عليها لكي تدركي طبيعة الإنسان الغريزية بكل تفاهتها الميتافيزيقية. لكن حيويّتك ترفض الإنصات لصوت العقل. لا شيء قادراً على زعزعة إصرارك العنيد على أن تكوني جسدًا، ولا شيء غير جسد. ثدياك يحتكان بالرجال على بعد خمسة أمتار! مجرّد النظر إلى مشيتك يصيبني بالدوار بسبب الأشكال الحلزونية التي ترسمها مؤخّرتك التي لا تعرف الكلل. اللعنة! ابعدي عنّي قليلاً! ثدياك توجدان في كل مكان كالإله! إنك متأخرة بعشر دقائق عن موعد إجراء الحُقن!".

الدكتور هافيل يقبل كل شيء كالموت

عندما غادرت إليزابيث قاعة الحراسة (والانزعاج بادٍ عليها) لكي تحقن ردفين عجوزين، سأل الرئيس: "من فضلك يا هافيل، هلا شرحت لي لماذا تصدّ هذه البائسة إليزابيث بكل هذا العناد؟".

أخذ الدكتور هافيل رشفة ثم أجاب: "لا تلمني أيّها الرئيس. لست أفعل ذلك بسبب قباحتها أو لأنّها لم تعد شابة. صدّقني! لقد عاشرت نساء يفقنها قبحًا، وأكبر منها سنًّا.

-نعم، إنك معروف بهذا. فأنت مثل الموت، لا تترك شيئًا. ولكن بما أنك تقبل كل شيء، فلماذا ترفض إليزابيث؟

ردّ هافيل:

-لأنها تعلن بلا شكّ عن شهوتها بشكل مفضوح بحيث تغدو أشبه بأمر من الأوامر. لقد قلت بأنّني مثل الموت في ما يتعلق بالنساء، لكن الموت لا يقبل أن تؤمر.

أكبر نجاحات الرئيس

أجاب الرئيس: "أظن أنّني فهمتك. لما كان سنّي أصغر ببضع سنوات، تعرّفت على فتاة تضاجع الجميع. ونظرًا لجمالها، قرّرت أن أضاجعها أنا أيضًا. تصوّر! لقد رفضتني! كانت تضاجع زملائي، السائق والطباخ وناقل الجثث، وكنت الوحيد الذي رفضت مضاجعته. هل تستطيع تخيّل هذا؟

-بكل تأكيد، قالت الطبيبة.

أردف الرئيس قائلاً بحدّة، وكان معتادًا على مخاطبة عشيقته بتهذيب أمام الناس:

-إذا كنت ترغبين في معرفة ذلك، لم يكن قد مرّ حينذاك على حصولي على الدبلوم إلا بضع سنوات، وكنت قد لاقيت نجاحًا كبيرًا. كنت مقتنعًا بأنّني أستطيع الحصول على أيّ امرأة أشاء، وحاولت أن أثبت ذلك مع نساء متمنّعات، وأنت ترين كيف أخفقت مع هذه الفتاة بالرّغم من أنها أسهل منهنّ.

قال الدكتور هافيل:

- لا بدّ أن لديك كما عهدتك نظرية تفسّر بها هذا الأمر.

فردّ الرئيس:

-نعم. إن الرغبة الجنسية لا تتّصل بالجسد فقط، بل هي تعادل الرغبة في الشرف. فالشريك الذي حصلنا عليه، والمتمسك بنا ويحبّنا، يصير مرآتنا، ويصبح مقياس أهميتنا وجدارتنا. ومن هذه الزاوية لم تكن مهمّة عاهرتي بالسهلة. ذلك أنّ المرأة عندما تضاجع الجميع، لا تعود تعتقد بأنّ شيئًا مبتذلاً كالجماع يمكن أن تكون له أهميّة ما. ومن ثمّة فهي تميل إلى البحث عن الشرف الجنسي الحقيقي لدى الطرف المقابل. ويصير الرجل الذي يشتهي عاهرتي الصغيرة وهي تعرض عنه هو الوحيد الذي يحدّد مقدار قيمتها. وبما أنها كانت تسعى إلى أن تبدو في نظره الأفضل والأجمل، فقد حرصت على أن تبدو بالغة الصرامة والتطلّب حين تعلّق الأمر باختيار ذلك الرجل، الوحيد الذي شرّفته برفضها. لقد أختارتني أنا في نهاية المطاف، وأدركتُ أنه شرف استثنائي. وإلى اليوم ما زلت أعتبره أكبر نجاح عاطفي حُزته.

قالت الدكتورة:

-لديك مقدرة خارقة على تحويل الماء إلى نبيذ.

فردّ الرئيس:

-أأغاظك أنّني لم أعتبرك أنت أكبر نجاحاتي العاطفية؟ ينبغي أن تفهميني. فرغم كونك امرأة فاضلة، فأنا لست بالنسبة إليك (ولن تستطيعي تصوُّر مدى حزني من ذلك) الأوّل ولا الأخير، في حين كنت كذلك بالنسبة لتلك العاهرة. صدّقيني، فهي لم تنسني أبدًا، وهي لا تزال إلى اليوم تذكر بنوع من الحنين صدّها لي. وأنا ما ذكرت هذه الواقعة إلا لأبرز الشبه بينها وبين موقف هافيل من إليزابيث".

تمجيد الحرية

"قال الدكتور هافيل:

-يا إلهي، لعلّك لن تذهب إلى حدّ ادعاء أنّني أبحث في إليزابيث عن مقياس لقيمتي الإنسانية.

فأجابت الدكتورة ساخرة:

-طبعًا لا! لقد شرحت لنا هذا من قبل. فموقف إليزابيث المستفزّ يشعرك كما لو أنك تتلقى أمرًا، في حين تريد أنت الحفاظ على وهم أنك تختار النساء اللواتي تضاجعهن بحرية.

ردّ هافيل مستغرقًا:

- ما دمنا نتحدث بصراحة، فأنتم تعلمون أن الأمر ليس كذلك تمامًا. في الواقع عندما قلت إنّ ما يضايقني هو موقف إليزابيث المستفزّ، قصدت فقط أن أبدو خفيف الدم. لقد عاشرت في الحقيقة نساء أكثر منها استفزازًا، وكنت راضيًا على كونهن مستفزّات، لأنّ الأمور لم تكن تطول.

فهتف الرئيس:

-اللعنة! لماذا لا تقبل إليزابيث إذًا؟

-أيها الرئيس، ليس سؤالك عبثيًا كما تهيّأ لي في البداية، لأنّني ألاحظ أن الإجابة عنه في غاية الصعوبة. ولكي أكون صريحًا، لست أعلم سبب إعراضي عن إليزابيث. لقد عاشرت نساء يفقنها دمامة، وأكبر منها سنًا واستفزازًا. وربّما يستنتج من كلامي أنّني سأنتهي بالضرورة إلى قبولها. هذا ما سيخمّنه كل علماء الإحصاء. وكل الحواسيب ستنتهي إلى هذه النتيجة. وكما ترى، لهذا السبب لن أقبل بها. فقد اخترت أن أرفض حكم الضرورة، وأن أزيح مبدأ السببية، وأعاكس توقعيّة مسار الأشياء الطبيعي الحزين بواسطة نزوة الإرادة الحرة.

فسأل الرئيس:

-ولكن لماذا اخترت إليزابيث لهذا الهدف؟

-لانعدام السبب تحديدًا. لو كان هناك سبب، لأمكن اكتشافه مسبقًا، ولأمكن توجيه سلوكي بشكل مسبق. فغياب السبب هو الذي يتيح هذا الهامش من الحرية الذي يمنح لنا، والذي ينبغي أن نحرص عليه بلا كلل حتّى يستمر هذا القليل من الفوضى الإنسانية في عالم القوانين الصارمة. فلتحيا الحرية يا زملائي الأعزاء!". ثم رفع كأسه بأسى ليشرب الأنخاب.

جسامة المسؤولية

في هذه الأثناء ظهرت زجاجة جديدة في الغرفة، ولم تلبث أن أسرت أنظار الأطباء الحاضرين. كان الشاب الرائع الواقف

عند باب الغرفة الممسك بالزجاجة هو فليشمان، طالب الطب الذي كان ينجز تدريبه في المصلحة. وضع الزجاجة على الطاولة (ببطء)، وبحث (طويلاً) عن الفتّاحة، ثم أدخل الفتاحة (بلا استعجال) في السدادة (وهو مستغرق)، وانتهى إلى نزعها (على نحو حالم). الغرض من الهلالين هو تسليط الضوء على بطء فليشمان، وهو بطء لا يدل على بلاهته بقدر ما يشهد على الإعجاب اللامبالي الذي ينظر به طالب الطب الشاب إلى أعماق وجوده، مغفلاً تفاصيل العالم الخارجي التافهة.

قال الدكتور هافيل: "كل هذا لا يعني شيئًا. لست أنا من يُعرض عن إليزابيث، بل هي من لا ترغب بي. هيهات! إنها تهيم بفليشمان.

-بي أنا؟" قال فليشمان وهو يرفع رأسه ويمضي بخطوات واسعة ليعيد الفتاحة إلى مكانها، ثم عاد إلى قرب الطاولة الواطئة وراح يسكب النبيذ في الكؤوس.

"إنك طيّب، قال الرئيس مسايرًا هافيل في رأيه. الجميع يعلم ذلك باستثنائك. فمنذ أن وطئت قدماك هذه المصلحة، صارت لا تطاق. وها قد مضى على ذلك شهران".

حدّق فليشمان (طويلاً) في الرئيس، ثم قال: "لا علم لي حقًا بهذا الأمر"، ثمّ أضاف: "على كل حال، ذلك لا يهمّني.

فقال هافيل متظاهرًا بصرامة متشدّدة:

-وماذا ستصنع بخطاباتك النبيلة؟ وكل خلاصاتك حول احترام المرأة؟ أتعذّب إليزابيث ولا تكترث للأمر؟

-أنا أعطف على النساء، ولا يمكن أن أسيء إليهنّ عمدًا، قال فليشمان. ولكن ما يصدر عنّي بلا قصد لا يعنيني، لأنّي لا أستطيع فعل شيء حياله، ومن ثمّة فأنا غير مسؤول عنه".

عادت إليزابيث بعد ذلك. ولعلّها أدركت أنّ كلّ ما بوسعها أن تفعله هو أن تنسى الإهانة، وأن تتصرّف كما لو أنّ شيئًا لم يحدث، إلى حدّ أنها كانت تتصرّف بمودّة عجيبة. فقدّم لها الرئيس مقعدًا، وملأ كأسها: "اشربي يا إليزابيث، وانسي كل الإساءات!

-بالطبع"، أجابت وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة، ثم أفرغت كأسها.

وتوجّه الرئيس من جديد إلى فليشمان: "لو اقتصرت مسؤولية الإنسان على الأمور التي يعيها فقط، لبرّئ الحمقى ممّا يقترفون من أخطاء؛ عدا أنّ الإنسان، يا عزيزي فليشمان، ملزم بأن يعرف. فهو مسؤول عن جهله، لأنّ الجهل خطيئة. ولهذا لا شيء يمكن أن يبرئك، وأعلن أنك تتصرّف بغظاظة مع النساء، حتّى ولو كنت تنكر ذلك".

مديح الحب العذري

مضى هافيل يهاجم فليشمان مذكّرًا إيّاه بمراودته لفتاة (يعرفونها جميعهم) عن نفسها:

"هل حصلت أخيرًا على الشقّة التي وعدت بها الآنسة كلارا؟".

-"ليس بعد، ولكنّني منشغل بذلك.

وقالت الدكتورة مدافعة عن فليشمان:

-ألفت انتباهكم إلى أنّ فليشمان يتصرّف بلباقة مع النساء. فهو لا يكذب عليهنّ.

فهتف الطالب:

-أنا لا أطيق معاملة النساء بقسوة لأنّني أتعاطف معهنّ.

وأردفت الدكتورة قائلة:

-مهما يكن، فكلارا ستجعلك تدفع الثمن غاليًا".

ثم بدرت منها ضحكة غير لائقة، بحيث وجد الرئيس نفسه مضطرًا لاستئناف الكلام:

-"سواء أكان غاليًا أم لا، فهو أرخص بكثير مما تعتقدين يا إليزابيث. فكما يعلم الجميع، كان "أبيلار" خصيًا، وهو ما لم يمنعه هو و"هيلويز" من أن يظلا عشيقين وفيين، وظل حبّهما خالداً. كما أن جورج ساند[1] عاشت سبع سنوات مع فريديريك شوبان، وظلت طاهرة كالعذراء، وما زال الناس يتحدّثون عن حبّهما! ومع مثل هذه الصحبة المحترمة لست أرغب في إثارة حالة عاهرتي الصغيرة التي منحتني أكبر شرف قد تمنحه امرأة لرجل، وذلك بصدّها إيّاي. تذكّري يا عزيزتي إليزابيث أنّ بين الحب وما تفكرين به باستمرار علاقات أوهى بكثير مما تظنين. فلا داعي للارتياب في حبّ كلارا لفليشمان. هي طيّبة معه وإن

---

(1) -جورج ساند هو لقب "أمانتين أورور لوسيل دوبان" (Amantine Aurore Lucile Dupin) 1804-1876، كاتبة روائية وناقدة فرنسية. عاشت حياة مليئة بالفضائح بسبب سيرتها العاطفية المضطربة، ولباسها الذكوري، وكذا بسبب اللقب الذكوري الذي اتخذته واشتهرت به. تعرفت على "فريديريك شوبان" (1810-1849) سنة 1836، وأمضت معه عشر سنوات.

كانت تتمنّع عليه مع ذلك. قد يبدو لك هذا الأمر لامنطقيًا، إلا أن الحبّ هو تحديدًا هذا الشيء اللامنطقي.

قالت إليزابيث وهي تضحك ضحكة غير لائقة:

-لكن ما الشيء اللامنطقي في هذا؟ كلارا في حاجة إلى شقّة، ولذلك هي لطيفة مع فليشمان. لكنّها لا ترغب في مضاجعته لأنّ في حياتها ولا شكّ رجلاً آخر يضاجعها، غير أن هذا الرجل الآخر ليس بمقدوره أن يقتني لها شقّة".

في هذه الأثناء، رفع فليشمان رأسه واستطرد: "إنّكم تثيرون أعصابي. أنتم أشبه بجماعة مراهقين. قد تكون كلارا متردّدة بدافع الحياء. ألم تفكروا في هذا؟ أو لعلّها مصابة بمرض تريد إخفاءه عليّ، أو بها ندبة تشوه جسمها. هناك نساء يعانين من حياء مروع. إلا أنك لا تفهمين هذه الأشياء يا إليزابيث.

فقال الرئيس وقد هبّ لنصرة فليشمان:

-أو أنّ صعقة حبّ تصيب كلارا لمّا تكون بحضرة فليشمان بحيث تصير عاجزة عن مضاجعته. ألست يا إليزابيث قادرة على تخيّل أن هيامك بشخص قد يصل إلى درجة تجعلك لا تستطيعين مجامعته؟".

فأجابت إليزابيث بالنفي.

الإشارة

هنا يمكن أن نوقف المحادثة (التي يغذيها الهراء المتجدّد باستمرار) للحظة لكي نفسّر كيف أن فليشمان ظلّ يراقب عيني

الدكتورة منذ بداية السهرة. فقد راقته كثيرًا منذ أن رآها لأوّل مرّة (شهر قبل ذلك). كان جلال سنواتها الثلاثين يبهره، ولم يكن حتى تلك اللحظة قد رآها إلا وهي مارة، وكانت هذه هي الفرصة الأولى التي تتاح له ليكون معها في الغرفة نفسها لبعض الوقت. وخيّل له أنها كانت تستجيب بين الفينة والأخرى لنظراته، فهاجه ذلك.

فبعد تبادل النظرات، قامت الدكتورة فجأة إلى النافذة وقالت: "ما أجمل الجو في الخارج. البدر ساطع...". ومن جديد حطّ نظرها بطريقة آليه على فليشمان.

وأدرك على الفور، وهو البصير بهذا النوع من المواقف، أن في الأمر إشارة، إشارة موجهة إليه. وفي هذه اللحظة بالذات شعر بموجة تتعاظم داخل صدره. وقد كان صدره فعلاً أداة حساسة أشبه ما يكون بورشة "ستراديفاريوس". وكان يشعر بين الفينة والأخرى بهذا الإحساس المثير، وفي كل مرّة كان واثقًا من أن الغموض في صدره يشكل نبوءة بوقوع شيء جليل وغير مسبوق يتجاوز أحلامه.

أشعره الغموض هذه المرة بالدوار، وكان (في مكان ما من دماغه الذي لم يصبه الدوار) مدهوشًا أيضًا: كيف أمكن أن تكون رغبته بهذا القدر من القوّة، وأن يستجيب الواقع مستسلمًا لندائها، مستعدًّا لتلبيتها؟ ومن دون أن يخفّ اندهاشه، مضى يتحيّن اللحظة التي يصير فيها النقاش حادًا ليفلت من انتباه غرمائه. وما إن قدّر أن اللحظة بدرت، حتّى اختفى من القاعة.

تقع المصلحة التي أجريت فيها هذه المسامرة المرتجلة في الطابق الأرضي لجناح جميل مشيد (إلى جانب أجنحة أخرى) في حديقة المشفى الواسعة. وإلى هذه الحديقة دخل فليشمان. أسند ظهره إلى جذع شجرة جميز qolm، وأشعل سيجارة، ثم راح يتأمل السماء: كان الصيف في أوجه، والهواء يعبق بالأريج، وكان البدر معلّقًا في السماء السوداء.

راح فليشمان يشحذ ذهنه لكي يتخيّل ما سيحدث: فالدكتورة التي أومأت له بالخروج تنتظر أن ينشغل أصلعها بالحديث عوض انشغاله بالاشتباه فيها، ثمّ ستسرّ له بأن حاجة ملحّة تجبرها على التغيّب للحظة.

ماذا سيقع إثر ذلك؟ بعد ذلك يفضل ألا يتخيّل شيئًا. فالغموض في صدره يعِد بمغامرة، وهذا يكفيه. كان واثقًا من حظّه، واثقًا من نجمة حبّه، واثقا من الدكتورة. واستسلم لكسله وهو يتهادى في وثوقه (وثوق لا تزال تداخله بعض الحيرة)، لأنه كان يرى نفسه دومًا بملامح جذابة، مرغوب فيها ومحبوبة، وكان يروقه أن ينتظر المغامرات مشبوك الذراعين (برشاقة). كان مقتنعًا بأنّ الذراعين المشبوكين يستحثان النساء والقدر، ويخضعانهما.

تجدر الإشارة بهذه المناسبة إلى أن فليشمان غالبًا - إن لم يكن دائمًا - ما يرى نفسه مرفوقًا بقرين، فتصير وحدته مسليّة. ففي هذا المساء مثلاً، لم يكن يسند ظهره إلى شجرة الجميز وهو يدخن فحسب، بل كان في الآن ذاته يراقب بالتذاذ هذا الرجل (الوسيم والفتي) الذي أسند ظهره إلى شجرة الجميز وهو يدخن

بلا مبالاة. اغتبط بهذا المشهد، وانتهى بسماع وقع خطوات خفيفة قادمة نحوه من الجناح. تعمّد ألا يلتفت، وسحب نفسًا من سيجارته، ونفث دخانها وهو ينظر إلى السماء. ولما اقتربت منه الخطى كثيرًا، قال بصوت حنون موحٍ: "كنت أعلم أنك ستجيئين".

التبول

أجابه الرئيس: "لم يكن من الصعب توقّع ذلك. فأنا أفضل التبوّل في الطبيعة عوض المراحيض الحديثة الملوّثة. هنا، سيجمعني قريبًا، وبطريقة عجيبة، خيط رفيع مذهب بالدبال والعشب والتراب، لأنّني تراب يا فليشمان، وبعد لحظة سأعود، جزئيًا على الأقل، إلى التراب. إن البول في التراب طقس ديني نعِدُ به الأرض بالعودة إليها ذات يوم بكاملنا".

صمت فليشمان، فسأله الرئيس: "وأنت؟ أجئت إلى هنا لمشاهدة البدر؟". وظلّ فليشمان صامتًا فأضاف الرئيس: "أنت شخص غريب الأطوار يا فليشمان، وهذا سبب حبّي الكبير لك". فهم فليشمان من كلام الرئيس أنّه يسخر منه، فقال بنبرة فاترة: "اتركني وحيدًا مع القمر. أنا أيضًا جئت إلى هنا لأتبوّل".

أجابه الرئيس بحنان:

-أعتبر ما قلت يا صغيري فليشمان عربون محبة استثنائيًا لرئيسك الذي تقدّم به العمر".

وانتصبا معًا تحت الجميز لكي ينجزا العملية التي درج الرئيس على تشبيهها بقداس ديني.

الفصل الثاني

الشاب الوسيم الساخر

كانا قادمين عبر الممرّ الطويل، والرئيس يمسك بكتف طالب الطب بشكل أخوي. وكان الطالب واثقًا من أن هذا الأصلع الغيور قد فطن لإشارة الدكتورة، وأنه إنما يقصد بأحاديثه الوديّة الاستهزاء منه! وبالرغم من تضايقه من يد الرئيس الموضوعة على كتفه، لم يكن يستطيع إزاحتها. عدا أن شيئًا واحدًا كان يواسيه: وهو أنّه كان يفور من الغيظ، وكان يبصر نفسه في هذا الغيظ، كما يبصر كذلك ملامح وجهه، فيشعر بالرضا على هذا الشاب الغاضب العائد إلى قاعة المداومة، وأنّه سيتفاجأ الجميع حين سيبدو لهم في صورة مختلفة تمامًا: ساخرًا ولاذعًا وشيطانيًا.

عندما التحقا بقاعة المداومة، كانت إليزابيث تهزّ ردفيها بشكل خليع مترنّمة بأحد الألحان. خفض هافيل بصره، فمضت الدكتورة تشرح وهي تداري ارتعابها من القادمين الجديدين: "إليزابيث ترقص".

فأضاف هافيل:

-إنها ثملة قليلاً.

استمرت إليزابيث في تحريك ردفيها، وهزّ صدرها أمام الدكتور هافيل الذي طأطأ رأسه. وسأل الرئيس:

"أين تعلّمت إذًا هذه الرقصة الجميلة؟".

وبدرت من فليشمان المفعم بالسخرية ضحكة متكلّفة. "ها!

ها! ها! رقصة جميلة! ها! ها! ها!"

وردّت إليزابيث على الرئيس:

-إنها رقصة شاهدتها في إحدى حفلات التعرّي بنادٍ من نوادي فيينا الليلية.

أجاب الرئيس برقة مداريًا سخطه:

-حسنًا، حسنًا. منذ متى تتردّد ممرّضاتنا على نوادي التعرّي؟

فقالت أليزابيث وهي تهزّ صدرها حواليه:

-على كل حال، هذا ليس محظورًا أيّها الرئيس!

وسرى الغضب في جسد فليشمان باحثًا عن منفذ، فقال:

-إنك بحاجة إلى البروميد وليس لرقصة تعرّ. سينتهي بك الأمر إلى اغتصابنا.

فقاطعته إليزابيث وهي تدور حول الدكتور هافيل هازّة صدرها:

-لا تخش شيئًا أنت، المغفلون البلداء لا يهمّونني.

سألها الرئيس بودّ:

-وهل أعجبتك رقصة التعرّي تلك؟

-أتريد الصدق! كانت ثمّة راقصة سويدية ذات نهدين عظيمين، لكن في ما يخص النهود، فأنا أملك أجملها! (وبينما كانت تقول هذا راحت تداعب صدرها). وكانت ثمة أيضًا فتاة تتظاهر بالاستحمام برغوة الصابون في حوض من الكرتون،

وخلاسية تستمني أمام الجمهور. وهذا هو أفضل ما كان هناك!

قال فليشمان وقد دفع بسخريته الشيطانية إلى مداها:

-ها! ها! الاستمناء! هذا بالضبط ما يلزمك!

حزن بهيئة مؤخِّرة

واصلت إليزابيث رقصها، لكن جمهورها كان أقل جودة بلا شك من جمهور قاعة التعرّي بفيينا: فقد طأطأ هافيل رأسه، ومضت الدكتورة تحدّق بخبث، في حين راح فليشمان ينظر باستنكار، والرئيس بسماحة أبوية. وراحت مؤخرة إليزابيث، التي ضاق بها ثوب التمريض الأبيض، تجول وسط الغرفة مثل شمس مكورة، لكنها خابية وميّتة (ملفوفة في كفن أبيض)؛ شمس تحكم عليها أنظار الأطباء الحاضرين اللامبالية والشاجبة بضرب من اللاجدوى المثيرة للشفقة.

وجاءت لحظة ساد فيها الاعتقاد بأنّ إليزابيث ستُقدم على نزع لباسها قطعة قطعة، إلى حدّ أن الرئيس تدخّل بصوت قلق: "ولكننا لسنا في فيينا يا إليزابيث!

فهتفت إليزابيث:

-ممَّ تخاف أيّها الرئيس؟ على الأقل ستأخذ فكرة عن المرأة العارية!

ثم استدارت من جديد نحو الدكتور هافيل ملوّحة له بنهديها:

-هيّا يا دكتور هافيل! ما هذه السحنة الحزينة؟ ارفع رأسك! أمات أحد؟ أأنت في حداد؟ انظر إليّ، فأنا حيّة! أنا لست على حافة الموت! ما أزال حيّة! ما أزال أحيا".

وبينما كانت تقول هذا، لم تعد مؤخرتها مؤخرة، بل غدت هي الحزن ذاته، حزن مجسّم بإتقان يجوب الغرفة راقصًا.

وقال هافيل وهو يحدّق في أرضية الغرفة:

-كفى الآن يا إليزابيث!

فردّت إليزابيث:

-كفى؟ أنا أرقص لك! سأرقص رقصة تعرٍّ لك! رقصة تعرٍّ عظيمة!

نزعت وزرتها المعقودة على خصرها، ورمت بها على المكتب بحركة راقصة.

ومن جديد صدح صوت الرئيس المذعور:

-إنه لمن الرائع أن ترقصي أمامنا رقصة تعرٍّ يا إليزابيث، لكن ليس هنا. هل تفهمين، نحن الآن في المشفى.

رقصة التعري الكبرى

أجابت إليزابيث:

-"أعرف كيف أتصرّف، أيها الرئيس".

كانت لا تزال تهتزّ وهي ترتدي لباسها الرسمي، الأزرق الباهت، بياقة بيضاء.

ثم وضعت يديها على ردفيها، وراحت تزلقهما على خصرها، وترفعهما فوق رأسها، ثم تصعد يدها اليمنى على طول ذراعها اليسرى المرفوعة إلى أعلى، ويدها اليسرى على طول ذراعها اليمنى، ثم قامت بحركة بذراعيها باتجاه فليشمان، كما

لو قذفت له بصدريتها، فقفز فليشمان من مكانه مذعورًا. وصرخت به:

- "أتركتها تسقط أيها الرضيع!"

أعادت إثر ذلك يديها إلى ردفيها، ثم أزلقتهما على امتداد ساقيها، ثم انثنت ورفعت ساقها اليمنى فاليسرى. بعد ذلك حدّقت في الرئيس، وحرّكت ذراعها اليمنى كما لو رمت له بتنورتها الخيالية. مدّ الرئيس يده، وشدّ راحته، وبعث لها قبلة بيده الأخرى.

وبعد بعض الاهتزازات والخطوات، وقفت على أصابع قدميها، وثنت ذراعيها إلى الخلف حتّى التقت أصابعها وسط ظهرها، ثم أعادت ذراعيها للأمام بحركات راقصة، وحركتهما برشاقة هذه المرّة باتجاه هافيل الذي قام بحركة من يده خجولة ومرتبكة.

كانت إليزابيث تذرع الغرفة بجلال وهي تطوف على متفرجيها الأربعة، الواحد تلو الآخر، مظهرة أمام كلّ منهم عري صدرها الرمزي. وفي الختام وقفت أمام هافيل، وشرعت تهز ردفيها، ثم انحنت قليلاً وهي تمرّر يديها على خاصرتها مثلما فعلت قبل ذلك بقليل، ورفعت إحدى ساقيها، فالأخرى، ثم انتصبت بزهو وهي ترفع يدها اليمنى، حاملة بين السبابة والإبهام "سليبها" الخفي. ومن جديد، قامت بحركة رشيقة باتجاه الدكتور هافيل.

لم تعد تنظر إلى أحد بمن فيهم الدكتور هافيل، وبدت مزهوّة بعظمة عريها الوهمي. كانت تنظر إلى جسدها المتماوج بعينين نصف مغمضتين ورأس مائل إلى الجانب.

إثر ذلك تحطّمت الوقفة المزهوة، فجلست على ركبتي الدكتور هافيل وقالت وهي تتثاءب: "أنا منهكة"؛ ثم تناولت كأس هافيل ورشفت منها، وأردفت قائلة لهافيل: "يا دكتور، أليس معك قرص يوقظني؟ مهما يكن فلا ينبغي أن أخلد للنوم!

فردّ هافيل وهو ينهضها عن ركبتيه ويجلسها على الكرسي:

-بالنسبة إليك يا إليزابيث، عندي كلّ ما تودين!"

ثم توجه نحو الصيدلية حيث وجد منومًا قويًا، فناول إليزابيث قرصين منه.

سألته:

-"هل هذا سيوقظني؟

ردّ الدكتور:

-بكل تأكيد، مثلما أسمّى أنا هافيل".

عبارات توديع إليزابيث

لما ابتلعت إليزابيث القرصين همّت بالجلوس على ركبتي هافيل من جديد، لكنه باعد ساقيه، فوقعت على الأرض.

شعر هافيل على الفور بالندم على ما فعل، لأنه لم يقصد إهانتها، والحركة التي قام بها كانت في الواقع ردّ فعل آلي ناتج عن النفور الصادق الذي شعر به من فكرة ملامسة ركبتيه لعجيزتها.

حاول مساعدتها على النهوض، لكنّها ظلت، نظرًا لثقل وزنها، ملتصقة بالأرض بعناد حزين.

انتصب فليشمان أمامها وقال:

-إنك ثملة، ينبغي أن تنامي.

تطلّعت إليه إليزابيث من تحت بازدراء، ثم قالت له (وهي تتلذّذ بمازوشية شجية لكونها مطروحة أرضًا): "وغد، أبله"، وأضافت مرّة أخرى: "أبله".

ثم حاول هافيل ثانية أن ينهضها، لكنّها تخلّصت منه بعنف وأجهشت بالبكاء. لم يجد أحد منهم شيئًا يقوله، وتعالى نحيب إليزابيث في الغرفة الصامتة كعزف كمان منفرد. وبعد لحظة قصيرة، تبادر إلى ذهن الدكتورة أن تصفر بلطف. هبّت إليزابيث قائمة، وتوجّهت إلى الباب، ولما وضعت يدها على المقبض التفتت وقالت: "أوغاد، أوغاد. لو كنتم تعلمون. لكنكم لا تعرفون شيئًا. لا تعرفون شيئًا".

اتّهام الرئيس لفليشمان

تلا انسحاب إليزابيث صمت كان الرئيس أوّل من بدّده: "أرأيت يا صغيري فليشمان. لقد زعمت أنّك تشفق على النساء. إذا كنت تشفق على النساء، فلماذا لم تشفق على إليزابيث؟

ردّ فليشمان:

-وما دخلي أنا؟

-لا تتظاهر بكونك لا تعرف شيئًا! لقد أخبروك قبل قليل. إنها تهيم بك!

-وهل بوسعي أن أفعل شيئًا؟

قال الرئيس:

-ليس بوسعك شيء. لكنك تعاملها بفظاظة وتعذّبها، وهذا أمر تستطيع تجنّبه. لم تكن تهتمّ طوال السهرة إلا بشيء واحد: ما ستفعله، ما إذا كنت ستنظر إليها وتبتسم، ما إذا كنت ستقول لها كلمة لطيفة. وتذكّر ما قلت لها!

ردّ فليشمان (لكن صوته كان يشي بشيء من الشك):

-لم أقل لها أيّ شيء مزعج.

قال الرئيس ساخرًا:

-أيّ شيء مزعج. لقد سخرت من رقصها رغم أنها لم ترقص لأحد سواك. ثم إنك نصحتها بالبروميد، وقلت لها إن أفضل ما يمكنها فعله هو الاستمناء. أليس في كل هذا ما يزعج! ولمّا كانت ترقص وتتعرى، تركت الصدرية التي رمتها لك تسقط أرضًا.

-أي صدرية؟ ردّ فليشمان.

-صدريتها، قال الرئيس. لا تتظاهر بالبلاهة. وفي النهاية بعثتها لتنام رغم أنها تناولت أقراصًا مضادة للتعب.

فقال فليشمان مدافعًا عن نفسه:

-لكنها كانت تجري خلف هافيل.

فبادره الرئيس بحدّة:

-لا تتخابث. ماذا تريدها أن تفعل أمام تجاهلك لها؟ لقد حاولت استفزازك. لم تكن ترغب إلا في شيء واحد: بعض فتات غيرتك. بعد كل هذا ما زلت تتحدّث عن الجنتلمان!

قالت الدكتورة:

-اتركه الآن. إنه فظّ، لكنه شاب.

وقال هافيل:

-إنه رئيس ملائكة العقاب".

الأدوار الميتولوجية

قالت الدكتورة:

"أجل، هذا صحيح. انظروا إليه: رئيس ملائكة جميل ومرعب.

فأكد الرئيس بصوت متهدّج:

-إننا مجتمع ميتولوجي حقيقي. فأنت هي "ديانا"[1] الفاترة والرياضية الشريرة.

فأردفت الدكتورة قائلة:

-وأنت "ساتير"[2]، شيخ شهواني ثرثار. وهافيل هو دون جوان، وهو ليس عجوزًا، بل كهل.

ردّ الرئيس، وهو يحاول العودة إلى أطروحته الأولى:

-هيّا إذًا! هافيل إنه الموت".

نهاية الدون جوانات

قال هافيل:

-"لو سألتموني ما إذا كنت دون جوان أو الموت، لوضعت

---

(1) "ديانا" هي إلهة الصيد عند الرومانين.

(2) ساتير (satyre) شخص خرافي عند الوثنيين، نصفه الأعلى بشر، والأسفل ماعز.

نفسي، على مضض، حيث وضعني الرئيس. (ثم رشف رشفة كبيرة) لقد كان دون جوان غازيًا، غازيًا عظيمًا. لكن بالله عليكم كيف يمكن للمرء أن يكون غازيًا لأرض لا مقاومة فيها، حيث كل شيء ممكن، وكل شيء مباح؟ لقد مضى زمن دون جوان. إن حفيد دون جوان الحالي لم يعد يغزو، وكل ما يقوم به هو أنه يجمّع. فالغازي العظيم لم يخلّف غير هاوي مجموعات عظيم؛ لكن هاوي المجموعات لم يعد يشبه دون جوان في شيء. فقد كان دون جوان شخصية تراجيدية، وكان موسومًا بالخطيئة. كان يذنب بابتهاج، ويسخر من الربّ. كان مجدفًا، وانتهى به الأمر في جهنم.

كان دون جوان يحمل على كاهله عبئًا مأسويًا ليس لهاوي المجموعات الكبير أيّ فكرة عنه، لأن كل ثقل في عالمه كان بلا وزن. وتحوّلت الصخور إلى زغب. كانت كل نظرة في عالم الغازي تساوي ما تساويه عشر سنوات من الحب الشهواني المتلهف في عالم هاوي المجموعات.

"كان دون جوان سيدًا، في حين أن هاوي المجموعات عبد. وكان دون جوان يخرق القوانين والتقاليد بوقاحة، أما هاوي المجموعات فيجتهد في الامتثال للعرف والقانون، لأن جمع المجموعات صار جزءًا من اللياقة والتهذيب، وصار أشبه بالواجب تقريبًا. وأنا إنما أشعر بالذنب لأنّني لم آخذ إليزابيث.

هاوي المجموعات لا صلة له بالتراجيديا ولا بالدراما. صار الشبق، الذي هو أصل المصائب، بفضله شبيهًا بوجبة فطور أو عشاء، أو بهواية جمع الطوابع البريدية أو كرة الطاولة أو التبضع

من المتاجر. لقد أدخل هاوي المجموعات الشبق إلى دائرة الابتذال، إذ جعل منها منصّة وكواليس مسرح لا تقع فيها الدراما أبدًا. هيهات يا أصدقائي، صاح هافيل بنبرة شجية، إن غرامياتي (إذا أمكنني تسميتها هكذا) هي منصات مسرح لا يقع فيها شيء.

دكتورتي العزيزة، رئيسي العزيز، لقد وضعتم دون جوان في مقابل الموت، كما لو أنهما يشكلان حدّي ثنائية متناقضة. وبهذا كشفتما، سهوًا وبمحض الصدفة، عن عمق المسألة. انظروا، لقد تحدّى دون جوان المستحيل، وهذا هو الجانب الأكثر إنسانية. أما في مملكة هاوي المجموعات، فلا شيء في المقابل مستحيل، لأنها مملكة الموت. إن هاوي المجموعات العظيم هو الموت ذاته وقد جاء يبحث عن التراجيديا والدراما والحب، جاء باحثًا عن دون جوان. وقد بقي دون جوان حيًّا في نار جهنم التي بعثه القائد إليها. لكن في عالم هاوي المجموعات الكبير، حيث ترفرف العواطف والنزوات في الهواء مثل ريشة، هو ميّت بشكل لا رجعة فيه.

قال هافيل بأسى: هيا إذًا يا سيدتي العزيزة! أنا ودون جوان! هذا ما أنا مستعد لتقديمه لأرى القائد، لأشعر بثقل لعنته القاسية على روحي، لأحسّ بعظمة المأساة تكبر بداخلي! هيّا إذًا يا سيدتي! ما أنا على الأرجح سوى شخصية كوميدية؛ وحتّى هذا لست مدينًا به لنفسي بقدر ما أنا مدين به له هو، دون جوان؛ لأنّك لم تعودي، بطريقة أو بأخرى، تستطيعين الإمساك بالأسى المضحك لوجودي كمطارد نساء إلا على الخلفية التاريخية لبهجتي المأسوية، وهو وجود لن يكون، من دون هذه العلامة، سوى رتابة تافهة ومنظر مملّ".

إشارات جديدة

بعد أن أتعبته هذه الكلمة الطويلة (التي مال فيها رأس الرئيس النعسان مرتين على صدره) شعر هافيل بالتّعب، فسكت. وبعد لحظة صمت مفعمة بالمشاعر، تناولت الدكتورة الكلمة: "لم أكن أعلم، يا دكتور، أنك خطيب بارع. لقد رسمت لنفسك صورة شخصية هزلية رتيبة ومملّة مثل العدم! لكن الطريقة التي عبّرت بها كانت للأسف نبيلة شيئًا ما. إنه تأنّقك اللعين: فأنت تتحدّث عن نفسك كمتسوّل، لكن بألفاظ سلطانية حتّى تبدو أقرب إلى الأمير منه للشحاذ. إنك عجوز مخاتل يا هافيل. أنت متبجّح حتّى في لحظات تمرغك في الوحل. إنك عجوز أفّاك وحقير".

ضحك فليشمان ضحكة صاخبة، لأنّه اعتقد راضيًا بأنّ كلام الدكتورة يشي بالحقد على هافيل. لهذا اقترب من النافذة مدفوعًا بسخرية الدكتورة، وبضحكته الخاصة، وقال بصوت مسموع: "يا لها من ليلة!".

فردّت الدكتورة: "أجل، إنها ليلة رائعة، وها هو هافيل يتظاهر بالموت! هل انتبهت يا هافيل لروعة هذه الليلة؟".

قال فليشمان: "بطبيعة الحال لم ينتبه. المرأة بالنسبة له هي المرأة، والليالي لا فرق بينها، والشتاء يشبه الصيف. إن الدكتور هافيل يرفض تمييز الخواص الثانوية.

-لقد كشفتني تمامًا".

خمّن فليشمان أن موعده مع الدكتورة ناجح هذه المرة.

فالرئيس بالغ في الشرب، ويبدو أن النعاس بدأ يستحكم فيه قبل دقائق وصار يضعف انتباهه. وقال فليشمان بتحفّظ بعد أن نظر إلى الدكتورة: "آه، مثانتي تؤلمني". ثم توجّه نحو الباب.

الغاز

لمّا بلغ الممرّ، فكّر منتشيًا أن الدكتورة قضت السهرة في السخرية من الرجلين، الرئيس وهافيل، إذ نعتتهما معًا بكثير من اللباقة بالمنافقين؛ ودهش من رؤية موقف يتكرّر أمامه، وهو مشهد كان يذهله في كل مرة بسبب اطراده: إنه إعجاب النساء به، فيؤثرنه على سواه من الرجال ذوي خبرة، وهو ما يمثل في حالة الدكتورة - بما أنّها في ما يبدو امرأة متطلّبة بشكل عجيب، ذكيّة ومتعالية (على نحو لطيف) - نصرًا جديدًا وغير متوقع.

في هذه الحالة الذهنية عَبَرَ فليشمان الممر الطويل متّجهًا نحو المخرج. وكاد يبلغ باب الحديقة لما تنشق فجأة رائحة الغاز، فتوقّف وراح يتشمّم. كانت الرائحة مركّزة عند الباب التي تفصل بين الممر وغرفة استراحة الممرضات. وفجأة تنبّه فليشمان إلى أنه خائف.

كان أوّل ما تبادر إلى ذهنه هو أن يجري ليلحق بالرئيس وهافيل، لكنه قرّر أن يضع يده على مقبض الباب (لأنه ظنّ ربّما أن الباب سيكون مقفلاً أو مغلقلاً بالرتاج). لكنه دهش من أنّه انفتح. كان مصباح السقف موقدًا ينير جسدًا ضخمًا لامرأة عارية مستلقية على الأريكة. ألقى فليشمان نظرة دائرية على الغرفة وهرع نحو موقد صغير. أقفل صنبور الغاز الذي كان مفتوحًا، ثم جرى نحو النافذة، وفتحها على مصراعيها.

ملاحظة بين قوسين

(يمكن القول إن فليشمان تصرف بدم بارد، وبفكر يقظ إجمالاً. لكنْ هناك أمرٌ لم يسجله رأسه البارد مع ذلك بما يكفي. من المؤكد أنه ركّز نظره لثانية على جسد إليزابيث العاري، لكنّه كان خائفًا جدًّا بحيث لم يستطع أن يدرك من خلال حجاب هذا الخوف ما يمكن أن نستمتع به الآن بمنتهى التمهّل، مستفيدين من قدرتنا على الاسترجاع:

كان هذا الجسد رائعًا. كان مستلقيًا على ظهره، ورأسه مائلاً قليلاً. وكانت الذراعان متقاربتين، والنهدان الجميلان مضغوطين أحدهما بالآخر، كاشفين عن اكتنازهما. وكانت إحدى ساقيها ممدّدة، في حين كانت الآخرى مطوية قليلاً، بحيث كشفتا عن اكتناز فخذيها وظلّ عانتها الأسود الكثيف بشكل عجيب).

طلب النجدة

بعدما فتح النافذة والباب على مصراعيهما، انطلق في الممر طلبًا للنجدة، وما تلا ذلك جرى بفعالية ناجحة: التنفس الاصطناعي، الاتصال بمصلحة الطوارئ، وصول عربة نقل المرضى، تسليم المريضة لأطباء المناوبة، حصة جديدة من التنفس الاصطناعي، عودة الحياة، نقل الدم، وفي الأخير تنفسوا الصعداء عندما تأكّدوا من أن حياة إليزابيث أنقذت.

الفصل الثالث

قال ماذا

لمّا غادر الأطباء الأربعة خدمة الطوارئ، وألفوا أنفسهم بالباحة، بدا عليهم التعب.

قال الرئيس: "لقد أفسدت علينا إليزابيث سمرنا".

قالت الدكتورة: "النساء المحبطات تجلبن النحس دائمًا".

قال هافيل: "هذا أمر غريب. كان من اللازم ترك الغاز مفتوحًا لكي نلاحظ أنها حسناء".

وعند نطق هافيل لهذه الكلمات، تفرّسه فليشمان (طويلاً) وقال: "لم تعد لدي رغبة في الشرب ولا في السمر. طابت ليلتكم". وتوجّه نحو بوابة المشفى.

نظرية فليشمان

وجد فليشمان آراء زملائه بغيضة، ولمس فيها فقدان شعور نساء ورجال تقدمّت بهم السن، كما رأى فيها انتصاب قسوة شيخوختهم أمام شبابه مثل حاجز عدواني. ولهذا مضى يستمتع بوحدته وهو يتمشى متأنيًا، يتلذّذ عميقًا بنشوته: وراح يردّد بلا توقّف وقد تملّكه خوف لذيذ من أن إليزابيث كانت قاب قوسين أو أدنى من الموت، وأنّه هو المسؤول عن ذلك.

لم يكن يجهل بالطبع أنّ الانتحار لا ينتج عن سبب واحد، بل ينتج في العادة عن مجموعة من الأسباب، لكنه لم يكن يستطيع أن ينفي كونه أحد تلك الأسباب، وربّما أهمّها؛ وذلك لمجرّد وجوده ولتصرّفه ذلك اليوم.

وها هو يتّهم نفسه بشكل مثير للشفقة. قال في نفسه إنّه أناني ومغرور بنجاحاته الغرامية. وبدا لنفسه سخيفًا بسبب اغتراره بالاهتمام الذي أبدته بنحوه الدكتورة. ولام نفسه على أنّه اعتبر إليزابيث مجرّد شيء، وعاء استعمله لكي يفرغ نكده حين أفسد عليه الرئيس الغيور موعده الليلي. فبأيّ حقّ سمح لنفسه بأن يعامل كائنًا بريئًا بهذه الطريقة؟

غير أن طالب الطب الشاب لم يكن كائنًا بدائيًا. فكلّ حالة من حالاته المزاجية كانت تتضمّن في ذاتها جدليّة الإثبات والنفي، بحيث انبرى صوت الدفاع الداخلي للردّ على صوت الإدانة الداخلي: فالعبارات الساخرة التي وجّهها لإليزابيث لم تكن لائقة بكل تأكيد، لكنّها ما كانت لتؤدّي إلى تلك النتيجة المأسوية لو لم تكن إليزابيث مغرمة به. لكن ماذا بوسع فليشمان أن يفعل إذا هامت امرأة بحبّه؟ أيصير مسؤولاً مباشرة عن تلك المرأة؟

وتوقّف عند هذا السؤال الذي بدا له هو مفتاح لغز الوجود الإنساني. توقّف حتّى عن المشي، وصاغ أرصن جواب في العالم: أجل، لقد كان مخطئاً لمّا قال للرئيس قبل قليل إنّه غير مسؤول عمّا يتسبّب فيه بلا قصد. وفعلاً، هل يستطيع أن يختزل شخصيّته في ما يعي ويتعمّد؟ ألا يدخل ما يسبّبه من أذى عن غير وعي في دائرة شخصيّته؟ أثمّة مسؤول غيره؟ أجل، إنه مذنب، مذنب بحبّ إليزابيث، مذنب لتجاهله هذا الحب، مذنب بإهماله، إنه مذنب. لقد كاد يقتل نفسًا.

بينما كان فليشمان منغمسًا في امتحان الضمير هذا، التحق الرئيس وهافيل والدكتورة بقاعة الحراسة. لم تعد لديهم رغبة في الشرب، ولاذوا بالصمت للحظات، ثم قال الدكتور هافيل: "ماذا يكون دار في رأس إليزابيث؟

فقال الرئيس: لا داعي لهذه العواطف المزيفة. عندما يرتكب أحدهم حماقات كهذه، لا أسمح لنفسي بالانسياق وراء المشاعر. على كلّ حال، لو لم تكن عنيدًا، ولو فعلت معها ما لا تتردّد في فعله مع كلّ الأخريات، لما وقع كل هذا.

ردّ هافيل: أشكرك على تحميلي مسؤولية الانتحار".

أجاب الرئيس: لندقّق في الأمور. لا يتعلّق الأمر بانتحار، بل باستعراض انتحاري مرتّب لتجنُّب الكارثة. دكتوري العزيز، عندما نرغب في الموت اختناقا بالغاز، نشرع بإغلاق الباب بالمفتاح. أكثر من ذلك نحرص على إغلاق كل الشقوق حتّى نؤخّر اكتشاف الغاز بأقصى ما يمكن. لكن إليزابيث لم تكن تفكّر في الموت، بل كانت تفكّر فيك أنت.

الربّ وحده يعلم منذ كم أسبوع وهي تبتهج لفكرة أنّها ستشتغل معك خلال المناوبة الليلية، ومنذ بداية السهرة ركّزت عليك انتباهها بغير حياء. لكنّك ظللت مصرًّا على عنادك. وكلّما أمعنت في الشرب، زاد استفزازها: تكلّمت ورقصت، ثم حاولت أن ترقص رقصة التعرّي...

أرأيت، أتساءل عمّا إذا لم يكن في كلّ هذا، مع ذلك،

شيء مؤثّر. ذلك أنها عندما استنتجت أن لا سبيل للتعويل لا على عينيك ولا على أذنيك، راهنت على حاسة شمّك، وفتحت صنبور الغاز. وقبل أن تفتحه، نزعت ملابسها. كانت تدرك أنّها تملك جسدًا جميلاً، وأرادت أن تضطرّك إلى أخذه إذًا في الاعتبار. تذكّر ما قالته لمّا همّت بالانصراف: إذا كنتم تعلمون، إنكم لا تعلمون شيئًا إنكم لا تعلمون شيئاً. الآن أنت تعرف: فوجه إليزابيث دميم، لكنها تملك جسدًا جميلاً، وهو أمر اعترفت به أنت نفسك. لعلّك ترى أنها ليست بليدة، بل أتساءل ما إذا كنت ستستسلم الآن".

هزّ هافيل كتفيه وقال: "هذا ممكن".

فقال الرئيس: "أنا متأكّد من ذلك".

نظرية هافيل

"ما قلته أيها الرئيس ربّما بدا مقنعًا. لكن ثمّة ثغرة في استدلالك: إنّك تبالغ في تقدير دوري في هذه الواقعة، لأنّني لست المقصود. فأنا لست الوحيد الذي رفض مضاجعة إليزابيث. لا أحد رضي بمضاجعتها.

لمّا سألتني قبل قليل لماذا لم أقبل بمضاجعة إليزابيث، أجبت بهراء حول روعة الإرادة الحرة وحول حريّتي التي أحرص على صونها، لكنّها لم تكن غير تصريحات فارغة قصدت بها التمويه على الحقيقة التي هي مختلفة تمامًا ولا مجاملة فيها: فإذا كنت قد أعرضت عن إليزابيث، فلأنّني عاجز عن التصرّف كإنسان حرّ، لأن العادة السائدة هي عدم مضاجعة إليزابيث. فلا

أحد يضاجعها، وإذا حدث أن ضاجعها أحد، فلن يعترف بذلك أبدًا، لأنّ الجميع سيسخر منه. فالعادة تنّين رهيب، وقد استسلمت له. غير أن إليزابيث امرأة ناضجة، وهذا ما أفقدها صوابها. ولعلّ ما ساهم في إفقادها الصواب أكثر من أيّ شيء آخر، هو كوني صددتها، لأنّ الجميع يعلم أنّني أقبل على كل النساء. عدا أن العادة كانت عندي أثمن من دفاع إليزابيث.

أنت محقّ، أيها الرئيس: هي تعلم أنّها تملك جسدًا جميلاً، وبذلك قدّرت أنّ هذه الوضعية جائرة ولا معنى لها تمامًا، ومن ثمّة شاءت الاحتجاج عليها. تذكّر أنّها لم تتوقف طوال السهرة عن لفت الانتباه إلى جسدها. فحين تحدّثت عن الراقصة السويدية العارية التي شاهدتها في فيينا، داعبت نهديها، وأشارت إلى أنهما أجمل من نهدي الراقصة. تذكّر أيضًا أن ثدييها وعجيزتها احتلا هذه الغرفة مثل حشد من المتظاهرين. أيها الرئيس إنّني جادّ في ما أقول، كان الأمر تظاهرة حقيقيّة.

تذكّر رقصتها العارية، تذكّر كيف عاشتها! إنها أشدّ رقصات التعري كآبة شاهدتها في حياتي. لقد كانت تتعرّى بتلهف، لكن من دون أن تتخلّص من زيّ الممرّضة البغيض. كانت تتعرّى من دون أن تستطيع التعرّي. وراحت تتعرّى وهي تعلم أنّها لن تتعرّى. كانت تتعرّى لأنها تريد إطلاعنا على رغبتها الحزينة في التعرّي المتعذّر عليها تحقيقه. لم يكن تعرّيًا، أيها الرئيس، بقدر ما كان مرثيّة للتعرّي، نشيدًا عن استحالة التعرّي، عن استحالة الجماع، عن استحالة الحياة! وحتّى هذا لم نشأ سماعه، طأطأنا رؤوسنا، وأبدينا لامبالاتنا.

فصرخ الرئيس: يا لك من متهتّك رومانسي! أتظنّ حقًّا أنها كانت ترغب في الموت؟

قال هافيل: تذكّر ما قالته لي وهي ترقص! قالت: إنّني ما زلت حيّة! ما زلت على قيد الحياة! أتذكر؟ منذ أن شرعت ترقص، كانت تعلم ما ستُقدم عليه.

-ولماذا أرادت الموت وهي عارية تمامًا؟ لماذا؟ كيف تفسّر هذا؟

-كانت تريد أن تطوّقها ذراعا الموت كما لو كانتا ذراعي عشيق. لهذا السبب تعرّت وصفّفت شعرها وتزيّنت...

-ولعلّها لهذا السبب لم توصد الباب بالمفتاح؟ أرجوك، لا تحاول إقناع نفسك بأنّها كانت تريد فعلاً أن تموت.

-لعلها لم تكن تعلم ما تريد بالضبط. أتعرف أنت ما تريد؟ من منّا يعرف ما يريد؟ كانت تريد الموت ولا تريده. كانت تريد بصدق أن تموت، لكنّها كانت تريد (وبصدق أيضًا) إلغاء الفعل الذي يؤدي بها إلى الموت، والذي كانت تشعر بعظمته. لعلّك تدرك أنّها لم تكن ترغب في أن تُشاهد وقد أشحبها الموت وشوّهها وعفّنها. كانت تريد أن ترينا جسدها الفائق الجمال الذي لم يلق التقدير اللازم، والذي مضى في عزّ مجده لكي يضاجع الموت. كانت تريدنا على الأقل في هذه اللحظة الحاسمة أن نغبط الموت على هذا الجسد، وأن نشتهيه.

نظرية الدكتورة

قالت الدكتورة التي لزمت الصمت حتّى هذه اللحظة، وأصغت باهتمام لما قاله الطبيبان: "أيها السيدان، لقد بدا لي ما

قلتماه معًا منطقيًا، بحسب ما يسعني كامرأة أن أحكم. فنظريتاكما في حدّ ذاتهما تبدوان مقنعتين، وتشهدان لكما بمعرفة عميقة بالحياة، وليس فيهما غير عيب واحد: ليس فيهما ذرّة من الحقيقة. لم تكن إليزابيث تفكر في الانتحار، لا في الانتحار الواقعي ولا حتّى في التظاهر بالانتحار. لم تفكر في أيّ انتحار".

توقّفت الدكتورة برهة لكي تلتذّ بوقع كلامها، ثم استرسلت: "يظهر أيّها السيدان أنّكما تشعران بتأنيب الضمير. لمّا عدنا من مصلحة الطوارئ، تجنّبتما الدخول إلى قاعة الاستراحة، لم تكونا ترغبان في رؤيتها مرّة ثانية. لكنّني فحصتها بعناية لما كنتما تجريان لها التنفس الاصطناعي. كان ثمّة إناء على الموقد، ذلك أن إليزابيث كانت قد سخّنت الماء لكي تحضّر القهوة، لكن النوم غلبها، ففاض الماء، وأطفأ النار".

عاد الطبيبان إلى قاعة الاستراحة مع الدكتورة، ووجدا ما قالته صحيحًا. كان على الموقد إناء صغير ما زال فيه قليل من الماء.

وسأل الرئيس مستغربًا: "لكن في هذه الحالة، لماذا كانت عارية تمامًا؟".

قالت الدكتورة وهي تشير إلى زوايا الغرفة الأربع: "انظروا جيدًا". كان الرّداء الأزرق مرميًا على الأرض تحت النافذة، وكانت حمّالة الثديين تتدلى وهي معلقة في خزانة الصيدلية الصغيرة، والسروال الداخلي الأبيض مرميًّا على الأرض في الزاوية المقابلة. "لقد رمت إليزابيث ملابسها في كل أرجاء الغرفة، ممّا يعني أنها أرادت، بمفردها، أن تنجز حصة الرقص العاري الذي استطعت أيها الرئيس منعها منه احتياطًا!

ولما تجرّدت من ملابسها، شعرت ولا شكّ بالتعب. لم يكن ذلك يعنيها، لأنها لم تتخلّ عن آمالها في هذه الليلة. كانت تعلم بأنّنا سننصرف في نهاية المطاف، وأن هافيل سيبقى وحيدًا. ولذلك طلبت الأقراص لتبقى صاحية. أرادت أن تحضّر القهوة، فوضعت إناء الماء على الموقد. إثر ذلك، نظرت ثانيّة إلى جسدها، فأثارها ذلك. أيها السيّدان، لقد كانت لإليزابيث ميزة عليكما: لم تكن ترى رأسها. بالنسبة إليها، كانت تملك جمالاً لا يعيبه شيء. أثارها جسدها، فاستلقت بشبق على الأريكة، لكن النوم، في ما يظهر، فاجأها قبل اللذة.

قال هافيل: بكلّ تأكيد، لا سيما وأنّني أعطيتها أقراصًا منومة!

قالت الدكتورة: هذا من لطفك. أثمّة شيء لا يزال غامضًا؟

قال هافيل: نعم. تذكّري ما قالته لنا: لست على وشك أن أموت! إنّني ما أزال على قيد الحياة، إنني أحيا! وقد قالت هذه الكلمات الأخيرة بطريقة شجيّة، كما لو كانت كلمات وداع: لو كنتم تعلمون، لكنّكم لا تعلمون، لكنّكم لا تعلمون".

قالت الدكتورة: "هيّا يا هافيل، كما لو أنّك لا تعلم أنّ تسعة وتسعين في المئة مما نقول هي كلمات لا معنى لها. أتتحدّث أنت نفسك في معظم الأحيان لهدف آخر غير الكلام؟".

واصل الأطباء ثرثرتهم لبعض الوقت، ثم خرجوا وصافح الرئيس والدكتورة هافيل، ثم ابتعدا.

هواء الليل يعبق بالعطر

أخيرًا بلغ فليشمان شارعًا في الضاحية حيث يسكن مع أبويه

في فيلا صغيرة محاطة بحديقة. فتح الباب الحديد المشبّك، ومن دون أن يبلغ باب المدخل، جلس على مقعد تدلّت فوقه ورود رعتها أمه بعناية.

عبق هواء ليل الصيف بالأريج، وماجت في صدر فليشمان كلمات "مذنب" "أناني" "محبوب" "ميّت"، وغمرته بلذة مثيرة. وشعر كما لو أن أجنحة تنبت في ظهره.

في غمرة هذه السعادة الكئيبة، شعر بنفسه محبوبًا أكثر من أيّ وقت مضى. لقد سبق لنساء عديدات أن منحنه بالطبع دلائل ملموسة على شعورهنّ نحوه، لكنّه في هذه اللحظة يجبر نفسه على مواجهة صفاء قاس: أكان هذا دائمًا حبًّا؟ ألم يقع أحيانًا ضحيّة الأوهام؟ ألم يحدث له أن توهّم أكثر ممّا يوجد في الواقع؟ ألا تبحث كلارا مثلاً في علاقتها به عن منفعة أكثر من كونها عاشقة؟ أليست مهتمّة في المقام الأول بالشقّة التي سيهديها إياها أكثر من اهتمامها بشخصه؟ بدا له كل شيء باهتًا أمام تصرّف إليزابيث.

طفت في الهواء كلمات كبيرة، وقال فليشمان في نفسه إنّ الحب لا يحكمه غير معيار واحد: الموت.

نهاية الحب الحقيقي هي الموت. والحبّ الذي ينتهي بالموت هو وحده الحبّ.

كان العبق يطفو في الهواء، وتساءل فليشمان: أأحبّه أحد في هذا العالم مثلما أحبّته هذه المرأة الدميمة؟ ولكن ما قيمة الجمال أو القبح أمام الحبّ؟ ما قيمة دمامة وجه أمام عظمة شعور تعكس المطلق؟

(المطلق؟ نعم. إنّ فليشمان مراهق طُوِّح به منذ زمن قصير في عالم البالغين المبهم. إنه يبذل ما في وسعه لإغواء النساء، لكنّ ما يبحث عنه هو في الأساس العناق المواسي، اللانهائي، المنقذ الذي سيخلّصه من العالم النسبي المكتشف حديثًا).

الفصل الرابع

عودة الدكتورة

بينما كان الدكتور هافيل مستلقيًا على الأريكة منذ لحظات تحت غطاء صوفي رقيق سمع طرقات على الزجاج، فرمق وجه الدكتورة في ضوء القمر الخافت. فتح النافذة وسأل: "ماذا يجرى؟

-افتح" قالت الدكتورة، وتوجّهت بخطى رشيقة نحو باب الجناح.

زرّر هافيل قميصه، وتنهّد ثم غادر الغرفة.

لما فتح هافيل باب الجناح، واصلت الدكتورة مشيها من دون أن تقدّم مزيدًا من التوضيح. ولما استقرّت على الكرسي قبالة هافيل في قاعة الحراسة، شرعت تشرح أنّها لم تستطع العودة إلى بيتها، وأنّها تشعر باضطراب شديد، ولا تستطيع النوم، والتمست من هافيل أن يثرثر معها قليلاً حتّى تستعيد هدوءها.

لم يصدّق هافيل كلمة ممّا قالته، وكان على قدر من سوء الأدب (أو من التهوّر) لكي يظهر ذلك.

لهذا قالت له الدكتورة: "إنّك لا تصدّق كلامي بالطبع، لأنّك مقتنع بأنّني لم أعد إلا لأمارس معك الجنس".

أومأ الدكتور بالنفي، لكن الدكتورة استرسلت: "طبعًا، دون جوان معجب بنفسه! ما إن تراك امرأة حتّى لا تعود تفكر إلا في ذلك، فتقوم بإنجاز مهمّتك الحزينة وأنت مشمئزّ ومتضايق".

وأومأ هافيل نافيًا من جديد، لكن الدكتورة أشعلت سيجارة ونفثت دخانها بلا مبالاة، ثم أردفت قائلة: "لا تخش شيئًا يا دون جوان العزيز. لم آتِ لإزعاجك. إنك لا تشبه الموت في شيء. كل هذه الأشياء ليست إلا من مفارقات رئيسنا الغالي. فأنت لا تحصل على كل النساء لسبب بسيط هو أن النساء لسن كلهنّ مستعدات للخضوع لنزواتك. وأنا على سبيل المثال أستطيع أن أؤكّد لك ذلك. إنّني محصّنة ضدّك.

-ألهذا السبب أتيت؟

-ربّما جئت لكي أواسيك، لأقول لك إنّك لا تشبه الموت، وإنّني لا أقبل الاستسلام".

أخلاقية هافيل

"إنه للطف منك، قال هافيل، ألا تستسلمي، وأن تأتي لتقولي لي هذا. أنت محقّة، لا أشبه الموت في شيء. وأنا لا أقبل أخذ إليزابيث فحسب، بل لا أقبل أخذك أنت أيضًا.

-أوه! علّقت الدكتورة.

-لا أقصد أنّك لا تروقينني، بالعكس تمامًا.

-بالرغم من كل شيء، قالت الدكتورة.

-أجل، إنك تروقينني كثيرًا.

-فلماذا لا تقبلني إذًا؟ ألأنّني لا أعيرك اهتمامًا؟

-لا، أعتقد أن لا صلة لهذا بالأمر، قال هافيل.

-لماذا إذًا؟

-لأنك عشيقة الرئيس.

-وماذا بعد؟

-الرئيس غيور، وهذا سيسبب له الألم.

-هل تخاف تأنيب الضمير؟ سألت الدكتورة وهي تضحك.

-أنت تعلمين أنّني عشت مغامرات غرامية كثيرة مع النساء إلى حد عدت أفضل عليها الصداقة الذكورية، هذه الصداقة التي لا تلطّخها حماقة الشهوة الجنسية هي القيمة الأخلاقية الوحيدة التي عرفتها في حياتي.

-أتعتبر الرئيس صديقًا؟

-لقد بذل الرئيس كثيرًا من أجلي.

-وبذل أكثر من أجلي كذلك.

-هذا ممكن، قال هافيل. لا يتعلّق الأمر باعتراف بجميل. كلّ ما في الأمر أنّه صديق. إنّه شخص رائع، وهو متمسّك بك. فإذا ما حاولت الإيقاع بك، فسأكون مضطرّا لاعتبار نفسي نذلاً".

الرئيس المفترى عليه

قالت الدكتورة: "لم أكن أنتظر أن أسمع منك مثل هذا المديح الوفيّ للصداقة! لقد اكتشفت فيك يا دكتور وجهًا جديدًا عليّ كل الجدّة لم أكن أتوقّعه. فأنت لا تملك، خارج كل التوقّعات، ملكة الإحساس فحسب، بل أنت تمارس هذه الملكة

(وهو أمر مؤثّر) لصالح رجل مسنّ، أشيب وأصلع ليس فيه إلا ما يُضحك. أرأيته قبل قليل؟ ألاحظت كيف كان يلفت الأنظار إليه؟ يريد دائمًا أن يثبت أشياء لا يصدّقها أحد.

فهو يريد أولاً أن يثبت أنّه ظريف. لعلّك سمعت ما قال. قضى السهرة في الهراء. كان يسلّي الحاضرين ويعبّر بكلام بارع: الدكتور هافيل مثل الموت، واختلق المفارقات حول بؤس زواج سعيد (وهي أغنية سمعتها للمرة المائة!)، وحاول خداع فليشمان (كما لو أن القيام بذلك يستلزم أن يكون المرء ظريفًا!).

وهو يتظاهر من جهة ثانية بالسخاء. هو يبغض في الواقع كلّ من ما زال الشعر يكسو رأسه، لكنّه يضمر له العداء في نفسه. كان يجاملك ويجاملني، وعامل إليزابيث برقّة وحنان أبوي، وهو وإن سخر من فليشمان، فقد حرص على ألا يشعر فليشمان بذلك.

ثم إنه من جهة ثالثة، ولعلها الأخطر، يريد أن يثبت أنّه لا يُقاوَم. فهو يحاول يائسًا أن يخفي سحنته الحالية تحت مظهره القديم الذي تلاشى للأسف، ولا أحد منّا يذكره. لعلك رأيت كيف أنه تذرع به بمهارة لكي يقصّ علينا حكاية تلك العاهرة التي تمنّعت عليه، وذلك فقط حتّى تتسنّى له بالمناسبة فرصة الإشارة إلى وجهه في الماضي بأمل أن ينسينا صلعته البئيسة".

دفاعًا عن الرئيس

أجاب هافيل: "كل ما ورد على لسانك صحيح تقريبًا يا سيدتي. لكنّني لا أرى في كل ذلك إلا أسبابًا إضافية وجيهة

لحبّ الرئيس، لأنّ كل هذا يعنيني أكثر مما تظنّين. لماذا تريدينني أن أسخر من صلع لن أفلت منه؟ لماذا تريدينني أن أسخر من الجهد العنيد الذي يبذله الرئيس لكي لا يبدو كما هو على حقيقته؟

فالعجوز إما أن يقبل الحال الذي آل إليه، أي بقايا نفسه البئيسة، أو لا يقبل. ولكن ماذا عساه يفعل إن لم يقبل؟ لا يبقى أمامه إلا أن يتظاهر بأنّه ليس هو؛ لا يبقى أمامه إلا أن يعيد، عبر محاكاة مضنية، خلق ما لم يعده، وما فقده. لا يعود أمامه إلا أن يتصنّع المرح والحيوية والمودّة وأن يمثّلها ويحاكيها. أن يعيد بعث صورة شبابه، وأن يبذل ما في وسعه لكي يندمج فيها، ويعوّض نفسه بها. وأنا في مهزلة الرئيس هذه أرى نفسي، أرى مستقبلي الشخصي. هذا إذا بقيت لي القوة الكافية لرفض الاستسلام الذي هو بالتأكيد شرّ أسوأ من هذه المهزلة الكئيبة.

لعلّك تدركين بوضوح لعبة الرئيس، لكنّها لا تزيدني إلا حبًّا فيه، ولا أستطيع الإساءة إليه أبدًا، وهو ما يترتّب عليه أنّني لا أستطيع أبدًا أن أضاجعك".

ردّ الدكتورة

ردّت الدكتورة: "أيها الدكتور العزيز، الاختلافات بيننا هي أقلّ مما تظنّ. أنا أيضًا أحبّه كثيرًا، وأنا مدينة له أكثر مما أنت مدين له. فلولاه ما كنت لأحظى بمثل هذه المكانة (وأنت تعرف هذا جيّدًا مثلما يعرفه الجميع). أتظنّ بأنّي أخدعه؟ بأنّي أخونه؟ بأنّ لي عشاقًا آخرين؟ كم ستكون فرحة الجميع شديدة لو أتيح

لهم إخباره بذلك! إنّني لا أرغب في الإساءة لأحد، لا له ولا لنفسي، ومن ثمّة فإن حريتي أقل مما تتخيّل. إنّني مقيّدة تمامًا. لكنّني مسرورة بأنّنا تفاهمنا في ما بيننا جيّدًا، لأنّك أنت هو الرجل الوحيد الذي يمكن أن أسمح لنفسي بخيانة الرئيس معه. فأنت بالطبع مخلص في حبّه، ولا ترغب في الإساءة إليه قطّ. ستحفظ السر، وأستطيع أن أثق بك، وبذلك أستطيع مضاجعتك..."! وجلست على ركبتي هافيل ثم شرعت في فك أزراره.

ماذا فعل الدكتور هافيل؟

ماذا كان بوسعه أن يفعل...

الفصل الخامس

في دوّامة مشاعر نبيلة

وبعد الليل حلّ الصباح، فنزل فليشمان إلى الحديقة لكي يقطف باقة ورد، ثم ركب القطار إلى المستشفى.

كانت إليزابيث تحتلّ غرفة مستقلّة في مصلحة الطوارئ. جلس فليشمان بجانب سريرها، ووضع الباقة على طاولة السرير، وتناول يدها لكي يجسّ نبضها.

"هل تحسّنت حالتك؟ سألها.

-نعم" قالت إليزابيث.

فقال فليشمان بصوت مثقل بالعاطفة: "ما كان لك أن ترتكبي مثل هذه الحماقة يا عزيزتي.

-أنت محقّ، قالت إليزابيث. لقد غلبني النوم. وضعت الماء على النار لإعداد القهوة، لكن النعاس غلبني كالبلهاء".

وراح فليشمان ينظر إلى إليزابيث بذهول، لأنّه لم يكن ينتظر أن تكون بهذا القدر من التسامح: فإليزابيث تريد أن تجنّبه وخز الضمير. لم تكن تريد إرهاقه بحبّها، فأنكرت هذا الحبّ!

داعب وجنتيها وراح يخاطبها بلا كلفة منساقًا وراء مشاعره: "إنّني أعرف كل شيء، فلا داعي لأن تكذبي عليّ. لكنّني أشكرك على كذبك".

وأدرك أنّه لن يستطيع العثور على مثل هذا القدر من النبل والإيثار والتفاني عند أيّ امرأة أخرى، وكاد يستسلم لقوّة الإغراء فيطلب منها أن تقبل الزواج منه، لكنّه سيطر على نفسه في آخر لحظة (لأنّ المرء يملك دائمًا متّسعًا من الوقت لطلب الزواج) واكتفى بالقول: "عزيزتي إليزابيث، جلبت لكِ هذه الورود".

تفرّست إليزابيث في فليشمان ذاهلة وقالت: "جلبتها لي؟

-نعم لك، لأنّني سعيد بأن أكون معك هنا. لأنّني سعيد بوجودك يا إليزابيث. لعلّي أحبّك. لعلّي متيّم بك. لكنّه سبب إضافي لكي نقف عند هذا الحدّ. فأنا أظنّ أنّ الحب بين الرجل والمرأة يترابط عندما لا يعيشان معًا، وحين لا يعرف أحدهما عن الآخر سوى شيء واحد: أنه موجود، وأن كلاهما ممتنٌّ للآخر لأنّهما موجودان، ويعرفان أنّهما موجودان. وهذا يكفيهما ليشعرا بالسعادة. أشكرك يا إليزابيث، وأشكرك على وجودك".

لم تفهم إليزابيث شيئًا، لكنّها ظلت تبتسم بابتهاج، بابتسامة بلهاء، تغمرها سعادة مبهمة وأمل غامض.

ثم نهض فليشمان، وشدّ بيده كتف إليزابيث (دلالة على حبّ متحفظ دفين)، ثم استدار وخرج.

الريبة في كل شيء

قال الرئيس للدكتورة وهافيل لمّا اجتمعوا ثلاثتهم في المصلحة: "زميلتنا التي تشعّ شبابًا وجدت ولا شكّ هذا الصباح التفسير الأصح للوقائع. لقد وضعت إليزابيث الماء فوق النار لتهيئ القهوة، فغلبها النعاس. هذا ما تدّعيه على الأقل.

-أرأيت، قالت الدكتورة.

-لا أرى شيئًا على الإطلاق، ردّ الرئيس. في نهاية المطاف لا أحد يعرف شيئًا ممّا وقع. ربّما كان الإناء موضوعًا على النار قبل مجيئها. لو كانت إليزابيث ترغب في الانتحار بواسطة الغاز، فلماذا أزالت الإناء من فوق الموقد؟

-لكنّها فسّرت لك ما جرى! علقت الدكتورة.

-بعد أن مثّلت علينا مهزلتها، وبعد أن أرعبتنا لا تستغربوا أن تحاول إيهامنا بأن كلّ ما حصل كان بسبب الإناء. لا تنسوا أن من يحاول الانتحار في هذا البلد يُبعث مباشرة للعلاج في مصحة للأمراض العقلية. هذا الاحتمال لا يروق لأحد.

-هل تعجبك قصص الانتحار هذه يا رئيس؟ قالت الدكتورة.

-كم أتمنى أن يتعذّب هافيل ولو لمرة واحدة بوخز الضمير"، قال الرئيس ضاحكًا.

توبة هافيل

التقط ضمير هافيل الآثم من ملاحظة الرئيس التافهة توبيخًا مرموزًا بعثته له الآلهة خِفية فقال: "الرئيس محقّ. لم تكن بالضرورة محاولة انتحار، لكن يجوز أن تكون. وأضيف أنه لو قيض لي أن أتكلم بصراحة، لقلت إنني لا ألوم إليزابيث. قولا لي، أتوجد في الحياة قيمة واحدة مطلقة تجعل الانتحار شيئًا غير مقبول مبدئيًا؟ الحبّ؟ أو الصداقة؟ أؤكّد لكما أنّ الصداقة لا تقلّ هشاشة عن الحبّ، وأنّه لا يمكن البناء عليها. أو حبّ الذات على الأقل؟ أتمنّى ذلك". ثم أردف هافيل قائلاً بحماسة تقريبًا: "أقسم لك أيها الرئيس إنّني لا أحب نفسي إطلاقًا"، ورنّ هذا كما لو كان إعلان توبة.

قالت الدكتورة باسمة: "سادتي، إذا كان هذا يزيّن لكما الحياة، إن كان هذا ينقذ نفسيكما، لنقرّر أنّ إليزابيث كانت تقصد الانتحار. هل اتفقنا؟".

النهاية السعيدة

قال الرئيس: "كفى، لنغيّر الموضوع. أحاديثك يا هافيل تدنّس هواء هذا الصباح الجميل! أنا أكبرك بخمس عشرة سنة، ومن سوء حظّي أنّني سعيد في أسرتي، ومن ثمّة لا أستطيع الطلاق. وأنا تعس في الحبّ، لأنّ المرأة التي أتعلّق بها ليست سوى هذه الدكتورة! ومع ذلك فأنا سعيد في هذا العالم!

قالت الدكتورة للرئيس بحنان نادر وهي تتناول يده: جيّد، أنا أيضًا سعيدة في هذا العالم".

وفي هذه الأثناء التحق فليشمان بالأطباء الثلاثة وقال: "لقد أتيت من غرفة إليزابيث. إنّها فتاة طاهرة بشكل مدهش. لقد أنكرت كل شيء، وتتحمّل مسؤولية كل ما حدث.

-أرأيتم، قال الرئيس ضاحكًا. لقد كاد هافيل يدفعنا جميعًا إلى الانتحار.

-بالطبع" قالت الدكتورة، ثمّ اقتربت من النافذة. "سيكون هذا النهار جميلاً أيضًا. السماء شديدة الزرقة. ما رأيك يا فليشمان؟".

قبل لحظات من ذلك، كان فليشمان يلوم نفسه على كونه تصرّف برياء لمّا أخرج نفسه من المأزق بواسطة باقة ورد وبضع كلمات جميلة، لكنّه يهنئ الآن نفسه على عدم التسرّع في اتخاذ القرار. التقط إشارة الدكتورة، واستوعبها. وبذلك ستستأنف المغامرة مجراها انطلاقًا من النقطة التي توقفت عندها في الليلة السابقة عندما أفشلت رائحة الغاز الموعد بين فليشمان والدكتورة. ولم يستطع فليشمان أن يمنع نفسه من الابتسام للدكتورة، بالرغم من نظرات الرئيس الغيورة.

وبذلك تُستأنف الحكاية من حيث توقفت بالأمس، لكنّ فليشمان يعتقد بأنّه سيخوض غمارها وهو أكبر سنًّا بكثير وأقوى. لقد ترك وراءه حبًّا عظيمًا كالموت. يشعر بموجة تتعاظم في صدره، وهي أعلى وأعتى موجة عرفها في حياته، لأنّ ما يثيره بشبق هو الموت: الموت الذي قدّم له هديّة، موت رائع ومنعش.

لِيُخلِ الموتى القدامى المكان للموتى الجدد

1

كان عائدًا إلى بيته عبر شارع من شوارع مدينة بوهيمية استقرّ فيها منذ سنوات ليست بالقليلة، مستسلمًا لحياة ليست ذات بال، ولجيران يحبّون القيل والقال، وللابتذال الرتيب السائد في المكتب. كان يسير بلا مبالاة (كما يسير المرء في طريق عبرها مئات المرات) حتّى كاد يفوّت فرصة لقائها. لكنّها عرفته من بعيد، وكانت تنظر إليه وهي تتقدّم نحوه بابتسامة أثارت في اللحظة الآخيرة عند تقاطعهما ذاكرته، وانتشلته من غفوته.

"لم أنجح في تذكّرك" قال لها، لكنّه كان عذرًا أبعد ما يكون عن اللباقة. وجّها حديثهما في الحال إلى موضوع كان حريًّا بهما تجنّبه: لم يلتقيا منذ عشرين سنة، وكان السنّ قد تقدّم بهما معًا. "هل تغيّرت كثيرًا؟" سألت، فأجابها بالنّفي. ورغم أن جوابه كان كاذبًا، فهو لم يكن كذلك تمامًا، لأنّ هذه الابتسامة المتكتّمة (التي تعبّر باحتشام وتواضع عن حيوية خالدة) كانت تصله حتّى الآن من دون تغيير عبر مسافة سنوات، فكانت تقلقه: لأنّ هذه الابتسامة تذكّره بوضوح بمظهر هذه المرأة القديم حتّى

إنه اضطر إلى بذل جهد من أجل نسيان تلك الابتسامة، ورؤيتها كما هي في الحاضر: كانت امرأة تشارف على الشيخوخة.

سألها عن المكان الذي تقصده، وعن مسعاها، فأخبرته بأنّها جاءت لقضاء بعض الحاجيات، وأنّه لم يبق أمامها إلا انتظار القطار الذي سيعيدها إلى براغ في المساء. وعبّر لها عن سعادته الكبيرة بلقائهما غير المتوقّع. وبما أنّهما أجمعا (عن حقّ) على أن الحانتين القريبتين كانتا قذرتين ومكتظّتين، فقد دعاها إلى شقّة صغيرة غير بعيدة حيث بإمكانه أن يعدّ لها الشاي أو القهوة، لا سيّما وأنها شقّة نظيفة وهادئة.

2

بدأت يومها بشكل سيئ. ذلك أنّ زوجها (الذي عاشت معه هنا ردحًا من الزمن في بداية زواجهما قبل ثلاثين سنة، ثم استقرّا في براغ حيث مات قبل عشر سنوات) مدفون في مقبرة هذه المدينة الصغيرة، نزولاً عند رغبة غريبة عبّر عنها في وصيته الأخيرة. وكانت قد حصلت على إجازة لدفنه هناك لمدة عشر سنوات. وقد انتبهت منذ أيام إلى أنّها نسيت تجديدها وأنّ الأجل كان قد فات. قرّرت في البداية مراسلة إدارة المقبرة، لكنّها عندما تذكّرت أنّ مراسلة الإدارة عملية لا نهاية لها، وغير مجدية، جاءت إلى هنا.

ورغم أنّها كانت تعرف الطريق المفضية إلى قبر زوجها عن ظهر قلب، فقد تهيّأ لها ذلك اليوم كما لو أنّها تزور المقبرة لأوّل مرّة. لم تستطع الاهتداء للقبر، وظنّت أنّها ضلّت الطريق إليه،

لكنّها فهمت في النهاية: فحيث كان يوجد نصب صلصالي مكتوب عليه اسم زوجها بحروف مذهّبة، رُفعت الآن (وهي متأكّدة من معرفة المكان اعتمادًا على القبرين المجاورين له) شاهدة من رخام أسود خُطّ عليها بحروف مذهبة اسم لا تعرفه.

سارعت إلى مكتب إدارة المقبرة مشوّشة البال، فقيل لها إنّه عند انتهاء مدّة الرّخصة، تصفّى القبور بشكل تلقائي. أخذت عليهم عدم تبليغها بوجوب تجديد الرخصة، فأجابوها بأنّهم لا يتوفرون على المساحة الكافية في المقبرة، وأنّ على الموتى القدامى أن يتركوا مكانهم للموتى الجدد. شعرت بالسخط، وقالت لهم وهي تغالب دموعها أنّهم لا يقدّرون الكرامة الإنسانية، ولا يحترمون الآخرين، لكنّها لم تلبث أن اقتنعت بلا جدوى الحديث إليهم. فكما أنها عجزت عن ردّ الموت عن زوجها، فهي الآن عاجزة أمام موته الثاني، موت ميّت قديم لا يملك حتّى الحقّ في الوجود كميّت.

عادت نحو وسط المدينة، وسرعان ما امتزج حزنها بالقلق، لأنّها كانت تتساءل كيف ستشرح لابنها اختفاء قبر أبيه، وكيف ستعتذر له عن إهمالها. ثم حلّ التّعب: لم تكن تعرف كيف ستمضي الساعات الطويلة التي تفصلها عن موعد القطار الذي سيقلّها إلى براغ، ذلك أنّها لم تعد تعرف أحدًا هنا، ولم تكن لها الرغبة حتّى في القيام بجولة للترويح عن نفسها. فالمدينة تغيّرت على مرّ السنين بحيث صارت بعض الأماكن التي كانت مألوفة لديها غريبة عنها. لهذا قبلت بامتنان دعوة صديق قديم التقته صدفة (وبالكاد تذكّرته): وتمكّنت إثر ذلك من غسل يديها

في الحمام، والجلوس على أريكة وثيرة (وكانت قدماها تؤلمانها)، وتتفحّص الغرفة وهي تنصت عبر الجدار الفاصل بين قاعة الجلوس والمطبخ لصوت غليان الماء.

3

كان قد أتمّ مؤخرًا الخامسة والثلاثين، ولاحظ فجأة أن شعره بدا متناثرًا على الجزء العلوي من رأسه. لم يكن قد أصيب بالصلع تمامًا، لكن ذلك كان باديًا (إذ كانت جلدة رأسه بارزة من خلال الشعر): كان شيئًا وشيكًا ومحتومًا. من الأكيد أنّه من التافه أن يجعل من فقدان شعره مشكلة حيويّة، لكنّه لم ينتبه إلى أنّ الصلع كان يغيّر وجهه، وأنّ حياة مظهر من مظاهره (قد يكون الأفضل في ما يبدو) تشارف على النهاية.

تساءل عن نتيجة هذه الشخصية (ذات الشعر) الآخذة في التلاشي شيئًا فشيئًا، وعمّا عاشته فعلاً، وما استمتعت به من مباهج، فلاحظ مذهولاً أنّ تلك المباهج كانت ضئيلة. كانت هذه الفكرة كافية لتجعله يحمرّ خجلاً. أجل، كان يشعر بالخزي: لأنه من المخزي أن يعيش المرء كلّ هذا العمر ويكون حظّه من مباهج الحياة بهذه الضآلة.

ماذا كان يقصد بالتحديد لما كان يقول إنّ حظه من الحياة قليل؟ أكان يقصد الأسفار أو العمل أو الحياة العامة أو الرياضات أو النساء؟ كان يقصد بالتأكيد كل ذلك، لكنّه كان يقصد في المقام الأول النساء، لأنّ كون حياته فقيرة في المجالات الأخرى لم يكن يعذّبه إلا قليلاً، ولم يكن يستطيع أن

يعتبر نفسه مسؤولاً عن ذلك الفقر: فليس تقصيرًا منه إن كانت مهنته ليست ذات بال، ولا أفق لها؛ وهو ليس مسؤولاً إن لم يكن السفر متاحًا له، وأنّه لا يملك المال ولا مصادقة هيئة الموظفين؛ ليس الخطأ خطأه إن كان أصيب في الغضروف المفصلي وهو ابن العشرين، فانقطع عن ممارسة رياضته المفضّلة. وفي المقابل كانت تتوفّر له في مجال النساء حرية نسبيّة، بحيث لا يمكن أن يتذرّع فيه بأيّ ذريعة. كان بمقدوره أن يثبت فيه وجوده، وأن يظهر ثراءه. وصارت النساء بالنسبة إليه المعيار الوحيد الثابت لقياس الكثافة الحيوية.

لكنّه لم يكن محظوظًا! ذلك أن علاقاته بالنساء لم تكن أبدًا على أحسن ما يرام: فإلى حدود الخامسة والعشرين من عمره (رغم وسامته)، كان الخجل يشلّه. ثمّ عشق وتزوّج، وعلى مدى سبع سنوات، ظلّ يقنع نفسه بأنّ امرأة واحدة يمكن أن تحقّق له لانهائية الشهوة الشبقيّة، ثم طلّق، فأفسح الدفاع عن الزواج الأحادي (وهم اللانهائية) المكان لاشتهاء بهيج وجريء للنساء (لمحدودية وفرتهنّ المبرقشة). لكن هيهات، فقد كان يحدّ من اندفاع هذه الشهوة وهذه الجرأة وضعه المادي المأزوم (إذ كان عليه أن يدفع النفقة لطليقته عن طفلهما الذي لم يكن مسموحًا له برؤيته إلا مرّة في الشهر أو مرّتين)، وكذا شروط الحياة في مدينة صغيرة كان فيها فضول الجيران الكبير لا تعادله إلا ندرة النساء المتوفّرات.

ثمّ مرّ الوقت سريعًا، ووجد نفسه أمام المرآة البيضاوية المعلّقة فوق مغسلة الحمام وهو يمسك في يده اليمنى مرآة

صغيرة مدوّرة، يرفعها خلف جمجمته وهو ينظر مذهولاً إلى صلعته الناشئة. وفهم دفعة واحدة (من دون أي تحضير) الحقيقة المبتذلة: لا مجال لاستدراك ما فات. منذ ذلك الحين صار يعاني من تكدّر مزاج مزمن، بل صار يفكّر في الانتحار. بطبيعة الحال (وهو أمر تنبغي الإشارة إليه حتّى لا يعدّ هستيريًا أو أحمق): كان واعيًا بما تحمله هذه الأفكار من هزل وأنه لن يقدم أبدًا على تنفيذها (كان هو نفسه يضحك من فكرة رسالة الوداع: لن أقبل أبدًا بأن أكون أصلع: الوداع !)، ولكن حسبه أن تكون هذه الأفكار قد راودته. لنحاول أن نفهمه: كانت هذه الأفكار تراوده مثلما تراود عدّاء الماراتون رغبة لا تقاوم في الانسحاب عندما يلاحظ في منتصف السباق أنّه على وشك أن يخسر (وممّا يزيد الطين بلّة أنّ يكون ذلك بسبب أخطائه). لقد كان هو أيضًا يعتبر نفسه خاسرًا في السباق، فلا يجد الرغبة من ثمّة للاستمرار في العدو.

وها هو الآن ينحني على الطاولة الصغيرة ليضع فنجان القهوة أمام الأريكة (التي سيجلس عليها) والآخر أمام المقعد الوثير الذي جلست عليه الضيفة، وقال في نفسه إنّه لمن قساوة القدر أن يلتقي هذه المرأة -التي هام بحبّها في الماضي، والتي أفلتت منه (جراء أخطائه)- في لحظة هو فيها مكدّر المزاج، ويستحيل فيها أيضًا استدراك ما فات.

4

ما كان في الإمكان أن يخطر على بالها أنّها كانت في نظره تلك التي تركها تفلت منه. إنّها لا تزال تذكر قطعًا الليلة التي

قضياها معًا، ولا تزال تذكر هيئته آنذاك (كان في العشرين من العمر، ولم يكن يعرف كيف يلبس، وكان يحمرّ خجلاً، ويسلّيها بأساليبه الصبيانية). وهي تذكر أيضًا المرأة التي كانتها آنئذ (كانت قد جاوزت الأربعين، وكان تعطّشها للجمال يلقي بها بين أحضان رجال غرباء، لكنّها سرعان ما كانت تتخلّى عنهم، لأنّها طالما اعتقدت بأنّ حياتها ينبغي أن تشبه رقصة بديعة، وكانت تخشى أن تتحوّل خياناتها الزوجية إلى عادة مقرفة).

أجل، لقد كانت تلزم نفسها بالجمال مثلما يلزم آخرون أنفسهم بواجب أخلاقي. فلو أنّها لاحظت القبح في حياتها الخاصة، لكانت استسلمت لليأس. وبما أنّها أدركت أنّ مضيفها ربّما لاحظ شيخوختها بعد خمس عشرة سنة (بكل ما ينطوي عليه ذلك من قبح)، فقد سارعت إلى أن تعرض أمامه مروحة وهميّة، وعمدت إلى إنهاكه بالأسئلة: شاءت أن تعرف كيف حلّ في تلك المدينة، واستفسرته عن عمله، وأثنت على شقّته التي وجدتها في غاية الروعة، بإطلالتها على سقوف المدينة (قالت إنّ هذا المنظر ليس فيه بالطبع أي شيء استثنائي، لكنّه يعطي الإحساس بالانفتاح والحرية). واستعرضت أسماء بعض مستنسخي اللوحات الانطباعية المؤطّرة (ولم يكن الأمر صعبًا، لأنّ النسخ الرخيصة نفسها توجد بالتأكيد عند معظم المثقفين التشيكيين المعدمين)، ثم قامت وهي تحمل فنجانها في يدها، وانحنت على المكتب الصغير الذي صُفت فوقه بضع صور فوتوغرافية داخل إطار (ولاحظت أنّ لا وجود بينها لأيّ صورة لامرأة شابة) فسألته عمّا إذا كان وجه المرأة العجوز الموجود بين الصور هو وجه أمّه (فهزّ رأسه موافقًا).

بعد ذلك سألها عن الأغراض التي جاءت لتسويتها، كما أخبرته لحظة لقائهما. لم تكن ترغب في الحديث عن المقبرة (هنا، في الطابق الخامس من هذه البناية، كانت تشعر كما لو أنّها معلّقة عاليًا فوق الأسقف. وما زاد هذا الشعور روعة، هو إحساسها كما لو كانت تشرف على حياتها من أعلى)، لكنّ إصراره جعلها تعترف (وإن كان ذلك باختزال شديد، لأنّها لم تعتد على الصراحة المفرطة) بأنّها استقرت في هذه المدينة في الماضي، وأن زوجها دفن هنا قبل سنوات عديدة (ولم تذكر شيئًا عن اختفاء القبر)، وأنّها تأتي إلى هنا مع ابنها في عيد القديسين من كلّ عام.

5

"كلّ عام؟" أحزنه هذا الاكتشاف، وفكّر من جديد في قساوة القدر. فلو أنّه صادفها قبل ستّ سنوات، لما حلّ بهذه المدينة، فقد كان كلّ شيء ممكنًا آنئذ: لن تكون السنون قد طبعتها بعد إلى هذا الحدّ، ولن تكون مختلفة إلى هذا الحدّ عن المرأة التي عشقها قبل خمس عشرة سنة، ولكان بوسعه أن يتجاوز الاختلاف، ولاستطاع أن يدرك الصورتين (الصورة الحالية وصورة الماضي) كما لو كانتا صورة واحدة. لكنّ الصورتين متباعدتان الآن بشكل يدعو لليأس.

كانت قد فرغت من شرب فنجانها وهي تتحدّث، وكان هو يجهد ذهنه لكي يحدّد بالضبط مدى ذلك التحول الذي سيجعلها تفلت منه للمرة الثانية: كان الوجه متغضّنًا (وهو ما تحاول أن

تخفيه -عبثًا- عدة طبقات من البودرة)، وكان العنق ذابلاً (وهو ما كانت تحاول إخفاءه عبر ياقة عالية، لكن بلا جدوى). وكانت الوجنتان متدليتين، والشعر علاه المشيب (وإن كان يبدو جميلاً إلى حد ما!)؛ لكنّ ما أثاره أكثر هو اليدان (اللذان لم تستطع البودرة ولا الأحمر تجميلهما): فشبكة الأوردة الزرقاء التي ترتسم عليهما تكاد تظهرهما مثل يدي رجل.

امتزج بداخله الندم بالغضب. شعر بالرغبة في الكحول لكي ينسى أنّ هذا اللقاء جاء متأخّرًا جدًّا. سألها إن كانت ترغب في كأس من الكونياك (إذ كان يحتفظ بزجاجة في الخزنة خلف الجدار الفاصل)، فأجابته بالنفي، وتذكّر أنّها لم تكن تشرب تقريبًا منذ خمس عشرة سنة، مخافة أن يحرمها الكحول ربّما من اعتدال الذوق السليم. ولمّا رأى الإيماءة الفاتنة التي أنجزتها يدها وهي تعبّر عن رفض العرض، أدرك أنّ سحر الذوق السليم هذا، هذا الإغواء، هذه الرشاقة التي فتنته، ظلّت هي نفسها، رغم تخفّيها خلف قناع الشيخوخة، وأنّها احتفظت بألقها، حتّى خلف شباك حديد.

لمّا قال في نفسه إن هذا الشباك الحديد هو شباك الشيخوخة، أحسّ نحوها بشفقة عظيمة، وقرّبتها (هذه المرأة التي كانت باهرة في الماضي، والتي كانت تصيبه بالخرس) هذه الشفقة إليه أكثر، وتاق إلى أن يحدّثها طويلاً كما يحدّث صديق صديقته، في جوّ أزرق خال من الكآبة. ومضى من ثمّة يتحدث بطلاقة ملمّحًا في النهاية إلى تلك الأفكار المتشائمة التي تحاصره منذ مدّة قصيرة. لم يقل شيئًا بالطبع عن صلعته الناشئة (مثلما لم

تتحدث هي عن القبر الذي اختفى). واستحالت رؤية الصلع إلى جمل شبه فلسفية حول موضوع الزمن الذي يجري أسرع من أن يستطيع الإنسان مواكبته، وحول الحياة المحكومة بحتميّة التحلل؛ كما استحالت تلك الرؤية أيضًا إلى جمل مماثلة، انتظر منها أن تستجيب الزائرة بملاحظة تنمّ عن تعاطفها، لكن عبثًا.

قالت بنبرة تكاد تكون عنيفة: "لا تعجبني هذه الخطابات. كل ما قلته يتسمّ بسطحية رهيبة".

6

لم تكن تحبّذ الحديث عن الشيخوخة والموت، لأنّ هذه الأحاديث كانت تدور حول القبح الجسدي الذي تشمئز منه. ردّدت على مضيفها بما يشبه الانفعال أن أفكاره سطحية. قالت إنه لا يمكننا اختزال الإنسان في الجسد المعرّض للشيخوخة. فما يهمّ هي أفعاله وما يتركه للآخرين. ولم تكن هذه حجّة جديدة تستعملها للمرّة الأولى، فقد لجأت إليها قبل ثلاثين سنة، عندما تعلّقت بمن سيصير زوجها، والذي كان يكبرها بتسع عشرة سنة. لم تكفّ يومًا عن الوفاء لاحترامه بصدق (رغم خياناتها التي لم يكن يعلم عنها شيئًا، أو كان يتحاشى أن يعلم عنها شيئًا)، وأجهدت نفسها لكي تقتنع بأنّ ذكاء زوجها ودوره يعوضانها عبء تلك السنوات.

ردّ بنبرة مريرة: "عن أيّ أفعال تتحدّثين؟! أيّ أفعال ينبغي أن نترك!"

لم ترغب في ذكر زوجها الفقيد رغم اقتناعها بالقيمة

المستديمة لما ترك. واكتفت بالقول إن كلّ إنسان في هذه الحياة الدنيا ينجز عملاً مهما كان متواضعًا، وهذا وحده هو ما يحدّد قيمته. ومضت تتحدّث عن نفسها بطلاقة، وعن عملها في إحدى دور الثقافة الواقعة بضواحي براغ، وعن المحاضرات والأمسيات الشعرية التي تنظّمها هناك. كانت تتحدّث (بتشدّق بدا له غير لائق) عن "وجوه الجماهير الممتنّة"، ثم قالت إنه من الرائع أن يكون للمرء ابن، وأن يرى ملامحه (التي تشبهه) تتحوّل شيئًا فشيئًا لتصير وجه رجل، وأنّه من الرائع منحه كل ما تستطيع أمّ أن تمنحه لابنها، وأن تمحو بهدوء أثرها من حياته.

لم يكن حديثها عن ابنها صدفة. فقد كان حاضرًا في كل فكرة من أفكارها، وكان يلومها على إخفاقها في المقبرة. كان الأمر غريبًا، لأنّها لم تسمح لرجل قطّ بأن يفرض إرادته عليها؛ لكنّها، ويا للغرابة، رضيت بأن ترزح تحت نير ابنها من دون أن تفهم كيف حدث ذلك. وإذا كان إخفاقها في المقبرة قد أربكها إلى هذا الحد، فلأنّها كانت تشعر بالذنب إزاءه، وكانت تخشى توبيخه. فقد كان ابنها يحرص بعناية على أن تحيي كما ينبغي ذكرى أبيه (كان هو من يحرص في عيد كل القديسين على ضرورة عدم نسيان زيارة المقبرة!)، وكانت تشتبه في ذلك منذ زمن بعيد: كانت الرغبة في اضطهاد الأمّ هي التي تملي هذا الأمر أكثر من محبة الأب الفقيد. الرغبة في جعلها تلتزم بالحدود اللائقة بأرملة محترمة. كانت هذه هي حقيقة الأمر بالرغم من أنّه لم يعترف بذلك قطّ، وبالرغم من أنّها كانت تجهد نفسها (عبثًا) لتتجاهل ذلك: كان يشمئز من أن تكون لأمّه حياة جنسية، وينظر

بامتعاض إلى أيّ شيء له صلة بالجنس يمكن أن يستمرّ فيها (حتّى ولو كان مجرّد إمكانية). وما دام الجنس يرتبط بالشباب، فقد كان ينظر بامتعاض إلى أيّ شيء فيها له صلة بالشباب. لم يعد طفلاً، ولكن شباب أمّه (المقرون بعدوانية الرعاية الأمومية) كان أشبه بعائق يحول بينه وبين شباب الفتيات اللواتي صرن يشغلنه. كان في حاجة إلى أمّ مسنّة لكي يستطيع تحمّل حبّها ويكون قادرًا على حبّها. ورغم أنّها كانت تلاحظ أحيانًا أنه يدفعها بذلك نحو قبرها، فقد انتهت بالخضوع له، والاستسلام لضغطه، بل إنها كانت تضفي على استسلامها ذاك طابعًا مثاليًا عبر إقناع نفسها بأنّ ما يضفي الجمال على حياتها هو ذلك التواري الصامت خلف حياة أخرى. وقد أضفت هذه العملية المثالية (التي من دونها كانت ستتألّم أكثر من تغضّنات محيّاها) على حديثها مع مضيفها حدّة غير متوقّعة.

لكنّ مضيفها انحنى فجأة على الطاولة الواطئة التي كانت تفصل بينهما، ومضى يداعب يدها وهو يقول: "اعذريني إن كنت قلت بعض الحماقات. أنت تعلمين أنّني كنت طول حياتي معتوهًا".

7

لم تضايقه محادثتهما، بل لم تعمل الزائرة، بخلاف ذلك، إلا على تأكيد هويّتها في نظره: فقد وجدها من خلال اعتراضاتها على أفكاره المتشائمة (لكن، ألم تكن في المقام الأول اعتراضًا على القبح والذوق الساقط؟) كما عهدها في

الماضي، إلى حدّ أنّ شخصيتها ومغامرتهما السابقة ما انفكّت تشغل أفكاره أكثر فأكثر. ولم يعد يرجو غير شيء واحد، ألا يحدث شيء يمكن أن يعكّر صفاء هذا الجوّ المؤاتي جدًّا للمحادثة (ولعلّ هذا هو ما جعله يداعب يدها ويصف نفسه بالمعتوه) فيتمكّن من مفاتحتها في شأن ما يبدو له الآن مهمًّا: مغامرتهما المشتركة. فقد كان مقتنعًا بأنّه عاش معها شئيًا بالغ الروعة هي لا تدركه. ولهذا عليه أن يبحث بنفسه عن كلمات دقيقة تعبّر عن ذلك.

لم يكن يذكر حتّى كيف تعارفا. لعلّها انضمت إلى مجموعة من أصدقائه الطلبة، عدا أنّه لا يزال يذكر تمامًا الحانة البراغية الصغيرة المتواضعة التي ضربا فيها موعدهما الأوّل: جلس قبالتها في مقعد يغطيه المخمل الأحمر، وكان مرتبكًا وصامتًا، لكنّه كان في الآن ذاته شديد الانتشاء من الإشارات الدقيقة التي كانت تعبّر له بها عن تجاوبها معه. وحاول أن يتخيّل (من دون أن يجرؤ على الأمل في تحقق هذه الأحلام) كيف ستصير لو قبّلها وعرّاها وضاجعها. أجل، كان الأمر غريبًا: لقد حاول آلاف المرات أن يتخيّلها في وضع الجماع، لكن بلا جدوى: ظلّ وجهها ينظر إليه بالابتسامة الهادئة واللطيفة نفسها، ولم يستطع (رغم إجهاد مخيلته) أن يلاحظ فيه أيّ لمحة تشير للإثارة الجنسية. كانت تتأبّى على مخيّلته.

لم يتكرّر ذلك الموقف قطّ في حياته: ألفى نفسه يواجه شيئًا مستعصيًا على التخيّل. كان قد عاش تلك المرحلة العابرة من حياته (المرحلة الفردوسية) التي تكون فيها المخيّلة ما زالت لم

تتشبع بعد بالتجربة، ولم تصبح بعد رتيبة؛ المرحلة التي يكون فيها المرء لا يزال لا يعرف ولا يدرك إلا القليل من الأشياء، وحيث يكون ذلك الشيء المستعصي على التخيّل لا يزال موجودًا. فإذا أوشك هذا الشيء المستعصي على التخيّل على الاستحالة إلى واقع (من دون وساطة ما هو قابل للتخيّل، ومن دون وساطة الصور)، يتملّك المرء الذعر ويصاب بالدوار. وقد أصابه الدوار فعلا عندما راحت تسأله بتفصيل وبفضول بليغ، بعد لقاءات عديدة لم يستطع أن يحسم فيها أمره، عن الغرفة التي يشغلها في الحي الجامعي، وهي تكاد تجبره على دعوتها.

كان يقتسم غرفة الحي الجامعي مع رفيق له. وكان قد تواطأ معه على ألا يعود تلك الليلة قبل منتصف الليل مقابل أن يمنحه كأس شراب. ولم تكن تلك الغرفة تشبه في شيء الغرفة الحالية: سريران معدنيان وكرسيان وخزانة، مصباح كهربائي ساطع من دون أباجورة، وفوضى عارمة. رتّب الغرفة، وعند السابعة (وكانت دقيقة في مواعيدها، وهو ما يشكل جزءًا من أناقتها) طرقت الباب. كانا في شهر أيلول (سبتمبر)، وكان الليل يخيّم ببطء. جلسا على حافة السرير المعدني، وشرعا يتبادلان القبل. إثر ذلك بدأت الغرفة تظلم أكثر فأكثر، ولم يشأ إشعال النور، لأنّه كان سعيدًا بكونها غير قادرة على رؤيته. وكان يأمل في أن تخفّف الظلمة من الارتباك الذي سيتملكه حين سيتعرّى أمامها (فهو وإن كان خبيرًا إلى حدّ ما في فكّ أزرار قمصان النساء، فإنه كان يتعرّى أمامهنّ بعجلة محتشمة). لكنه هذه المرّة تردّد طويلاً قبل أن يشرع في فكّ أوّل زرّ من أزرار ثوبها (كان يقول

في نفسه إن الشروع في تجريد المرأة من ملابسها ينبغي أن يكون على قدر من الرشاقة واللطف بحيث لا يقوى عليها إلا المحنّكون من الرجال، وخشي افتضاح قلّة تجربته)، حتّى إنها قامت من تلقاء نفسها وسألته وهي تبتسم: "ألا يجدر بي أن أنزع عنّي هذا الدرع؟...". وشرعت في التجرّد من لباسها. غير أن الغرفة كانت مظلمة، ولم يكن يرى سوى ظلال حركاتها. تعرّى بسرعة، ولم يشعر بشيء من الاطمئنان إلا حين شرعا في الجماع (وهذا بفضل مِا تحلّت به من صبر). كان ينظر إلى وجهها، ولكنّه لم يتمكّن من رؤية تعابيره في العتمة، بل لم يستطع حتّى تمييز قسماتها. أسف على عدم إشعال النور، وقدّر أنّه يستحيل عليه الآن النهوض لإشعال النور، فاستمرّ إذًا في إجهاد عينيه بلا جدوى: لم يكن يميّزها. كان يتهيّأ له أنه يجامع شخصًا آخر، شخصيّة زائفة، مجرّدة، ولا كيّان لها.

إثر ذلك جلست فوقه (وحتّى في تلك اللحظة، لم يكن يرى منها سوى ظلّها المنتصب)، ثم غمغمت له شيئًا بصوت مخنوق وهي تموّج خصرها، ولكن كان من المتعذّر معرفة ما إذا كانت تقول ذلك له أو لنفسها. لم يتمكّن من تمييز الكلمات، فسألها عمّا تقول. استمرّت تهمس، وحتّى لمّا ضمها إليه من جديد، لم يستطع فهم كلامها.

8

كانت تنصت إلى مضيفها وافتتانها يتزايد أكثر فأكثر بما يورده من تفاصيل كانت قد نسيتها منذ زمن بعيد: تلك البدلة

الزرقاء المصنوعة من القماش الصيفي الخفيف على سبيل المثال، التي جعلتها، على حدّ قوله، أشبه بملاك مقدّس (أجل، تذكّرت تلك البدلة)؛ أو ذلك المشط الصدفي الضخم الذي كانت تضعه في شعرها، والذي كان يضفي عليها، كما كان يقول، نبلاً راسخًا لسيدة عظيمة؛ أو تلك العادة التي درجت عليها في الحانة حيث كانا يلتقيان، إذ كانت تطلب دائمًا شايًا بالروم (وهي خطيئتها الكحولية الوحيدة). كلّ هذا نأى بها بعيدًا عن المقبرة، وعن القبر الذي اختفى، وبعيدًا عن الساقين المؤلمتين ، وعن دار الثقافة، وبعيدًا عن عيني ابنها اللائمتين. ومضت تفكّر: آه، رغم ما أنا فيه هذه اللحظة، فحياتي لم تذهب سدًى إذا ما استمرّ شيء من شبابي حيًّا في ذاكرة هذا الرجل. ثم قالت بعد ذلك إنّ هذا تأكيد آخر لرأيها: إنّ قيمة الكائن البشري رهينة بقدرته على تجاوز قدراته، على أن يوجد خارج ذاته، على أن يوجد في غيره ومن أجل غيره.

كانت تنصت له، ولم تعترض على مداعبته ليدها بين الفينة والأخرى. فقد كانت هذه الحركة تناسب جو المحادثة الحميمي، وانبعث منها غموض لطيف (لمن كانت تتوجه تلك الحركة؟ أهي موجّهة لمن كان يتحدّث عنها؟ أم لمن كان يتحدّث إليها؟). ومهما يكن، فمن كان يداعبها يروقها، بل لقد قالت في نفسها إنه يعجبها أكثر من الشاب الذي كانه قبل خمس عشرة سنة، ذلك الشاب الذي كانت حداثته، إن كانت لا تزال تذكرها، مرهقة.

ولمّا بلغ في حكايته إلى اللحظة التي كان فيها ظلّها منتصبًا

فوقه، والتي كان يحاول فيها عبثًا فهم كلامها، توقّف برهة، فسألته هي (بسذاجة كما لو كان يعرف هذا الكلام، ويريد بعد كل تلك السنين أن يذكّرها به كسرّ منسي) بهدوء: "وماذا كنت أقول؟".

9

أجاب: "لست أدري". وفعلاً لم يكن يدري؛ ذلك أنها لم تكن تتأبّى على خياله فحسب، بل وعلى حواسّه أيضًا: على بصره وعلى سمعه. ولما أُضيء النور في غرفة الحي الجامعي الصغيرة، كانت قد ارتدت ملابسها ثانية، وكان كل شيء عليها أملس باهرًا وكاملاً. وراح يبحث عبثًا عن العلاقة بين هذا الوجه المتألّق والوجه الذي كان يتخيّله في الظلمة لحظات قبل ذلك. كانا ما زالا لم يفترقا بعد تلك الليلة حين راح هو يسترجع ذكراها: أجهد ذهنه لكي يتذكر كيف كان وجهها (المحجوب بالظلمة) وجسدها (المخفي بالعتمة) قبل لحظات خلال الجماع، لكن عبثًا. فقد كانت لا تزال تستعصي على خياله.

عاهد نفسه على أن يضاجعها في المرة القادمة في النور، لكن لم تتح له مرة قادمة. كانت تتجنّبه بلباقة وأدب، فاستسلم للشكّ واليأس: فقد مارسا الجنس جيّدًا بلا شك، لكنّه يعلم أيضًا إلى أي حدّ كان ذلك مستحيلاً من قبل، وتملّكه الشعور بالخزي. كان يلوم نفسه على تفاديها إيّاه، ولم يجرؤ على الإلحاح على لقائها.

"أخبريني لماذا كنت تتجنّبينني؟".

أجابته بصوتها اللطيف: "أرجوك. لقد مضى زمن طويل على ذلك، فماذا عساني أقول؟". وأمام استمراره في الإلحاح، قالت: "لا تنبغي العودة إلى الماضي. فحسب المرء أن يخصّص له كل هذا الوقت مكرهًا!"، قالت هذا لكي تخفّف من إلحاحه (وعادت بها هذه الجملة التي نطقتها وهي تتنهّد إلى زيارتها الأخيرة للمقبرة)، لكنّه تأوَّلَ كلامها بكيفية أخرى: كما لو أنها قصدت من تلك الجملة إفهامه بغتة (وهو أمر واضح) أنّ ليس ثمة امرأتان (المرأة الراهنة والمرأة السابقة)، بل امرأة واحدة، وأن هذه المرأة التي أفلتت منه قبل خمس عشرة سنة شاخصة أمامه، وأنها في متناول يده.

قال بنبرة معبّرة وهو يحدّق في وجهها الباسم وقد برز من خلال شفتيه المنفرجتين صفّ من الأسنان: "أنت محقّة، الحاضر هو الأهمّ"، وفي هذا اللحظة برقت في ذهنه ذكرى: في ذلك المساء بغرفة الحي الجامعي، تناولت أصابعه ووضعتها في فمها وعضتها بشدة إلى حدّ أن ذلك آلمه، وخلال ذلك راح يجسّ فمها من الداخل. وهو لا يزال يذكر هذا بجلاء: فمن جهة تنقصها بعض الأضراس في الجزء الخلفي من فمها (وهو أمر لم يشعره حينئذ بالنفور، بل على العكس من ذلك، كان هذا العيب يتناسب مع سنّ شريكته، وهي السن التي كانت تجذبه وتثيره). لكنه الآن، وهو ينظر إلى الفتحة المنفرجة بين الأسنان وإلى زاوية الفم، استطاع أن يلاحظ أن الأسنان كانت شديدة البياض، ولا ينقصها أيّ سن، فساءه ذلك: ومرّة أخرى كانت الصورتان تنفصل إحداهما عن الأخرى، لكنّه لم يشأ الاعتراف بذلك. كان

يتوق إلى أن يقرن بينهما من جديد بالقوة والعنف، فقال: "ألا ترغبين حقًّا في كأس من الكونياك؟". وبما أنها رفضت عبر ابتسامة فاتنة وهي ترفع حاجبيها قليلاً، اختفى هو خلف الجدار الفاصل، وأخرج زجاجة كونياك فوضعها على فمه، وشرب بسرعة. ثم قال في نفسه إنها قد تكتشف، من خلال نفَسه، ما فعل خلسة. تناول قدحين والزجاجة، وحملها إلى الغرفة، ومن جديد حرّكت رأسها، فقال لها: "رمزيًا على الأقل"، وملأ القدحين. قرع قدحه بقدحها: "حتّى لا أتحدّث عنك إلا في الحاضر!"، وأفرغ قدحه، في حين بللت هي شفتيها، ثم جلس بجانبها على حافة المقعد وأمسك بيديها.

10

لم تكن تتوقّع حين دعاها إلى شقّته أن يحدث مثل هذا الاتصال، وهو ما جعلها ترتعد على الفور، كما لو أنّ هذا الاتصال حدث قبل أن يتوفر لها الوقت للاستعداد له (ذلك أنها فقدت منذ زمن بعيد حالة الاستعداد الدائم هذه التي تعرفها المرأة الناضجة) (قد نميّز في هذا الرعب شيئًا شبيهًا بالرعب الذي يتملّك الشابة المراهقة حين تتلقّى أوّل قبلة في حياتها، لأن المراهِقة إن كانت لا تزال غير مستعدّة، وإذا كانت هي أيضًا، أي الزائرة، لم تعد مستعدة، فإن هذه الـ"لا تزال" وهذه الـ"لم تعد" مترابطتان بصورة غامضة مثلما ترتبط الطفولة بالشيخوخة). بعد ذلك أجلسها على الأريكة، وضمّها إليه، وداعب كل جسدها، فشعرت بأنّها رخوة بين ذراعيه (أجل، رخوة: لأنّ

جسدها فقد منذ زمن بعيد هذه الشهوانية الجامحة التي كانت تبعث في عضلاتها إيقاع التقلصات والارتخاءات وكذا مئات التفاعلات مع المؤثرات الخارجية الرهيفة).

لكن مداعباته سرعان ما بدّدت ارتعاب الوهلة. ورغم بعد المسافة التي تفصلها عن المرأة الجميلة الناضجة التي كانتها في الماضي، فإنها تعود الآن بسرعة فائقة لتحلّ في ذلك الكائن المفقود، وتعثر في حساسيته ووجدانه على ثقة العشيقة الخبيرة السابقة. وبما أنها لم تشعر بمثل هذا الثقة منذ مدة طويلة، فإنها تحسّ بها الآن أشدّ من أيّ وقت مضى. فجسدها الذي كان قبل برهة مذهولاً ومرتعبًا، سلبيًا ورخوًا، دبّ فيه النشاط، وصار الآن يستجيب بواسطة مداعباته الخاصة، وهي تشعر بدقة تلك المداعبات وبراعتها، وهو ما غمرها بالسعادة. فقد ألفت هذه المداعبات، وكذا الطريقة التي تضع بها وجهها على جسده، والحركات الدقيقة التي يستجيب بها صدرها للعناق، استعادت كلّ هذا ليس كشيء لُقِّنِتْهُ، كشيء كانت تعرفه وتنفّذه الآن برضا فاتر، بل كشيء أساسي بالنسبة لها، تتماهى معه في السكر والنشوة، كما لو أنّها عادت لقارّتها المألوفة (قارّة الجمال!)، التي طردت منها، والتي تعود إليها ممجّدة.

إنّ ابنها الآن بعيد للغاية، لكن ما إن احتضنها مضيفها حتّى رمقته في زاوية من زوايا ذهنها وهو يؤنبها، ثم اختفى بسرعة. وها هي الآن، لا يوجد على مدى مائة ميل حولها غيرها والرجل الذي يداعبها ويضمّها إليه. لكنه عندما وضع فمه على فمها، وأراد أن يباعد بلسانه ما بين شفتيها، تغيّر كل شيء:

عادت إلى الواقع. ضغطت أسنانها بقوة (وشعرت بطقم أسنانها يلتصق بحنكها، وأحسّت كما لو أنه يملأ فمها)، ثم دفعته عنها بلطف: "كلا، أرجوك حقًّا، أرجوك، لا تفعل هذا."

وحين تمادى في إلحاحه، سحبته من معصميه وهي تكرّر رفضها، ثم قالت له (وكانت تتحدّث بضيق، وكانت تدرك أنّ عليها أن تتكلّم إن أرادته أن يطيعها): إنّ الوقت قد تأخر على الجماع، وذكّرته بسنّها، وقالت إنّهما لو مارسا الجنس، فلن يشعره ذلك نحوها إلا بالقرف، وهو ما سيحزنها، لأن ما قاله لها عن مغامرتهما في الماضي كان جميلاً للغاية ومهمًّا بالنسبة إليها. كان جسدها ميّتًا ومحطّمًا، لكنّها كانت تدرك حينئذ أن شيئًا ما غير مادي بقي منه، شيئًا شبيهًا بشعاع ما زال يلمع بالرغم من خبوّ نجمته. ولم يعد يعنيها أن تشيخ إن ظلّ شبابها سليمًا وحاضرًا في كائن آخر. وقالت له مدافعة عن نفسها: "لقد أقمت لي نصبًا تذكاريًا في ذاكرتك، فلا ينبغي أن نسمح بهدمه. افهمني، ليس من حقّك، ليس من حقّك أن تفعل هذا".

11

أكد لها أنّها لا تزال جميلة، وأنّ لا شيء تغيّر فيها، وأنّ المرء يبقى دائمًا هو نفسه، لكنّه كان يعلم بأنّه يكذب، وأنّها محقة في ما قالت: هو يعلم جيّدًا حساسيته المفرطة نحو الأمور المتعلقة بالجسد، واشمئزازه المتعاظم مع السنين من عيوب الجسد الأنثوي، والذي صار يدفعه في السنوات الأخيرة نحو نساء أصغر فأصغر. وما كان يلاحظه من ثمّة بمرارة هو أنّ

فراغهن وغباءهن يتزايد أكثر فأكثر. أجل، لا يمكن أن يساوره شكّ في ذلك: فلو أقنعها بممارسة الجنس معه، لأصيب في نهاية المطاف بالاشمئزاز، وهو اشمئزاز لن يدنّس اللحظة الحاضرة فحسب، بل سيدنّس كذلك صورة امرأة عشقها منذ فترة طويلة، صورة لطالما صانها في ذاكرته كجوهرة.

كان يعلم كلّ ذلك، وكلّ ذلك لم يكن سوى أفكار، والأفكار لا سلطة لها أمام رغبة لم تكن تعرف إلا شيئًا واحدًا: المرأة التي عذّبته من دون معنى ومراوغتها طوال خمس عشرة سنة هي موجودة هنا. لقد تأتّى له أخيرًا أن يراها في الضوء الساطع، وسيتمكّن أخيرًا من فكّ رموز جسدها الماضي من خلال جسدها الراهن، وفكّ رموز وجهها الماضي من خلال وجهها الراهن. سيتمكّن أخيرًا من اكتشاف حركاتها الجنسية المتعذّرة على التصوّر وكذا تشنّجها الجنسي المتعذّر على التصوّر أيضًا.

وضع يديه على كتفيها وحدّق في عينيها: "لا تمانعي، لا معنى للمقاومة".

12

لكنّها هزّت رأسها مدركة أن مقاومته ليست عبثًا. فقد كانت تعرف الرجال وتصرفاتهم مع الجسد الأنثوي. كانت تعرف أنّ حتّى أكثر حماسة الحبّ مثالية، لا تستطيع أن تنزع عن سطح الجسد سلطته الرهيبة. من المؤكّد أنّها كانت لا تزال تملك قوامًا مناسبًا تمامًا، بأبعاده الأصلية، وأنّها لا تزال تملك مظهرًا شابًا تمامًا، لا سيما حين تكون بكامل هندامها. لكنها كانت تعلم أنّها

إن تعرّت، فستنفضح تجاعيد عنقها، وتنكشف ندبة العملية الجراحية التي أجريت لها بالمعدة قبل عشر سنوات.

وبينما كانت تستعيد وعيها بمظهرها الجسدي الحالي الذي تناسته لحظات قبل ذلك، كانت الهواجس التي انتابتها في تلك الصبيحة تتصاعد من أقاصي الشارع إلى أن تبلغ نافذة الشقّة الصغيرة (تلك الشقّة التي كانت تظنها عالية بما يكفي لكي تحميها من حياتها)، فتملأ الغرفة، وتستقرّ على اللوحات المؤطّرة وعلى الأريكة والطاولة، وعلى فنجان القهوة الفارغ، وكان وجه ابنها يقود هذا الموكب، فما إن أبصرته حتّى امتقع لونها وراحت تبحث عن ملاذ في مكان ما من أعماقها: فقد كاد جنونها يحيد بها عن الطريق التي رسم لها، والتي اتبعتها حتّى اللحظة بابتسامة وبكلمات مفعمة بالحماسة. كانت ترغب (ولو لفترة وجيزة) في الفرار، وها هي تعود إلى طريقها مستكينة، مُقِرّة بأنه الطريق الوحيد الذي يناسبها. كان وجه ابنها من السخرية بحيث أغرقها في الخزي، وأحسّت بنفسها تتضاءل أكثر فأكثر أمامه إلى حدّ أنها لم تعد، من شدّة شعورها بالعار، غير تلك الندبة المرسومة في بطنها.

كان مضيفها يمسك بكتفها وهو يردد: "لا معنى للمقاومة"، وكانت هي تهزّ رأسها، ولكن بشكل آلي تماما، لأنّ عينيها لم تكونا تبصران المضيف بل وجه الابن العدو الذي زاد كرهها له بمقدار شعورها بالضآلة والخزي. كانت تسمعه وهو يؤنّبها على القبر الذي اختفى. ومن فوضى الذاكرة، وخارج كل منطق، انبثقت هذه الجملة التي صرختها في وجهه بحنق: على الموتى القدامى أن يخلوا المكان للموتى الجدد، يا بني!

13

لم يساوره أدنى شكّ في أن هذا الأمر سينتهي بالقرف، لأن حتّى النظرة (الفاحصة واللاذعة) التي يرمقها بها الآن لم تكن تخلو من اشمئزاز. والغريب هو أنّ ذلك لم يكن يضايقه، بل كان يثيره ويهيجه كما لو أنّه يستعذب هذا الاشمئزاز: فقد تداخلت لديه لذّة القذف بلذّة التقزّز، واختلطت الرغبته في قراءة ما اضطرّ إلى تجاهله منذ زمن بعيد برغبته في تدنيس السرّ المكتشف حديثًا.

من أين جاءته هذه النزوة؟ فسواء أكان واعيًا بها أم لم يكن، فقد واتته فرصة فريدة: فالزائرة تمثّل بالنسبة إليه كلّ ما لم يتمكّن من نيله، كل ما أفلت منه، كل ما فاته، كل ما يجعل سنَّه الحالي لا تطاق، بشعره الذي بدأ يتساقط، وبهذه الحصيلة الفارغة المثيرة للشفقة. وسواء أكان واعيًا بذلك أو كان مرتابًا به على نحو غامض، ففي إمكانه الآن أن ينزع المعنى عن كلّ هذه المباهج التي طالما حُرم منها (والتي كانت ألوانُها المتألقة تجعل حياته بلا لون على نحو ميؤوس). لقد صار بوسعه أن يكتشف أنها كانت سخيفة، وأنها لم تكن غير خداع ودناءة، لم تكن غير غبار متطاير، وأن بإمكانه أن ينتقم منها، وأن يذلّها ويدمّرها.

وراح يردّد وهو يجهد نفسه لكي يسحبها إليه: "لا تقاوميني".

14

كانت ملامح ابنها الهازئة لا تزال شاخصة أمامها، فلمّا سحبها مضيفها إليه بقوّة، قالت: "أرجوك، اتركني لثانية

واحدة"، وأفلتت منه. كانت تخشى حقًّا أن تقطع حبل أفكارها: كان على الموتى القدامى أن يخلوا المكان للموتى الجدد، والنُّصب لا تصلح لشيء، وحتّى النَّصب التذكاري الذي ظل يبجله هذا الرجل الموجود إلى جوارها الآن لمدة خمس عشرة سنة، لم يعد يفيد في شيء، وكل النّصب لم تعد تفيد في شيء. هذا ما كانت تقوله لابنها في ذهنها، وراحت تنظر برضا انتقامي لوجهه الذي وجم ومضى يصرخ: "لم تتحدّثي قطّ هكذا، أماه!". كانت تعلم ذلك تمامًا، أنّها لم تتحدّث هكذا قطّ، ولكن هذه اللحظة كانت مفعمة بنور يجعل كل شيء بالغ الجلاء:

لا مبرّر لتفضيل نُصب على الحياة. فحتّى نصبها الشخصي لم يعد لوجوده إلا مبرر واحد: أنها تستطيع أن تسخّره الآن لفائدة جسدها المحتقر، لأنّ الرجل الجالس إلى جوارها يعجبها، إنّه شاب، وربّما (بل بكل تأكيد) يكون آخر رجل يعجبها وتستطيع الحصول عليه، وهذا وحده كلّ ما يعنيها. فإذا ما أشعرته بالاشمئزاز، وهدمت النصب الذي أقامه لها في ذهنه، فإنها ستهزأ من ذلك، لأنّ هذا النصب موجود خارج ذاتها، مثلما يوجد خارج ذاتها فكر هذا الرجل وذاكرته، ولا يعنيها شيء ممّا يوجد خارج ذاتها. "لم تتحدّثي قطّ هكذا، أمّاه!". كانت تسمع صراخ ابنها، لكنها لم تعره اهتمامًا، وراحت تبتسم.

"أنت محقّ، ولماذا سأقاوم؟"، قالت بهدوء ثم قامت وشرعت في فكّ أزرار سترتها. كان المساء لا يزال بعيدًا، وفي هذه المرّة كان النور يضيء الغرفة تمامًا.

الدكتور هافيل
بعد عشرين سنة

1

عندما سافر الدكتور هافيل للعلاج، بلّلت الدموع عيني زوجته الجميلة، وهي دموع شفقة بلا شك (ذلك أن هافيل كان يعاني منذ فترة قصيرة من مرض في المرارة، ولم يسبق لزوجته أن رأته يتألّم)، لكن من المؤكد أيضًا أن بُعده عنها لثلاثة أسابيع يثير في نفسها عذابات الغيرة.

ماذا تقولون؟ أكانت هذه الممثلة الجميلة المثيرة للإعجاب والأصغر منه سنًّا بكثير تغار على رجل تقدّم به العمر، وصار منذ شهور لا يغادر بيته من دون أن يضع في جيبه علبة أقراص يحتمي بها من الآلام المباغتة؟

كان الأمر هكذا مع ذلك، ولم يكن أحد يستطيع فهمها، ولا حتّى الدكتور هافيل نفسه، الذي كان يحسبها انطلاقًا من مظهرها منيعة وعظيمة. عندما بدأ يعرفها بشكل أفضل منذ سنوات، واكتشف بساطتها وميلها لملازمة البيت، لم يزده ذلك إلا افتتانًا بها. كان الأمر غريبًا: فحتّى بعد زواجهما، لم تأبه الممثلة قطّ بالامتياز الذي يضمنه لها شبابها. كانت كالمفتونة بحبّ زوجها وبسمعته الجنسية الرهيبة، والذي كان يبدو لها

مراوغًا وجامحًا. وبالرغم من أنّه كان يجهد نفسه يومًا بعد يوم لإقناعها بأناة متناهية (وبإخلاص كامل) بأن ليس لها مثيل، ولن يكون لها، فقد كانت تغار عليه بشدّة وعنف، ووحده نبلها الفطري كان يستطيع تطويق هذا الشعور السيئ الذي كانت شدّة غليانه تتعاظم في داخلها.

كان هافيل يدرك كل هذا، فيؤثّر فيه تارة، وينزعج منه أخرى. وكان قد تعب من كلّ هذا، لكن حبّه لزوجته جعله يبذل قصارى جهده لكي يخفّف عن نفسه هذا العناء. وهذه المرّة أيضًا حاول مساعدتها: كان يهوّل من آلامه ومن خطورة حالته، لأنّه كان يعلم أنّ الخوف الذي ينتاب زوجته عند التفكير في مرضه يمنحها القوّة والمواساة، في حين كانت صحته الجيّدة (المفعمة بالخيانات والمكائد) تثير هواجسها؛ ولهذا كان يركّز في أحاديثهما على الدكتورة فرانتيسكا التي ستتكفّل به خلال فترة علاجه. كانت الممثلة تعرفها، وكان تطمئنّ لمظهرها الوديع البعيد كل البعد عن الإثارة.

حين لمح الدكتور هافيل وهو في الحافلة الدموع تبلّل عيني زوجته الجميلة الواقفة على الرصيف، ساوره شعور بالارتياح، لأنّ حبّ زوجته كان لطيفًا بالتأكيد رغم كونه مرهقًا. ومع ذلك لم تكن حاله في محطة المياه المعدنية على ما يرام. فبعد أن تجرّع الماء الذي كان عليه أن يروي به جسده ثلاث مرات في اليوم، عاوده الألم، وشعر بالإعياء. ولما كان يصادف نساء جميلات في الأروقة، كان يلاحظ بارتعاب أنّه عجوز وأنهنّ لا يثرن شهوته. المرأة الوحيدة التي كان مسموحٌ له برؤيتها حتّى

التخمة هي فرانتيسكا الطيبة المكلّفة بحقنه وقياس ضغطه وجسّ بطنه، وإخباره بإسهاب عمّا يقع في محطة المياه، وعن ابنها وابنتها، ولا سيما عن الابن الذي يشبهها في ما يبدو.

كان على هذه الحالة الذهنية عندما وصلته رسالة من زوجته. يا للمصيبة! لم يستطع نبل امرأته هذه المرّة أن يطوّق الغيرة المعتملة بداخلها. كانت رسالة مليئة بالأنين والشكوى: قالت إنها لم تكن تريد مواخذته بشيء، لكنّ جفنها لم يكن يغمض في الليل. قالت إنها تعلم أن حبّها يزعجه، وأنّها تتصوّر مقدار سعادته لكونه يستطيع الخلود إلى الراحة بعيدًا منها. أجل، إنها تدرك جيّدًا مضايقتها له، وتعلم أيضًا أنها أضعف من أن تغيّر حياته التي تعبُرها دائمًا مواكب من النساء. أجل، إنّها تدرك ذلك، وهي لا تحتجّ، ولكنّها تبكي ولا تستطيع النوم...

عندما أنهى الدكتور هافيل هذه اللائحة الطويلة من التأوّهات، تذكر السنوات الثلاث العقيمة التي أجهد فيها نفسه لكي يبدو لزوجته كفاسق تائب وزوج عاشق، فشعر بسأم ويأس بالغين. طوى الرسالة بحنق، وألقى بها في سلّة المهملات.

2

شعر بحاله أفضل في اليوم التالي. لم يعد يحسّ بالألم في مرارته، وشعر بشهوة واهنة، ولكنّها واضحة، في نساء عديدات رآهن في الصباح يتنزّهن في الأروقة، لكنّ هذا التحسّن طمسه اكتشاف أخطر: كانت تلك النساء تمررن بقربه دون إيلائه أدنى اهتمام. كان بالنسبة إليهنّ يتلاشى في موكب المرضى الشاحبين من شاربي المياه المعدنية...

قالت له الطبيبة فرانتيسكا بعد أن فحصته في الصباح: "أرأيت، لقد تحسّنت حالك. احرص خصوصاً على حميتك. من حسن حظّك أنّ من تصادفهن من المريضات في الأروقة أكبر سنًّا وأسوأ صحّة من أن يثرن شهوتك، وهو أمر في صالحك، لأنّك أحوج ما تكون إلى الهدوء".

أدخل هافيل قميصه في سرواله. وقد قام بذلك وهو واقف أمام مرآة صغيرة معلّقة في زاوية فوق المغسلة، ومضى يتفرّس في وجهه بمرارة. ثم قال بحزن كبير: "إنّك مخطئة. لقد لاحظت بين العجائز المتجوّلات في الأروقة فتيات في منتهى الجمال، عدا أنهنّ لم يلتفتن إليّ حتّى.

-أستطيع تصديق كل ما تريد، ولكن ليس هذا!"، أجابت فرانتيسكا. فحوّل الدكتور هافيل عينيه عن المشهد الحزين الذي كان يراه في المرآة، وغاص ببصره في عيني الدكتورة الساذجتين والمخلصتين، وشعر نحوها بالامتنان وهو يعلم علم اليقين أنّها كانت تعبّر عن اعتقاد راسخ، اعتقاد يندرج في الدور الذي تعوّدت على إسناده له (دور كانت تستهجنه، لكن بحنان دائمًا).

ثم سُمع طرق على الباب ففتحته فرانتيسكا، وبدا منه رأس شاب وهو ينحني بأدب، فقالت: "آه، هذا أنت! لقد نسيتك تمامًا". أدخلت الشاب إلى عيادة الفحص، وشرحت لهافيل: "منذ يومين ورئيس تحرير الصحيفة المحليّة يحاول الاتصال بك".

شرع الشاب بالاعتذار بطلاقة عن الإزعاج الذي سبّبه للدكتور هافيل، وبذل قصارى جهده (بعبارة متوتّرة على نحو غير

مستحب للأسف) ليتّخذ نبرة مرحة: لا ينبغي للدكتور هافيل أن يغضب من الدكتورة لأنّها كشفت خبر وجوده هنا، فمهما يكن، كان الصحافي سينتهي باكتشاف ذلك، حتّى وهو يستحمّ في حوض المياه المعدنية إذا اقتضى الأمر. كما لا ينبغي للدكتور أن يلوم الصحافي على جرأته، لأنّ الجرأة تعدّ ميزة من الميزات التي لا غنى عنها في مهنة الصحافة، والتي من دونها ما كان له أن يكسب قوته. ثمّ تحدث بإسهاب عن المجلّة المصوّرة التي تصدرها محطّة المياه مرّة في الشهر، والتي يتضمّن كل عدد من أعدادها حوارًا مع مريض من المشاهير يتلقى العلاج هنا، وذكر على سبيل المثال أسماء عديدة من بينها اسم عضو في الحكومة واسم مغنية واسم لاعب هوكي على الجليد.

"أرأيت، قالت فرانتيسكا، إذا كنت لا تثير اهتمام نساء الأروقة، فأنت في المقابل محطّ اهتمام الصحافيين."

قال هافيل: "إنّه سقوط مريع"، لكنّه كان سعيدًا بهذا الاهتمام، وتبسَّم للصحافي ثم رفض عرضه برياء واضح بحيث بدا مؤثّرًا: "في ما يخصّني، سيدي، فأنا لست عضوًا في الحكومة ولا لاعب هوكي، ولا حتّى مغنيّة. إنّني لا أقصد بالتأكيد إلى تبخيس قيمة أعمالي العلمية، فهي تهمّ المتخصصين في المقام الأول أكثر مما تهمّ الجمهور الواسع".

أجابه الشاب بصراحة فورية: "لكنّني لم أقصد إلى استجوابك أنت، فهذا لم يخطر لي على بال. أنا أعني زوجتك. لقد بلغني أنّها ستزورك خلال فترة العلاج.

-إنّك أكثر منّي اطّلاعاً" قال الدكتور هافيل بفتور، ثم

اقترب من المرآة، وتفحّص من جديد وجهه الذي لم يرقه. زرّر ياقة قميصه وهو صامت بينما غاص الصحافي الشاب في ارتباك كبح الجرأة المهنية التي أفصح عنها باعتزاز. اعتذر للدكتورة كما اعتذر للدكتور، ولم يشعر بالارتياح إلا حين وجد نفسه خارجاً.

3

كان الصحافي على الأصح أقرب إلى الحمق منه إلى الغباء. فمجلّة محطة المياه لم تكن تروقه كثيرًا، لكن بما أنّه كان محرّرها الوحيد، فقد كان عليه أن يقوم بأيّ شيء لملء صفحاتها الأربع والعشرين كل شهر بالصور والكلمات اللازمة. وكان يتمكّن من ذلك بطريقة أو بأخرى في الصيف، لأنّ المحطة تكون مزدحمةً بضيوف من العيّار الثقيل، إذ تزورها الفرق الفنية لتقديم الحفلات الموسيقية في الهواء الطلق، كما تكثر فيها الأخبار الصغيرة المثيرة. أما في فصل الأمطار، فتمتلئ الأروقة بالقرويات وبالضجر، ويتحتّم اقتناص أيّ فرصة متاحة. هكذا، لمّا علم في اليوم السابق بأنّ بين ضيوف المحطة زوج ممثلة شهيرة شاركت في الفيلم البوليسي الجديد الذي نجح منذ أيام في تسلية المرضى المستحمين، تنشق الهواء، وانطلق باحثًا عنه.

لكنه يشعر الآن بالخزي.

وبما أنه دائم الشكّ في نفسه، فقد كان في حالة من التبعية والخضوع للناس الذين يعاشرهم، وكان يبحث في عيونهم بوجل عمّا يثبت له قدره وقيمته. كان والحالة هذه يعتقد بأنهم يجدونه تافهًا وغبيًا ومزعجًا، ويزيده وقع هذه الفكرة إرهاقًا بحسب ما

يبديه مُصدِر هذا الحكم من لطف في الوهلة الأولى. لهذا، وبعد أن ساوره القلق، اتصل في اليوم نفسه بالدكتورة يسألها عن حقيقة زوج الممثّلة، فأبلغته بأنّ هذا السيد لم يكن شخصية مرموقة في عالم الطب فحسب، بل هو شخص شهير بغضّ النظر عن ذلك، فهل من المعقول ألا يكون الصحافي قد سمع به في السابق؟

اعترف الصحافي بأنّه لم يسبق أن سمع به، فأجابته الدكتورة بوداعة: "بالطبع، فأنت لا تزال طفلاً. ومن حسن حظّك أنّك جاهل في التخصص الذي تألّق فيه الدكتور هافيل".

وبعدما طرح مزيدًا من الأسئلة على أشخاص آخرين، فهم أن التخصص الذي أومأت إليه الدكتورة لا يمكن أن يكون إلا الجنس، المجال الذي لا يضاهي الدكتور هافيل فيه أحد في بلاده. وشعر الصحافي بالخجل من وصف الدكتور هافيل له بالجاهل، لكنّه انتهى بتقبّل هذا النعت، لأنه لم يسبق له أن سمع بالدكتور. وبما أنه كان يحلم دائمًا بأن يكون خبيرًا مثل هذا الرجل، فقد شعر بالإهانة من تصرّفه أمامه هو بالتحديد، أمام أستاذه، مثل أبله مقيت. تذكّر ثرثرته ودعاباته السخيفة وانعدام لباقته، ولم يجد أمامه سوى الاعتراف - خاسئًا - بالحكم الذي ظنّ أنه قرأه في صمت الأستاذ المستنكر وفي نظرته الشاردة في المرآة.

ليست محطّة المياه المعدنية التي تقع فيها هذه الحكاية كبيرة، إذ يلتقي فيها الجميع بضع مرات في اليوم، سواء رغبوا في ذلك أم لم يرغبوا. ولذلك لم يجد الصحافي الشاب صعوبة

في ملاقاة الرجل الذي كان يشغله. حدث ذلك بعد العصر بينما كان المرضى يذرعون الأروقة جيئة وذهابًا. كان الدكتور هافيل يرشف ماء كريه الرائحة في كوب من الفخار، فدنا منه الصحافي الشاب، وشرع يقدّم له اعتذاره بارتباك. قال إنه لا يشكّ في كونه هو الدكتور هافيل زوج السيدة هافيل الممثلة الشهيرة، وأنّ هناك في بوهيميا الكثير من الناس يحملون اسم هافيل، لذلك لم يستطع للأسف أن يربط بين زوج الممثلة والطبيب الشهير الذي سمع عنه بالطبع منذ زمن بعيد، ليس باعتباره من مشاهير عالم الطب، بل أيضًا، وهو أمر يمكن أن يسمح لنفسه بقوله، تبعًا لما سمعه عنه من إشاعات وطرائف مختلفة.

ليس ثمّة أي داع لنفي أن يكون الدكتور هافيل، بحسب المزاج العكر الذي كان ينتابه، قد أصغى بتلذذ لكلام الشاب، ولا سيما إشارته للإشاعات والنوادر التي كان الدكتور هافيل يعلم يقينًا أنّها تخضع هي أيضًا مثله لقانون الشيخوخة والنسيان.

"لا داعي للاعتذار"، قال الدكتور هافيل للشاب. وبما أنه لاحظ ارتباكه، أمسك بذارعه ودعاه للمشي معه في الأروقة "الأمر لا يستحق الحديث عنه" قال له مطمئنًا. ولكنّه في الآن نفسه توقّف بنوع من الرضا عند ذلك الاعتذار، وكرّر مرّات عديدة: "هكذا إذًا سمعت عنّي؟"، وفي كل مرّة كانت تصدر عنه ضحكة سعيدة.

"أجل، قال الصحافي موافقًا. لكنّني لم أكن أتصورك هكذا.

-وكيف كنت تتصوّرني؟ سأل الدكتور هافيل باهتمام صادق. وبما أنّ الصحافي لم يجد جوابًا غمغم بشيء ما، وقال بأسف:

"أعلم أنّ شخصيات الروايات والخرافات والقصص الغريبة لا تخضع، بخلافنا، لعوارض الزمن. لا أقصد بهذا أنّ الخرافات والقصص الغريبة غير زائلة. من المؤكد أنّها تشيخ هي أيضًا، وأنّ شخصياتها تشيخ معها، عدا أنّها تشيخ بكيفية لا تتغيّر معها ملامحها ولا يلحقها التزوير، لكنّها تتلاشى وتمّحي ببطء وينتهي بها الأمر إلى أن تذوب في شفافية الفضاء. بهذه الكيفية سيختفي "بيبي لو موكو"، و"هافيل هاوي المجموعات"، وكذلك موسى و"بالاس أثينا" أو القديس فرانسوا داسيزي. ولكن تخيّل أن فرانسوا سيتلاشى ببطء مع العصافير الواقفة على كتفه، ومع الظبي الذي يتمسّح بساقه، ومع إكليل الزيتون الذي يعيره ظلّه. تخيّل أنّ كل منظره سيُمحى ويتحوّل معه إلى زرقة مواسية، في حين أنّني أنا، يا صديقي، وفي الحالة التي أنا عليها: عارٍ، ومنتزع من الخرافة، سأتلاشى في خلفية مشهد بألوان صارخة وتحت أعين شباب حيّ على نحو ساخر".

أثار كلام هافيل حماسة الصحافي وحيرته في الآن نفسه، ومضى الرجلان يتنزهان لوقت طويل في الظلام المخيّم. وعند فراقهما أعلن الدكتور هافيل أنّه تعب من طعام الحمية وأنّه سيتناول عشاء فاخرًا في اليوم التالي، وسأل الصحافي إن كان يرغب في الانضمام إليه.

فقبل بطبيعة الحال.

4

قال هافيل حين جلس إلى طاولة العشاء قبالة الصحافي وهو

يمسك بين يديه قائمة الطعام: "لا تخبر الدكتورة بهذا، ذلك أن لديّ تصورًا مبتكرًا للحمية: أتفادى بعناية كل الأطباق التي لا تروقني"، ثم طلب من الشاب ما يريد شرابه كمقبّل.

لم يكن المحرّر متعوّدًا على شرب الكحول قبل الوجبات، فلم يجد جوابًا غير: "كأس من الفودكا".

بدا الدكتور هافيل غير راض: "الفودكا تفوح بنتانة الروح الروسية!

-هذا صحيح" قال الشاب. وانطلاقًا من هذه اللحظة داخله شعور بالضياع. كان مثل مرشّح للباكالوريا ماثل أمام لجنة. لم يكن يحاول قول ما يفكّر فيه وما يريد أن يفعله، بل كان يجهد نفسه ليرضي ممتحنيه. كان يجتهد ليخمّن أفكارهم ونزواتهم وأذواقهم، ويأمل أن يكون عند حسن ظنهم. ما كان ليعترف، مهما كلفه الثمن، أن عشاءاته كانت سيئة ومبتذلة، وأنّه لا يملك أي معرفة بالخمور التي ينبغي شربها مع هذا النوع من اللحم أو ذاك. وقد كان الدكتور هافيل يعذّبه -عن غير قصد- حين كان يستشيره لمرّات لا تحصى بخصوص المقبلات والطبق الرئيسي والنبيذ والجبن.

عندما لاحظ الصحافي أنّ اللجنة منحته علامة سيّئة في الاختبار الشفوي لفن الطعام، حاول استدراك هذه الخسارة بإبداء مزيد من الحماسة، وراح يتفحّص النساء الحاضرات في المطعم بشكل استعراضي، ثمّ حاول بعد ذلك أن يُظهر، من خلال بعض التعليقات، اهتمامه وتجربته. لكنّه لم يلاق من جديد سوى الإخفاق. ذلك أنّه عندما قال عن امرأة نمشاء كانت تفصلهما

عنها طاولتان إنها تصلح بالتأكيد لتكون عشيقة ممتازة، سأله الدكتور هافيل عن دواعي قول ذلك. فأجاب المحرّر بجواب غامض، وعندما سأله الدكتور عن تجاربه مع النمشاوات، ارتبك وراح يذكر بعض الافتراءات التي يصعب تصديقها، ثمّ لاذ بالصمت.

في المقابل أشعرت نظرات الصحافي المفعمة بالإعجاب الدكتور هافيل بالراحة والسعادة. طلب زجاجة نبيذ أحمر لمصاحبة اللحم، فحاول الشاب تحت تأثير الكحول مرّة أخرى أن يبدو أهلاً بحظوة الأستاذ، وراح يتحدّث طويلاً عن فتاة التقاها مؤخّرًا، وهو يراودها منذ بضعة أسابيع، وأمله في نجاح مسعاه كبير. كان اعترافه مشوَّشًا وقد علت وجهه ابتسامة مغتصبة كان من شأنها أن تفضح، بغموضها المتعمّد، ما لم يقله. لكنّها لم تكن تعبّر إلا عن حيرة تغلّب عليها بصعوبة. شعر هافيل بكلّ ذلك، وبعد إثارة تعاطفه، راح يسأل الصحافي عن صفات الفتاة الجسدية المختلفة، لكي تُتاح له فرصة الحديث عن موضوع أثير لديه بإسهاب وحرية. لكن الشاب أخفق هذه المرة أيضًا: كانت أجوبته غامضة بشكل لافت. عجز عن وصف البنية الجسدية العامة للفتاة، وكذا مختلف مظاهر أعضائها، وبدرجة أقل طبعها. وهكذا انتهى الأمر بهافيل أن جعل من نفسه مدار الحديث، وفرض على الصحافي، تحت تأثير أجواء السهرة والنبيذ، مونولوجًا روحيًا تضمّن ذكرياته الشخصية وطرائفه ونكاته.

كان الصحافي يرشف نبيذه ببطء وهو ينصت بينما ساورته مشاعر متناقضة: كان من جهة تعيسًا، يشعر بنفسه تافهًا وسخيفًا،

ويبدو بمظهر تلميذ متردّد أمام أستاذ واسع الاطلاع. فهو يشعر بالخجل من الكلام، لكنّه في الآن ذاته كان سعيدًا: كان يشعر بالسرور لأنه جالس قبالة الأستاذ، يتحدّث إليه كرفيق، ويسِرّ له بكل أنواع الملاحظات الشخصية النفيسة.

ومع طول كلام هافيل، شعر الشاب أيضًا بالرغبة في الحديث، في أن يلقي كلمته، أن يوافقه، وأن يبدو كنديم أنيس. لهذا غيّر مجرى الحديث من جديد إلى صديقته، وطلب من هافيل بتكتّم ما إذا كان يقبل لقاءها في اليوم التالي حتّى يبدي له رأيه فيها في ضوء خبرته، بعبارة أخرى (أجل، إنها الكلمة التي نطقها في زخم حديثه) لكي يصدّق عليها.

من أين جاءته هذه الفكرة؟ ألم تكن مجرّد فكرة مفاجئة تولّدت من بخار النبيذ ومن الرغبة المحمومة في الكلام؟

ومهما كانت عفويتها، كان الصحافي ينتظر منها مزايا ثلاثًا:

-قد يخلق تواطؤ الخبرة المشتركة والخفيّة (التصديق) بينه وبين الأستاذ رابطًا سريًا، ويمتّن الصداقة والاتفاق الذي يصبو الصحافي إليه.

-إذا أبدى الأستاذ استحسانه (كما يرجو الشاب، لأنّه هو نفسه شديد الانجذاب للفتاة المعنيّة)، سيكون ذلك استحسانًا للشاب ولاختياره ولذوقه، فيرتقي بذلك في نظر الأستاذ من مقام المتعلّم إلى مقام الرفيق، ويزداد من ثمّة تقديره لنفسه.

-وأخيرًا ستعلو قيمة الفتاة نفسها في عينيه، وتتحوّل اللذة

التي يستمدها من حضورها من لذة متخيّلة إلى لذة واقعية (إذ كان يراود الشاب أحيانًا شعور بأنّ العالم الذي يعيش فيه يشكّل بالنسبة إليه متاهة من القيم لا يبدو له معناها إلا بطريقة بالغة الغموض، ولا يمكنها أن تتحوّل من قيم مزعومة إلى قيم واقعية إلا بعد التثبّت منها).

5

عندما استيقظ الدكتور هافيل في الغد، شعر بمرارته تؤلمه قليلاً بسبب عشاء اليوم السابق، وحين نظر إلى ساعته، لاحظ أنّ عليه أن يتابع دورة العلاج بالماء بعد نصف ساعة، وعليه من ثمّة أن يسرع، بالرغم من أنّ الأسراع يعدّ من أبغض الأشياء لديه. وبينما هو يمشط شعره، لاحظ في المرآة وجهًا لم يرقه. لقد بدأ يومه بشكل سيئ.

لم يجد حتّى الوقت لتناول فطوره (وبدا له هذا أيضًا إشارة سيّئة، لأنّه كان شديد الحرص على عادات حياته اليومية)، وتوجّه مستعجلاً نحو مؤسّسة المياه الساخنة. هناك دلف في ممرّ طويل، وطرق بابًا فلاحت منه فتاة شقراء بوزرة بيضاء علّقت على تأخّره بنبرة غاضبة، ودعته للدخول. شرع هافيل في التجرّد من ملابسه خلف حاجز في إحدى المقصورات، وبعد برهة بلغه صوتها "ألم تنته؟". أزعجه صوتها الذي بدا غير مهذّب ودفعه للثأر (فالدكتور هافيل لم يعد يعرف منذ سنوات للأسف سوى أسلوب واحد للانتقام من النساء!). نزع سرواله القصير إذًا، وأضمر بطنه، ونفخ صدره وهمّ بالخروج من المقصورة، لكنّه

شعر بالقرف من هذا الجهد الذي قد يسيء لكرامته، والذي قد يبدو له سخيفًا لو صدر من شخص آخر، فأرخى بطنه وتوجّه نحو حوض الاستحمام الكبير بلا مبالاة قدّر أنها هي الوحيدة الخليقة به، ثم غطس في الماء الفاتر.

أدارت المدلّكة الصنابير في لوحة التحكّم غير مكترثة ببطنه وصدره. فلمّا تمدّد في قاع الحوض، تناولت ساقه اليمنى، ووضعت باطن قدمه أمام فوهة الأنبوب الذي يتدفق منه الماء بقوة، فحرك الدكتور هافيل ساقه لأنّه كان حساسًا للدغدغة، فدعته لأن يهدأ.

لم يكن من الصعب جعل المدلّكة تتخلّى عن فظاظتها المقرفة بكلمة طيبة أو ثرثرة أو مزحة، لكن هافيل كان في غاية الانزعاج والغيظ. قال في نفسه إنها تستحقّ العقاب، وهو لن ييسّر عليها المهمّة. وبما أنّها كانت تعرّض أسفل بطنه للأنبوب، اضطرته إلى حماية أعضائه التناسلية بيديه، لأنه كان يخشى أن يؤلمه تدفق الماء العنيف. استفسرها عمّا ستفعل ذلك المساء، ومن دون أن تنظر إليه، سألته عن سبب اهتمامه ببرنامجها. شرح لها أنّه يسكن وحيدًا في حجرة تضمّ سريرًا واحدًا، وأنه يرغب في أن تلحق به هناك. "أظنّ أنّك أخطأت العنوان" أجابته الشقراء، وطلبت منه أن ينقلب على بطنه.

كان الدكتور هافيل إذًا ممدّدًا على بطنه في قاع الحوض رافعًا ذقنه إلى أعلى لكي يتنفس. وشعر بالدفق العنيف يدلّك فخذيه، وساوره الرضا على النبرة الحازمة التي خاطب بها المدلّكة. فهو قد اعتاد دائمًا على معاقبة النساء المتمرّدات

والوقحات أو المدلّلات بسوقهنّ بفتور وصمت، وبلا أدنى رقّة إلى أريكته، ثم يصرفهن عنه بالفتور نفسه. لزمه بعض الوقت ليدرك أنّه تحدّث إلى المدلّكة بالفتور الملائم، وبلا أدنى رقّة، لكن من دون أن يرافقها، ولن يرافقها، إلى أريكته. أدرك أنّه منبوذ، وهي إهانة أخرى. وأحسّ بالسرور عندما وجد نفسه وحيدًا في المقصورة، متدثّرًا بمنشفة الحمام.

بعد ذلك ترك المؤسسة باستعجال وتوجّه نحو لوحة إعلانات سينما "لوتان" حيث تعرض ثلاث صور إعلانية، تُرى على إحداها صورة زوجته المرعوبة والجاثية على جثّة. تأمل الدكتور هافيل هذا الوجه الرقيق الذي شوّهه الهلع، وشعر بحبّ غير محدود وحنين جامح. ومضت لحظة طويلة من دون أن يستطيع إشاحة بصره عن الواجهة الزجاجية، ثم قرّر أن يزور فرانتيسكا.

6

قال للدكتورة عندما صرفت مريضها ودعته إلى الدخول لعيادتها: "اطلبي خدمات الهاتف الخارجي من فضلك، يجب أن أكلّم زوجتي".

"هل حدث شيء؟

-نعم، قال هافيل. أشعر بالوحدة!".

نظرت إليه فرانتيسكا بريبة، وطلبت رقم خدمة الهاتف الخارجية، ثم أملت الرقم الذي قدّمه لها هافيل. وبعد وضع السماعة قالت:

"أنت تشعر بالوحدة؟

-ولم لا، قال هافيل بتبرّم. إنك تشبهين زوجتي. تنظرين إليّ كرجل كفّ عن الحياة منذ زمن بعيد. إنّني بسيط ووحيد وحزين. لقد شخت، ويمكنني أن أصارحك بأنه ليس أمرًا مبهجًا.

-كان عليك أن تنجب أبناء، أجابت الدكتورة. لو كان لك أبناء لما فكّرت بهذا القدر في نفسك. أنا أيضًا يتقدّم بي العمر، ولكنّني لا أعير ذلك اهتمامًا. عندما أرى ابني يكبر، أتساءل كيف سيبدو عندما يصير رجلاً، فلا آسف على السنوات التي تمضي. تصوّر أنه قال لي بالأمس: لأيّ شيء يصلح الأطباء ما دام الناس يموتون في نهاية المطاف؟ ما رأيك؟ بماذا ستجيب على هذا السؤال؟".

من حسن حظ الدكتور هافيل أنّه لم يضطر للجواب، لأنّ الهاتف رنّ. رفع السماعة، وما إن سمع صوت زوجته حتّى سارع إلى إخبارها بأنّه حزين، وأنّه لم يجد من يحادثه ولا أحد يرغب في رؤيته، وأنّه لا يطيق البقاء وحيدًا هنا.

وسُمع صوت هامس في الهاتف، مرتاب في البداية، مشلول ويكاد يتلعثم، لكنّه ما لبث أن انطلق تحت ضغط كلمات الزوج.

"من فضلك تعالي، الحقي بي حالما تستطيعين!" قال هافيل في الميكروفون. فأجابته زوجته بأنّها ترغب في المجيء، لكنها تعرض كل يوم تقريبًا.

"تقريبًا كل يوم وليس كل يوم" قال هافيل، فسمع زوجته

تجيبه بأنّ اليوم التالي هو يوم عطلة بالنسبة لها، لكنّها لا تعلم ما إذا كان المجيء ليوم واحد يستحق العناء.

فردّ هافيل: "كيف تقولين هذا؟ أنت لا تدركين إذًا قيمة يوم في حياة قصيرة؟".

سأل الصوت الخافت في السماعة: "ألست عاتبًا عليّ حقًّا؟

-لماذا سأعتب عليك؟

-بسبب تلك الرسالة. أنت تتألّم وأنا أزعجك برسالة سخيفة لامرأة تنهشها الغيرة".

وأغرق هافيل الميكروفون في سيل من الحنان، فأعلنت زوجته (بصوت صار الآن كلّه رقّة) بأنّها ستلتحق به في اليوم التالي.

قالت له فرانتيسكا عندما وضع السماعة: "أحسدك رغم ذلك. لديك كل شيء، عشيقات بقدر ما تريد، وأسرة جميلة".

نظر هافيل إلى صديقته التي قالت إنّها تحسده، لكنّها بلا شك على قدر من الطيبة بحيث لا تستطيع أن تحسد أيًا كان، وشعر نحوها بالشفقة لأنّه كان يدرك أنّ الفرح الذي يمنحه الأبناء لا يمكن أن يعوّض مباهج أخرى، وأن الفرح الذي يثقله واجب تعويض أفراح أخرى هو فرح سريع الزوال.

ذهب بعد ذلك لتناول الغداء، وبعد الغداء خلد للقيلولة. وعند الاستيقاظ، تذكّر أنّ الصحافي الشاب ينتظره في المقهى لكي يقدّم له صديقته. ارتدى ملابسه وخرج. وبينما كان ينزل سلّم دار العلاج، لمح في البهو عند مستودع الملابس امرأة طويلة

تشبه فرس سباق. آه، لم يكن ينقصه سوى هذا! لأنّ أمثال هؤلاء النساء تحديدًا تسلبن الدكتور هافيل عقله. مدّت المكلّفة بالمستودع المعطف للمرأة الطويلة، وتقدّم هافيل ليساعدها لتدخل إحدى يديها في الكمّ. شكرته المرأة الشبيهة بالفرس بإهمال، فقال لها وهو يبتسم: "هل من خدمة أخرى يمكنني تقديمها لك يا سيدتي؟"، أجابته بالنفي ومن دون أن تبتسم، فغادر مسرعًا.

7

كانت قد مضت فترة طويلة على الصحافي وهو جالس إلى جانب صديقته (وكان قد اختار مكانًا يستطيع منه أن يرى المدخل). ولم يكن يستطيع التركيز على الحديث الذي اعتاد على أن يكون صاخبًا بينهما بشكل مرح وبلا كلل. كان يشعر بالتوتّر بسبب هافيل. إنّها المرّة الأولى التي يحاول فيها النظر بعين ناقدة إلى صديقته منذ أن تعرّف عليها. وبينما كانت تتحدّث (ولحسن الحظ، لم تكن تتوقّف ولو ثانية واحدة عن الكلام بحيث ظلّ ارتباك الشاب غير ملحوظ) اكتشف في جمالها عيوبًا صغيرة كثيرة، فشوّشه ذلك، لكنه اطمأنّ في الأخير إلى أنّ هذه العيوب تجعل جمالها أكثر إثارة، بل إنّ هذه العيوب الصغيرة هي التي جعلته يغمر كيانها برمّته بمنتهى حنانه.

فالشاب كان شديد الحبّ لصديقته.

لكنه إن كان يحبّها كثيرًا، فلماذا استسلم لفكرة أن يصدّق عليها دكتور فاسق، وهو أمر مهين لها؟ وحتّى إن نحن منحناه

ظروفًا تخفيفية، مسلّمين مثلاً بأن الأمر لا يعدو أن يكون لعبة، فكيف يعقل أن يشوّشه ذلك إلى هذا الحدّ؟

لم يكن الأمر لعبة. فالشاب لم يكن له حقًّا رأي في صديقته، وكان فعلاً غير قادر على تقييم سحرها وجمالها.

أكان إذًا ساذجًا وعديم الخبرة بحيث لا يستطيع تمييز امرأة جميلة عن أخرى دميمة؟

كلا، لم يكن عديم الخبرة إلى هذا الحدّ. فقد سبق له أن تعرّف على نساء كثيرات، ووقعت له معهنّ مختلف أنواع المغامرات، لكنّه اعتاد على العناية كثيرًا بنفسه أكثر من عنايته بهنّ. لنتأمل هذه الواقعة اللافتة: هو يتذكّر بدقة ما كان يلبسه يوم خرج مع إحداهنّ. هو يذكر أنه في هذا اليوم أو ذاك كان يرتدي سروالاً واسعًا، وأنه كان يشعر بالتعاسة فيه، ويذكر أنّه في يوم آخر كان يلبس سترة بيضاء، كان يبدو فيها كرياضي أنيق، لكنّه لا يذكر البتّة كيف كانت تلبس صديقاته.

أجل، إنّه أمر لافت بالفعل: فبمناسبة مغامراته القصيرة، كان يقوم بدراسات دقيقة وطويلة لمظهره الشخصي أمام المرآة، في حين كان إدراكه سطحيًّا لمن ترافقه. كان يهتمّ بصورته التي يقدّمها لرفيقته أكثر من اهتمامه بالصورة التي تقدمها له هي. وليس معنى هذا أنّه لم يكن يهتمّ بما إذا كانت المرأة التي تصاحبه جميلة أو غير جميلة. الأمر بخلاف ذلك. فإضافة لعيني صديقته اللتين كانتا تنظران إليه، فقد كانت عيون الآخرين (عيون العالم) تنظر إليهما معًا، وتحكم عليهما. لهذا كان حريصًا على رضا العالم عن رفيقته، علمًا بأنّ الحكم على رفيقته هو في

الحقيقة حكم على مستوى اختياره وذوقه، ومن ثمّة على شخصه. وبما أنّ الأمر يتعلّق بحكم الآخرين، لم يكن يستطيع الاطمئنان لعينيه، بل درج إلى حدود تلك اللحظة على الإصغاء لصوت الرأي العام والتّماهي معه.

ولكن ماذا يمثّل صوت الرأي العام مقارنة بصوت أستاذ خبير؟ وبينما كان ينظر بفراغ صبر إلى المدخل، لاح له أخيرًا طيف الدكتور هافيل عبر الباب الزجاجي، فتظاهر بالمفاجأة وقال لصديقته إن رجلاً مرموقًا كان يخطط لاستجوابه في مجلّته يدخل المقهى بمحض الصدفة، ثمّ توجّه لملاقاة الدكتور هافيل وقاده إلى مائدته. ولم تلبث الفتاة التي قطعت حديثها أثناء التعارف أن استأنفت ثرثرتها التي لا تنتهي.

وراح الدكتور هافيل الذي صدّته بازدراء المرأة الشبيهة بفرس السباق يتفحّص بتركيز الفتاة الثرثارة مستسلمًا لمزاجه الكدر. لم تكن الصبيّة بالغة الجمال، لكنّها كانت ساحرة. ولم يكن ثمّة شكّ في أنّ الدكتور هافيل (الذي يشيع عنه أنه مثل الموت لا يترك أحدًا) سيقبلها بطيب خاطر وبأبسط إشارة. كانت بعض ملامحها في الحقيقة لافتة بسبب غموضها الجمالي: في قاعدة أنفها نقط دقيقة من النمش الذهبي يمكن أن تعدّ بمثابة عاهة على بياض بشرتها، ولكن يمكن اعتبارها أيضًا بمثابة جوهرة على هذا البياض. كانت في منتهى الرشاقة، وهو ما يمكن أن يعدّ عيبًا بالنظر إلى المقاسات الأنثوية المثالية. لكن يمكن النظر إليه أيضًا كامتداد لرشاقة الطفلة الكامنة في المرأة. وكانت بالغة الثرثرة، وهو ما يمكن عدّه عادة مقيتة، لكن يمكن

اعتباره أيضًا استعدادًا مرحًا يتيح لرفيقها الاستسلام لأفكاره الخاصة من دون خوف من التعرّض لخطر المباغتة.

كان الصحافي يراقب خلسة وبقلق وجه الطبيب. وبما أنّ هذا الوجه بدا له مستغرقًا في التفكير على نحو خطير (وهو ما لم يكن فأل خير)، نادى النادل، وطلب ثلاثة أقداح من الكونياك. انتفضت الشابة قائلة إنها لا تشرب، ثم راحت تقنع نفسها بأنّه يمكنها، بل عليها أن تشرب. وفهم الدكتور هافيل بحزن أنّ أيّ محاولة مع هذا الكائن ذي الجمال الغامض، والذي يفصح عن بساطة روحه من خلال سيل كلامه، ستمنى بالفشل، وستكون على الأرجح إخفاقه الثالث ذلك اليوم. فالدكتور الذي كان مهيمنًا كالموت في الماضي، لم يعد كما كان.

بعد ذلك أحضر النادل أقداح الكونياك، ورفعوا ثلاثتهم أقداحهم لكي يشربوا الأنخاب، فغاص الدكتور هافيل في عيني الفتاة الزرقاوين كما لو كانتا عينين عدائيتين لكائن لن يكون من نصيبه. ولمّا لمس العدائية في هاتين العينين، ردّ عليهما بعدائية مماثلة، فلم يعد يرى أمامه بغتة سوى كائن اتّضحت صفاته الجمالية: صبية هزيلة بوجه تلطّخه بقع النمش، وثرثارة بشكل لا يطاق.

ورغم أن هذا المسخ راق للدكتور هافيل، مثلما راقه نظر الشاب المتعلّق به بتفحّص قلق، فإن هذه المباهج لا تمثّل شيئًا أمام هوّة المرارة التي انفتحت داخله. قال في نفسه إنه من الخطأ إطالة هذا اللقاء الذي لا طائل وراءه. فأخذ دفة الكلام، وقال أمام الشاب ورفيقته عدة نكات لطيفة، وعبّر عن سعادته بقضاء لحظات جميلة معهما، وأعلن أنه على موعد، ثم غادر.

حين بلغ الباب الزجاجي، ضرب الشاب على جبينه قائلاً إنه نسي تمامًا أن يتّفق معه على موعد المقابلة. خرج مسرعًا ولحق بهافيل في الشارع، وسأله: "كيف وجدتها إذًا؟"

نظر الدكتور هافيل طويلاً في عيني الشاب، فأثلج إعجابُه المتلهّف صدرَه.

في المقابل، شعر الشاب بالضيق من صمت الدكتور لدرجة أنّه أخذ زمام المبادرة: "أنا أدرك أنها ليست بغاية الجمال.

-بالتأكيد ليست كذلك". قال هافيل.

خفض الصحافي رأسه: "إنّها ثرثارة إلى حدٍّ ما. لكنّها عدا ذلك لطيفة!

-أجل لطيفة، لكن حتّى الكلب بإمكانه أن يكون لطيفًا، أو الكناري أو بطّة تتهادى في ساحة مزرعة. ما يهمّ في الحياة ليس أن تملك أكبر عدد من النساء، فذلك لا يعدو أن يكون نجاحًا ظاهريًا. عوض ذلك ينبغي أن يرعى المرء حاجة مخصوصة بالنظر إلى نفسه. تذكّر يا صديقي أن الصيّاد الحقّ يعيد إلى الماء الأسماك الصغيرة".

شرع الشاب يعتذر مصرّحًا بأنّ شكوكًا كبيرة كانت تراوده بشأن صديقته، وما استعانته برأيه إلا شاهد على ذلك.

قال هافيل: "لا أهميّة لهذا. لا داعي لأن تشغل بالك به".

لكن الشاب استمرّ يعتذر ويبرّر، وانتهى إلى القول إن المحطة لا تكون فيها نساء جميلات كثيرات في الخريف، وإنه اضطرّ لقبول ما وقعت عليه يده".

ردّ هافيل: "لست أتّفق معك بخصوص هذه النقطة. فقد رأيت هنا نساء في غاية الجمال، ولكن سأقول لك أمرًا. هناك المرأة ذات الجمال السطحي التي يعتبرها الذوق القروي عن خطأ جميلة، ثم هناك جمال المرأة الشبقي الحقيقي. لكن اكتشاف هذا الجمال من النظرة الأولى ليس بالأمر الهيّن، إنه فنّ" ثم مدّ يده للصحافي مودّعًا، ومضى.

8

شعر الصحافي باليأس: أدرك أنّه أبله عنيد تائه في صحراء شبابه اللامحدودة (أجل، كان يظنّها لامحدودة)، وأيقن بأنّ الدكتور هافيل منحه علامة سيّئة. وبدا له أن صديقته قد تكون تافهة ومملّة ومعدومة الجمال. ولمّا عاد للجلوس بجانبها، قال في نفسه إنّ كلّ زبائن المقهى، بمن فيهم النادلان اللذان يذهبان ويعودان، يعلمون ذلك، وينظرون إليه بشفقة خبيثة. طلب الحساب، وأوضح لصديقته أنّ لديه عملاً عاجلاً يضطرّه لتركها. اغتمّت لذلك، فشعر بقلبه ينقبض: فهو لا يزال يحبّها (خلسة، وبنوع من الخزي) في قرارة نفسه، رغم علمه بأنّه سيعيدها إلى الماء كما يفعل الصيّاد البارع.

لم تلح في الغد أيّ بارقة أمل في ما يتعلق بمزاجه العكر. وحين التقى أمام مؤسسة الميّاه المعدنية الدكتور هافيل بمعيّة سيدة أنيقة، شعر بنوع من الحسد الشبيه إلى حدّ ما بالكراهية: فقد كانت تلك المرأة جميلة بصورة صارخة، لا يوازيها في ذلك سوى مزاج الدكتور هافيل الذي لوّح له بابتهاج حين لمحه، وبكيفية عمّقت شعوره بالبؤس.

قال هافيل: "أقدّم لكِ رئيس تحرير مجلّة محطّة المياه. لقد سعى جادًا للتعرّف عليّ لمجرّد أن تتاح له فرصة لقائك".

وما كاد الشاب يدرك أنّه في حضرة امرأة سبق أن رآها على الشاشة حتّى تضاعف شعوره بالارتباك. وحين اضطرّه هافيل إلى مرافقتهما، لم يدر الصحافي بما يجيب، فراح يشرح مشروع المقابلة الذي ينوي إجراءها معها مضيفًا فكرة جديدة: أن ينشر في مجلته حوارين، أحدهما مع السيدة هافيل والآخر مع الدكتور.

فردّ هافيل: "صديقي العزيز، الأحاديث التي تبادلناها كانت ممتعة بل كانت بفضلك مهمّة. ولكن قل لي، لماذا ينبغي نشرها في مطبوع موجّه لمرضى الكبد والمصابين بقروح الأمعاء؟

-أستطيع بسهولة تخمين الأحاديث التي دارت بينكما، قالت السيدة هافيل.

-لقد تحدّثنا عن النساء، قال الدكتور هافيل. لقد وجدت في هذا السيّد صاحبًا ومحدّثًا من الطراز الرفيع، رفيقًا نوّر أيامي المظلمة".

استدارت السيد هافيل نحو الشاب: "ألم يضجرك؟".

وسُرّ الصحافي بكون الدكتور هافيل نعته بالرفيق النيّر، فامتزج حسده بالامتنان: هو بالأحرى من أضجر الدكتور. ثم أضاف إنّه واع تمامًا بقلّة خبرته وعدم أهميته وتفاهته.

"آه يا عزيزي، قالت الممثلة، لا بدّ أنك بالغت في التبجّح!".

راح الصحافي الشاب يدافع عن الطبيب. "هذا ليس

صحيحًا! تقولين هذا لأنّك لا تعرفين، سيدتي العزيزة، ما تعنيه مدينة صغيرة، حقيقة هذا الجحر الذي أقطن فيه.

-لكنّها مدينة جميلة، اعترضت الممثلة.

-أجل، بالنسبة إليك، لأنّك تزورينها لمدّة قصيرة. أمّا أنا فأقطن فيها، وسأظلّ أقطن فيها، محاطًا بالناس أنفسهم الذين صرت خبيرًا بهم. إنّهم الناس أنفسهم على الدوام، يفكّرون جميعهم بالطريقة نفسها، وكل ما يشغلهم لا يعدو أن يكون سخافات وأمورًا مبتذلة. عليّ أن أتوافق معهم، سواء أردت ذلك أم أبيته، وأن أتكيّف معهم شيئًا فشيئًا من دون أن أشعر بذلك. يا للبشاعة! من يصدّق أنّني سأصير واحدًا منهم! من يصدّق أنّني سأبصر العالم بعيونهم القصيرة النظر!".

كان الصحافي يتحدّث بانفعال متصاعد، وظنّت الممثّلة أنّها لمست في كلامه نفس تمرّد الشباب الأبدي، ففتنها ذلك وأربكها، وقالت: "كلا، عليك ألا تتكيّف، لا ينبغي لك!".

أجاب الشاب موافقًا: "لا ينبغي لي. لقد فتح الدكتور عينيّ بالأمس. عليّ أن أخرج مهما كلّفني الثمن من حلقة هذا الوسط المغلقة، من الحلقة المغلقة لهذه الوضاعة، لهذه الرداءة. عليّ أن أخرج منها، أن أخرج منها". ردّد الشاب.

وأردف الدكتور موضحًا لزوجته: "قلنا إنّ الذوق القروي المبتذل يقيم مثالاً زائفًا للجمال، وهو مثال مفرغ من الإثارة الجنسية، بل مناف لها، في حين يظلّ الجمال الحقيقي، المثير والمتفجّر، خارج إدراك هذا الذوق. ذلك أنّه توجد حولنا نساء يستطعن جعل الرجل يكتشف أشدّ المغامرات الحسيّة إذهالاً، لكن لا أحد يلحظهنّ".

قال الشاب مؤيّدًا: "هذا صحيح".

فاستأنف الطبيب: "لا أحد يلحظهنّ لأنهنّ لا يتطابقن مع معايير هذه المنطقة. فالجاذبية الجنسية في الواقع تتجلّى من خلال أصالتها أكثر ممّا تتجلى من خلال اطّرادها؛ من خلال التعبيرية أكثر من المعيار؛ من خلال الغرابة أكثر من الجمال المبتذل.

-أجل، قال الشاب موافقًا.

-أتعرفين فرانتيسكا؟ سأل هافيل زوجته.

-نعم، ردّت الممثلة.

-أتعلمين أنّ كثيرًا من أصدقائي مستعدّون لمنح كل ما يملكون مقابل قضاء ليلة واحدة معها. أراهن بقطع رأسي على أن لا أحد يلاحظها في هذه المدينة. هيّا! أخبرني يا صديقي أنت الذي تعرفها، ألاحظت يومًا أنّ فرانتيسكا امرأة رائعة؟

-كلا، لم يسبق أن لاحظتها في الحقيقة! قال الشاب. لم يخطر على بالي قطّ أن أنظر إليها بوصفها امرأة!

-لا يدهشني ذلك، قال الدكتور هافيل. إنّك لا تجدها نخيفة بما فيه الكفاية ولا ثرثارة. ثم إنها لا تملك ما يكفي من بقع النمش!

-هذا صحيح، قال الشاب ببؤس. لقد رأيتَ مقدار بلادتي.

-لكن، هل لاحظت مرّة مشيتها؟ استرسل هافيل. هل لاحظت أنّ ساقيها تتكلّمان ببلاغة حين تمشي؟ لو أصغيت لما تقولانه لتورّدت من الخجل، ومع ذلك، فأنت فاسق لعين كما عهدتك!".

9

عندما صارا بمفردهما قالت الممثلة لزوجها: "إنك تحبّ الهزء بالسذّج."

فقال: "أنت تعلمين أنّ ذلك دليل على مزاجي الرائق. وأقسم لك إنّها المرّة الأولى التي أشعر فيها بتحسّن مزاجي منذ وصولي إلى هنا".

هذه المرّة لم يكن الدكتور هافيل كاذبًا. فمنذ أن دخلت الحافلة إلى المحطّة في الصباح، ورأى من خلال الزجاج زوجته جالسة، ثم عندما رآها باسمة على درج مدخل الحافلة، غمرته السعادة. وبما أنّه لم يمسّ مخزونه من الفرح طوال الأيام السابقة، فقد عبّر عن فرحه طوال ذلك اليوم بطريقة أقرب إلى الجنون. تجوّلا معًا في الأروقة، والتهما بشهيّة الفطائر المدورة الحلوة، وزارا فرانتيسكا ليصغيا إلى تعليقاتها حول أحاديث ابنها الأخيرة، ثمّ قاما بجولة مع الصحافي كما وصفت في الفصل السابق، وسخروا من المرضى الذين يقومون بجولاتهم العلاجية في شوارع المدينة. وعلّق الدكتور هافيل بهذه المناسبة أنّ بعض المارّة كانوا يتفرّسون الممثلة، ولاحظ حين كان يستدير أنّهم يتوقّفون لكي ينظروا إليهما.

"لقد تعرّفوا عليك، قال هافيل. الناس هنا لا يجدون ما يشغلهم، فيُقبلون على السينما بشغف.

-أهذا يضجرك؟ سألت الممثّلة التي كانت تعتبر الشهرة الملازمة لمهنتها خطيئة، لأنّها مثل كل أولئك الذي يحبّون بصدق، تتوق لحبّ هادئ وخفيّ.

-بالعكس" قال هافيل ضاحكًا، ثم راحا يلعبان لعبة صبيانية تتمثّل في محاولة تخمين أيّ المارّة سيتعرّف عليهما، وأيّهم لن يتعرّف، مراهنين على عدد المارة الذين سيتعرفون عليهما في الشارع المقبل. كان الناس يتلفتون بمن فيهم الشيوخ والقرويون والصبيان، وكذلك النساء الجميلات القليلات اللواتي كنّ يتعالجن في هذا الفصل.

استمتع هافيل الذي كان يعيش نكرة منذ أيام بالاهتمام الذي يوليه المارّة له، وودّ أن يحظى هو أيضًا بأكبر قدر من هذا الاهتمام، فطوّق خصر الممثلة بذراعه، وراح يهمس في أذنها بكل أنواع الغزل والبذاءات، فتستجيب لذلك بضغط جسدها إليه، متطلّعة إليه بوجه مفعم بالفرح، وهو ما يشعره أمام كلّ هذه الأنظار المصوّبة عليه باستعادة قدرته على إثارة الاهتمام المفقود، كما أحس بملامحه الغامضة تصير واضحة وحادة. ومن جديد ساوره ابتهاج صادر عن جسده وخطواته وكل كيانه.

وبينما هما يتفرجان على واجهات متاجر الشارع الرئيسي وقد شبكا يديهما، لمح الدكتور هافيل في متجر لبيع لوازم الصيد المدلّكة الشقراء التي عاملته بعجرفة في اليوم السابق. كان المتجر فارغًا، وكانت تثرثر مع البائعة، فقال لزوجته بغتة وقد علتها الدهشة: "تعالي، إنّك أروع مخلوق عرفته. سأقدّم لك هديّة". ثمّ تناول يدها وسحبها إلى المتجر.

صمتت المرأتان، ومضت المدلّكة تتفرّس الممثلة، ثم خطفت نظرة نحو هافيل، فانتبه لنظرتها برضا، ومضى يتفحّص السلع المعروضة من دون أن يلقي على المدلّكة ولو نظرة واحدة.

كان يتفحّص قرون الأيائل ومحافظ الصيد والبنادق والمناظير وقصبات الصيد والكمّامات.

"ماذا تريدان؟ سألت البائعة.

-انتظري لحظة"، قال هافيل. وانتهى به الأمر باكتشاف صفارات خلف زجاج الكونتوار، فأشار إليها بسبابته. ناولته البائعة إحداها، فوضعها هافيل بين شفتيه وصفر، ثم تفحّصها من جديد من كل الزوايا، وصفر ثانية بلطف، ثم قال للبائعة "رائع"، ووضع أمامها الكورونات الخمسة المطلوبة، وناول الصفارة لزوجته.

رأت الزوجة في هذه الهديّة أحد تصرّفات زوجها الصبيانيّة التي كانت شديدة الشغف بها. إنّه تهريج يستمدّ معناه من خلوّه من المعنى؛ ثمّ شكرته بنظرة حبّ جميلة، لكن هافيل قدّر أنّ ذلك غير كاف، وهمس لها بصوت مسموع: "أهكذا تشكرينني على مثل هذه الهديّة الجميلة؟"، فمنحته الممثلة قبلة بينما ظلّت المرأتان تراقبانهما وتتابعانهما إلى أن غادرا المتجر.

إثر ذلك واصلا نزهتهما في الشوارع وفي الحديقة العموميّة. التهما الفطائر، وصفرا بالصفارة، وجلسا على مقعد، وتسلّيا بالرهان على عدد المارّة الذين سيتلفّتون. ولمّا دخلا إلى المطعم في المساء، كادا يصطدمان بالمرأة الشبيهة بفرس السباق. حدجتهما بنظرة استغراب سلّطتها طويلاً على الممثّلة، ثمّ لمدّة أقصر على هافيل، ثمّ على الممثلة ثانية. ولمّا نظرت من جديد إلى هافيل، حيّته كما لو أنّها تفعل ذلك مرغمة. حيّاها هافيل بدوره، ثمّ مال على أذن زوجته وهمس لها بصوت مسموع

يسألها عمّا إذا كانت تحبّه. رفعت الممثلة بصرها إلى وجهه، ونظرت إليه نظرة حبّ متأنية، ثم داعبت خدّه.

إثر ذلك جلسا إلى إحدى الطاولات، وتناولا وجبة خفيفة (لأن الممثلة كانت شديدة الحرص على احترام حمية زوجها)، وشربا نبيذًا أحمر (وهو النبيذ الوحيد الذي كان مسموحًا للدكتور بشربه)، وعندها ساورت السيدة هافيل لحظة انفعال، فمالت نحو زوجها، وأمسكت بيده وقالت له إنّ هذا اليوم من أجمل أيام حياتها، وأسرّت له بأنّها حزنت كثيرًا حين غادرها للعلاج، واعتذرت له ثانيّة عن سخافة الرسالة التي كتبتها له بدافع الغيرة، وشكرته على المكالمة الهاتفية التي طلب منها فيها أن تلحق به، وقالت إنّها ستظلّ سعيدة دائمًا باللحاق به، حتّى ولو كان ذلك لدقيقة واحدة، ثم شرحت له بإسهاب أنّ الحياة معه تجعل حياتها عذابًا وترقّبًا مستمرّين، كما لو أنّه يوشك دائمًا على الإفلات منها، لكن لهذا السبب تحديدًا، يمثّل كل يوم بالنسبة لها سعادة متجدّدة، وبداية حبّ جديدة، وهِبة جديدة.

ثم التحقا معًا بغرفة الدكتور هافيل فبلغت سعادة الممثلة ذروتها.

10

بعد يومين من ذلك، ذهب الدكتور هافيل إلى حصّة العلاج المائي، ووصل من جديد متأخّرًا. فهو لا يصل في الحقيقة أبدًا على الموعد. استقبلته المدلّكة الشقراء نفسها، لكنّها في هذه المرّة لم تكشف له عن وجهها المتجهّم، بل بالعكس، ابتسمت

له، ونادته دكتور، فاستنتج هافيل من معاملتها أنّها ربّما عادت لبطاقته في إدارة المؤسسة، أو سألت عنه. واستقبل هذا الاهتمام بالرضا. اختفى إثر ذلك خلف حاجز المقصورة لنزع ملابسه، ولمّا أعلنت المدلّكة أنّ الحوض امتلأ، خرج مستعرضًا سرّته باعتزاز، واضطجع بالتذاذ في الحوض.

أدارت المدلكة الصنبور في لوحة التحكّم، وسألته عمّا إذا كانت زوجته لا تزال معه. أجابها هافيل بالنفي، فسألته المدلّكة ما إذا كانت ستظهر في فيلم جديد، فأجابها بالإيجاب. ثمّ رفعت ساقه اليمنى. وبما أنّ دفق الصنبور كان يدغدغ أسفل قدمه، ابتسمت له وقالت إنّ جسمه حساس للغاية في ما يبدو. ثمّ واصلا ثرثرتهما، فأشار هافيل إلى أنّ الحياة هنا مملّة، فبدرت من المدلّكة ابتسامة معبّرة وقالت إنّ الدكتور يعرف بالتأكيد كيف يتدبّر أمره حتّى لا يشعر بالملل. وحين انحنت إلى الأمام لكي تصوّب فوهة الأنبوب على صدره، بدا له الجزء العلوي من ثدييها، فأطرى عليهما، وعلّقت المدلّكة أنه قد يكون رأى أجمل منهما.

واستنتج هافيل من هذا الحديث أنّ إقامة زوجته القصيرة غيّرته تمامًا في عيني هذه الفتاة البدينة اللطيفة، وأنّه اكتسب الجاذبية فجأة، بل أكثر من ذلك: صار جسده بالنسبة للمدلّكة ذريعة للاتصال خلسة بممثلة شهيرة، فتصير بذلك نظيرة امرأة بارزة تلفت أنظار جميع الناس. أدرك هافيل أنّ كل شيء صار انطلاقًا من تلك اللحظة مباحًا له، وصار موعودًا مقدّمًا بكل شيء.

عدا أنّنا لمّا نحقّق الإشباع -وهو شيء كثير الوقوع في الحياة!- نُعرض بطيب خاطر وبغطرسة عن الفرص المتاحة لنا، وذلك حتّى نؤكّد لأنفسنا تخمتنا البهيجة. كان يكفي أن تتخلّى الشابة الشقراء عن عجرفتها السليطة، وأن تبدي صوتها الهادئ ونظرتها المتواضعة لكي يفقد الدكتور هافيل رغبته فيها.

ثم كان عليه أن ينقلب على بطنه، ويحافظ على ذقنه خارج الماء، ويتركها ترشّه من رأسه إلى أخمص قدميه بدفق ماء عنيف، وتهيّأ له أن هذه الوضعية هي الوضعية الخاشعة المعبّرة عن الخضوع والشكر: وراح يفكّر في زوجته، يفكّر في جمالها ومقدار حبّه لها وحبّها له، وفي نجمته التي تجلب له الحظ والحظوة لدى الفتيات البدينات.

ولمّا انتهت حصّة التدليك، وانتصب واقفًا لكي يغادر الحوض، بدت له المدلّكة ذات البشرة المبللة في غاية الجمال والطلاوة، بنظرتها المذعنة، بحيث ساورته رغبة في الانحناء باتجاه المكان البعيد الذي توجد فيه زوجته. فجسد المدلّكة في ما تهيّأ له كان واقفًا فوق الراحة الضخمة للممثلة، وأن هذه الراحة تناوله هذا الجسد كرسالة حبّ أو قربان. وتخيّل أنّ رفض هذه الهبة وهذه الالتفاتة الرقيقة فيه إساءة لزوجته. فابتسم للمرأة الشابة المبللة بالعرق، وقال لها إنّه سيخصّص لها أمسيته، وإنّه سينتظرها بمطعم "الفورش" عند الساعة السابعة. أبدت الشابة قبولها، وتدثّر هافيل بمنشفة ضخمة.

وحين انتهى من ارتداء ملابسه وتمشيط شعره، تنبّه إلى أنّ مزاجه كان رائقًا على نحو عجيب. وراودته رغبة في الثرثرة،

فتوقّف عند فرانتيسكا التي قدّرت أنّ الزيارة جاءت في أوانها، فهي بدورها كانت في حالة نفسية حسنة. مضت تتحدّث عن كل شيء وعن لا شيء، وتقفز عشوائيًا من موضوع لآخر، ولكنّها كانت تعود دائمًا إلى الموضوع الذي عرضا له في لقائهما الأخير، أي سنّها. كانت تحاول أن توحي له بعبارات غامضة أن على المرء ألا يستسلم لتراكم السنين، وأنّ عدد السنين ليس إعاقة دائمًا، وأنّ اكتشاف المرء فجأة قدرته على التحدّث إلى الشباب كندٍّ لهم يبعث في النفس شعورًا في غاية الروعة. ثمّ قالت بغتة: "الأطفال ليسوا كلّ شيء. أنت تعلم مقدار حبّي لأطفالي، لكن ثمّة في الحياة أشياء أخرى".

لم تخرج أقوال فرانتيسكا لحظة عن نطاق التجريد الغامض، وهي بالنسبة لشخص غير مطّلع لا تعدو أن تكون مجرّد ثرثرة. غير أنّ هافيل كان مطّلعًا، وخمّن المضمون الكامن خلف ذلك اللغو. استنتج أن سعادته لا تشكّل سوى حلقة في سلسلة السعادة الطويلة. وبما أنّ قلبه كان طيّبًا، فقد تضاعف مرحه.

11

أجل، كانت نظرة الدكتور هافيل صائبة: لقد زار الصحافي الدكتورة في اليوم نفسه الذي أثنى فيه أستاذه عليها. وبعد بضع جمل، لمس في نفسه جرأة مدهشة فعبّر لها عن إعجابه بها، وقال إنّه يريد لقاءها. ردّت الدكتورة بنبرة وجلة بأنّها تكبره سنًّا، وأنّ لها أطفالاً. ومع هذا الجواب، شعر الصحافي بتنامي ثقته بنفسه، ولم يجد أيّ صعوبة في انتقاء ألفاظه: أكّد أنّ الدكتورة

تملك جمالاً خفيًا أنفس من الجمال المبتذل، وأثنى على مشيتها، وقال إن ساقيها تنطقان حين تمشي.

بعد يومين، وفي اللحظة التي وصل فيها الدكتور هافيل إلى "الفورش"، ولمح من بعيد الشابة الشقراء البدينة، كان الصحافي يذرع بنفاد صبر شقّته الضيقة جيئة وذهابًا. كان واثقًا من النجاح، لكنّه كان خائفًا من أن يختطفه منه الخطأ أو القدر. كان يفتح الباب بين الفينة والأخرى حتّى ينظر إلى أسفل السلم، وأخيرًا ظهرت له.

كادت العناية التي أولتها الدكتورة للباسها وزينتها أن تنسيه مظهرها المألوف، بسروالها الأبيض ووزرتها البيضاء. قال الشاب في نفسه، وقد ساوره الارتباك، إنّ جاذبيّة فرانتيسكا الجنسية التي لم تكن بالنسبة إليه إلى حدود تلك اللحظة تتعدّى التخمين قد صارت الآن ماثلة أمامه، سافرة تقريبًا بشكل يعدم الحياء، فغمره خجل مبعثه الاحترام؛ ولمقاومة ذلك، سحب فرانتيسكا بين ذراعيه حتّى قبل أن يُغلق الباب، وراح يقبّلها بعنف. أفزعها اندفاعه، فرجته أن يتركها تجلس. استجاب لطلبها، لكنّه ما لبث أن جلس عند قدميها، وراح يقبّل جواربها فوق الركبتين، فأدخلت أصابع يديها في شعره، وحاولت صرفه بلطف.

لنصغ لما قالته له: كرّرت في بادئ الأمر عدّة مرّات: "ينبغي أن تظلّ عاقلاً، ينبغي أن تظلّ عاقلاً، عدني بأن تظلّ عاقلاً". ولمّا قال لها الشاب: "أجل، أجل، سأظلّ عاقلاً وهو يتقدّم بشفتيه إلى الأعلى شيئًا فشيئًا فوق النايلون الخشن، قالت له: "لا، لا تفعل هذا، لا، لا"، وحين بلغت شفتاه أعلى من

ذلك، راحت تخاطبه فجأة بلا كلفة قائلة: "أنت مجنون، أنت مجنون!".

وحسمت هذه العبارة كلّ شيء، ولم يواجه الشاب أيّ مقاومة، وشعر بالانتشاء. انتشى من نفسه، من سرعة نجاحه، انتشى من الدكتور هافيل الذي صاحبته عبقريته وتتغلغلت بداخله، انتشى من عري المرأة المضطجعة تحته خلال الوطء. تاق لأن يكون أستاذًا، لأن يكون بارعًا. أراد أن يثبت شبقه ونهمه. نهض قليلاً ليتفحّص بنظرة متلهّفة جسد الدكتورة الممدّد، وغمغم: "ما أجملك، ما أروعك، ما أروعك...".

وأخفت الدكتورة بطنها براحتيها، وقالت: "لا أسمح لك بالسخرية منّي...

-ماذا تقصدين بهذا الكلام! كما لو كنت أهزأ بك! إنّك رائعة!

-لا تنظر إليّ، قالت له وهي تضغطه إلى جسدها حتّى لا ينظر إليها. لقد أنجبت طفلين، أتعلم ذلك؟

-طفلين؟ قال الشاب من دون أن يفهم قصدها.

-إنّه أمر ظاهر، لا أرغب في أن تنظر إليّ.

كبحت هذه الملاحظة قليلاً اندفاع الشاب، ولم يسترجع درجة الإثارة المناسبة إلا بشقّ الأنفس. حاول في سبيل ذلك أن يغذّي تلك النشوة الجامحة، فوشوش في أذن الدكتورة أنّ وجودها عارية معه هنا، عارية تمامًا، أمر رائع.

فقالت له الدكتورة: "إنّك لطيف، لطيف للغاية".

واستمرّ الشاب في الحديث عن العري وعن الدكتورة، وسألها عمّا إذا كان وجودها، هي أيضًا، عارية معه هنا يثيرها.

قالت الدكتورة: "إنّك طفل. بالطبع هذا يثيرني". لكنّها أضافت بعد صمت قصير أنّ كثيرًا من الأطباء رأوها عارية في السابق إلى درجة أنّ ذلك صار مألوفًا لديها. واستطردت: "عدد من الأطباء يفوق عدد العشاق"، ومن دون أن يوقفا حركات الجماع، راحت تتحدّث عن ولاداتها العسيرة، وختمت كلامها قائلة: "إنّه أمر يستحقّ العناء. لديّ طفلان جميلان، في منتهى الجمال!".

ومن جديد فقد الصحافي الإثارة التي استعادها بعد لأي، وشعر فجأة كما لو أنه يثرثر مع الدكتورة في المقهى أمام فنجان شاي، فأحنقه ذلك. صارت حركاتها غاضبة، فحاول استمالتها بأمور أكثر إثارة: "عندما زرتك في المرّة الأخيرة، هل توقّعتِ أن نمارس الجنس؟

-وأنتَ؟

-كنت راغبًا في ذلك، كنت شديد التوق إليه". قال الصحافي وقد شحن كلمة "توق" بشغف جمّ.

فوشوشت الدكتورة في أذنه: "إنّك مثل ابني. هو أيضًا يريد الحصول على كلّ شيء. أسأله دائمًا: ألا ترغب في ساعة مزيّنة بنافورة؟".

وراحا يمارسان الجنس على هذا النحو. كانت الدكتورة تتحدّث وهي مسرورة بحديثهما.

وحين جلسا إثر ذلك جنبًا إلى جنب على الأريكة وهما عاريان ومنهكان، داعبت الدكتورة شعر الصحافي وقالت: "لديك خصلة شعر مثله.

-من؟

-ابني".

فعلّق الصحافي باستياء خجول: "إنك دائمة الحديث عن ابنك".

قالت الدكتورة بفخر: "إنّه مدلّل أمه كما تعلم، مدلّل أمه".

ثم نهضت وارتدت ملابسها. وفجأة ساورها شعور، وهي في شقّة رجل شاب، بأنّها شابة، امرأة في ريعان الشباب، وأحسّت بأنّها على أحسن حال. وعند الانصراف، ضمّت الصحافي بين ذراعيها وقد اغرورقت عيناها بالدموع امتنانًا.

12

بعد قضاء ليلة جميلة بدأ الدكتور هافيل يومًا جميلاً. تبادل خلال الفطور مع المرأة الشبيهة بفرس سباق أحاديث واعدة، وفي العاشرة عند عودته من حصة العلاج، وجد في انتظاره بالشقة رسالة غرامية من زوجته. إثر ذلك قصد الأروقة للنزهة في موكب المرضى، وهو يرشف من كوب ماء النبع ويشعّ ابتهاجًا. صارت عيون النساء اللواتي كنّ قبل أيام يمررن بمحاذاته من دون الانتباه إليه مصوبة عليه، فكان ينحني قليلاً لتحيّتهنّ. ولمّا لمح الصحافي، بادره بمرح: "لقد زرتُ الدكتورة قبل قليل، وبناء على مجموعة من المؤشرات التي لا يمكن أن تخفى على محلّل نفسي، يتهيّأ لي أنّك أفلحت!".

لم يكن للشاب رغبة أعتى من أن يبوح بما في نفسه لأستاذه، لكن الكيفية التي جرت بها الأمور في أمسية اليوم السابق جعلته متحيّرًا. فهو ليس واثقًا تمامًا من أنّ هذه الأمسية كانت جذّابة كما ينبغي، ولم يعد يدري ما إذا كان تقديم ملخص دقيق وصادق عنها للدكتور هافيل سيرفع مقامه أم سيزري به عنده، وتساءل عمّا عليه أن يقوله للطبيب، وما يتعيّن عليه أن يخفيه.

لكنّه عندما رأى وجه الدكتور هافيل يتألّق فجورًا ومرحًا، لم يعد بإمكانه إلا أن يجيبه بالنبرة المرحة الطائشة نفسها، ومضى يطري بألفاظ مفعمة بالحماسة على المرأة التي نصحه بها الدكتور هافيل. قال إنّها سحرته منذ شرع ينظر إليها بعيون أخرى غير عيون الريف، وحكى أنّها قبلت بلهفة المجيء إلى بيته وأنها منحته نفسها بسرعة فائقة.

وحين شرع الدكتور هافيل في استفساره بدقّة وتفصيل حتّى يتسنّى له تحليل الأمر من كلّ جوانبه، اضطرّ الشاب، طوعًا أو كرهًا، للاقتراب أكثر فأكثر من الحقيقة، وانتهى به المطاف إلى الاعتراف بأنّه إن كان شعر بالرضا من كل الجوانب، فإنّ الحديث الذي ساقته الدكتورة أثناء الجماع أصابه بشيء من الارتباك.

أبدى الدكتور هافيل كثيرًا من الاهتمام بذلك. ولمّا أعاد الصحافي على مسامعه بتفصيل، تحت إلحاحه، الحوار الذي دار بينهما، راح الدكتور يردّد عبارات تعجّب حماسية من قبيل: "ممتاز! مضبوط!" و"يا لقلب الأم الأبدي!" و"إنّي أغبطك يا صديقي!".

في هذه الأثناء وصلت المرأة الشبيهة بفرس السباق، وتسمّرت أمام الرجلين. انحنى الدكتور هافيل فمدّت له يدها مصافحة وهي تقول: "أعتذر، لقد تأخّرت قليلاً!

-لا أهمية لذلك، قال الدكتور هافيل. إنّني أخوض في حديث مهم مع صديقي، أرجو أن تعذريني لحظة ريثما ننتهي".

ودون أن يترك يد المرأة الفارعة، استدار نحو الصحافي وقال: "إنّ ما حكيت لي يا صديقي يتجاوز كل التوقّعات، إذ ينبغي أن تدرك أن إهمال التسليات الجنسية في خرسها يحولها إلى رتابة كئيبة. فالنساء متماثلات في الشهوة، ولذلك يُنسي بعضهنّ بعضًا. ومع ذلك، نحن إذا كنّا نسارع إلى شهوة الجنس، فلكي نتذكّرها، لكي تربط نقطُها المضيئة بشريط مشرق بين شبابنا وشيخوختنا، لكي تحافظ على ذاكرتنا متّقدة بشكل أبدي! واعلم يا صديقي أنّ كلمة تقال في هذه المقامات، مهما كانت تفاهة تلك الكلمة، هي وحدها التي تسلط عليها نورًا يجعلها لا تنسى. يقال عنّي إنّني هاوي نساء، وأنا بالأحرى هاوي كلمات. صدّقني، فلن تنسى أبدًا سهرة الأمس، وستغمرك بالسعادة طوال حياتك!".

ثم أومأ للشاب مودّعًا، ومضى ببطء مبتعدًا بصحبة المرأة الشبيهة بفرس السباق وهو يمسك بيدها.

إدوارد والرب

1

لنبدأ قصّة إدوارد في البيت الريفي الصغير الذي يملكه شقيقه الأكبر. كان هذا الشقيق مضطجعًا على أريكة وهو يقول لإدوارد: "بإمكانك أن تبحث عن تلك المرأة من دون خوف. من المؤكّد أنّها امرأة وقحة، لكنّني أعتقد بأنّ حتّى هؤلاء الناس لديهم ضمير. ولأنّها كادت لي على نحو قذر في الماضي، فلربّما سعدت الآن بتقديم خدمة لك تكفيرًا عن ذنبها".

ظلّ شقيق إدوارد كما هو دائمًا: شهم وخمول. لعلّه كان ممدّدًا على هذا النحو على أريكته في حجرة الدراسة العلوية قبل سنوات عديدة (كان إدوارد لا يزال حينها صبيًا) يوم وفاة ستالين، وهو يوم قضاه في حجرته متكاسلاً وغافيًا. وفي الغد ذهب إلى الكليّة من دون أن يشتبه في شيء، فلمح إحدى زميلاته في الصفّ، الرفيقة سيشاكوفا، واقفة وسط الردهة في جمود مهيب أشبه ما تكون بتمثال للألم، فدار بها دورات ثلاث، ثمّ انصرف وهو يقهقه عاليًا. اغتاظت الفتاة، واعتبرت هذا الضحك استفزازًا سياسيًا، فاضطرّ شقيق إدوارد إلى ترك الدراسة،

والانتقال للعمل في إحدى القرى حيث يملك الآن منزلاً وكلبًا وزوجة وطفلين، بل حتّى شاليه لقضاء عطل نهاية الأسبوع.

وهو الآن مضطجع على أريكته في هذا المنزل الريفي يشرح لإدوارد: "كانوا يلقبونها ذراع الطبقات العاملة الانتقامية، لكن هذا لا ينبغي أن يخيفك. إنّها امرأة ناضجة اليوم، وقد كانت دائمًا تبدي ضعفًا أمام الشباب، لهذا ستساعدك".

كان إدوارد حينئذ لا يزال صغيرًا. أنهى لتوّه الدراسة في الجامعة (وهي الجامعة نفسها التي طرد منها شقيقه) وراح يبحث عن منصب عمل. وعملاً بنصيحة شقيقه، قصد في اليوم اللاحق مكتب المديرة. طرق الباب، فاكتشف امرأة طويلة، بارزة العظام بشعرها الأسود الكثيف وعينيها السوداوين، وأنفها الذي كسا أسفله زغب أسود. هذه الدمامة جنّبته الارتباك الذي طالما لازمه في شبابه عندما يكون بمحضر الجمال الأنثوي، إذ تمكّن من التحدّث إليها باللطف واللباقة اللازمين من دون اضطراب. وقد راقت هذه النبرة للمديرة بشكل واضح، فأكّدت له مرارًا ببالغ الحماسة: "إنّنا في حاجة إلى الشباب هنا"، ووعدته بدعم ترشيحه.

2

هكذا صار إدوارد معلّمًا بإحدى المدن الصغيرة في بوهيميا، وهو ما لم يشعره بالسعادة ولا بالشقاء. فقد كان يجهد نفسه دائما لكي يميّز بين الجدية واللاجديّة، وكان يضع مهنته كمعلم في خانة اللاجدية، ليس لأن مهنة التعليم تعدم الجديّة في حد ذاتها

(وقد كان متمسّكًا بها، إذ لم يكن بوسعه أن يكسب قوته بطريقة أخرى)، بل كان يعتبرها غير جدية بالنظر إلى جوهر ذاته. فهو لم يخترها، بل فرضها عليه الطلب الاجتماعي وتقديرات قسم الموظفين وشواهد المدرسة الثانوية ونتائج مباراة الدخول. وبفعل اجتماع هذه القوى قذف من الثانوية إلى الكليّة (مثلما تُسقط رافعة كيسًا فوق شاحنة). تسجّل فيها على مضض (إذ كان إخفاق شقيقه فأل شؤم)، ولكن الأمر انتهى به إلى الاستسلام. عدا أنّه كان يدرك أنّ مهنته تدخل ضمن مصادفات حياته، وأنّها ستلتصق به مثل شارب مستعار مثير للضحك.

لكن، إذا كان الشيء المفروض يعدّ شيئًا غير جدّي (يدعو للضحك)، فالشيء الجديّ هو بلا شك شيء اختياري: ذلك أنّ إدوارد ما لبث أن التقى في محلّ إقامته الجديد فتاة بدت له جميلة، وشرع يتفرّغ لها بجديّة تكاد تكون صادقة. كانت تسمّى "أليس"، وكانت متحفّظة وفاضلة كما تأكّد له منذ لقاءاتهما الأولى، وهو ما أحزنه.

قام بمحاولات عديدة خلال نزهاتهما المسائية لاحتضان كتفيها على نحو يستطيع معه لمس جنب نهدها الأيمن من الخلف، وفي كلّ مرة كانت تمسك بيده وتبعدها. وذات مساء بينما أعاد هذه المحاولة مرّة أخرى، فأبعدت يده (مرّة أخرى)، توقّفت فجأة وقالت: "هل تؤمن بالرب؟".

ولمست أذنا إدوارد الحساستان في هذا السؤال إصرارًا خفيًا، فنسي النّهد فورًا.

"هل تؤمن بالرب؟" كرّرت "أليس"، ولم يجرؤ هو على

الجواب. علينا ألا نؤاخذه على عدم امتلاك شجاعة المجاهرة بالحقيقة. كان يشعر بنفسه مهملاً في هذه المدينة التي وفد عليها حديثًا، و"أليس" راقته كثيرًا حتّى إنه خشي فقدان صداقتها بجواب وحيد بسيط. لذلك سألها حتّى يربح الوقت: "وأنت؟

-أنا أحبّه". قالت «أليس» وألحّت عليه من جديد كي يجيب.

لم تتبادر إلى ذهنه تمامًا في حدود تلك اللحظة فكرة الإيمان بالرب، لكنّه كان يدرك أنّ عليه ألا يبوح بالحقيقة، بل عليه، خلافًا لذلك، أن يغتنم الفرصة، فيجعل من إيمانه حصانًا من خشب يختبئ بداخله تبعاً للأسطورة القديمة، ليتمكّن من التسلل خلسة إلى قلب الفتاة. عدا أنّ إدوارد كان عاجزًا عن أن يقول لـ"أليس" ببساطة: نعم أؤمن بالرب. ذلك أنّه لم يكن صفيقًا، وكان يخجل من الكذب، لأنّ بساطة الكذب الساذج غير المتقن كانت تنفّره. فإذا لم يجد من الكذب بدّ، كان يحرص على الأقل أن يكون أقرب إلى الحقيقة؛ فأجاب إذًا بنبرة مستغرقة:

"لست أدري كيف أجيبك عن هذا السؤال، يا "أليس". أؤمن بالرب بطبيعة الحال، ولكن..."، وصمت، فرفعت إليه "أليس" عينين مذهولتين، "ولكنّني أودّ أن أكون صريحًا معك. هل بإمكاني أن أكون صريحًا معك؟

-إنه أمر واجب، قالت "أليس"، فمن دون صراحة لا داعي للاستمرار معًا.

-حقًّا؟

-حقًّا، ردّت "أليس".

-تنتابني بعض الشكوك أحيانًا، قال إدوارد بصوت مخنوق. في بعض الأحيان أتساءل ما إذا كان موجودًا حقًّا.

-ولكن، كيف تشكّ في ذلك؟" قالت «أليس» بما يشبه الصراخ.

صمت إدوارد، وبعد لحظة تفكير تذكّر البرهان التقليدي: "لمّا أرى حولي كل هذا البؤس، أتساءل عمّا إذا كان من الممكن أن يوجد ربّ يسمح بكل هذا".

كان يتحدّث بصوت بالغ الحزن جعل "أليس" تمسك بيده وتقول: "أجل، هذا صحيح. ثمّة كثير من البؤس في هذه الدنيا. أعلم ذلك جيّدًا، ولكن لهذا السبب تحديدًا يلزم الإيمان بالرب. فمن دونه سيكون كل هذا العذاب عبثًا، ولا شيء سيكون له معنى، وفي هذه الحالة لن يكون في مقدوري أن أعيش.

-أنت محقّة ربما" قال إدوارد بنبرة حالمة. وفي يوم الأحد اللاحق، رافقها إلى الكنيسة، وبلّل أصابعه في جرن الماء المقدس، ورسم شارة الصليب. بعد ذلك أقيم القداس وتعالت التراتيل، فأنشد مع الحاضرين أغنية دينية يجهل كلماتها، ولا يذكر لحنها إلا بشكل غامض. قرّر إذًا أن يعوّض الكلمات بحروف اللين. وكان يصاحب نوتاتها متأخرًا بجزء من الثانية عن الآخرين، لأنّه لم يكن يتقن اللحن. لكنّه لمّا لاحظ أنه يرتّل على نحو صحيح، مضى يستمتع بجرس صوته، إذ اكتشف لأوّل مرّة في حياته أنّه يملك صوتًا جهوريًا جميلاً. ثم أنشدوا "أبونا"، فركعت بعض النسوة العجائز. لم يستطع مقاومة الإغراء، فركع

هو أيضًا على البلاطة، ورسم شارة الصليب بحركات مبالغ فيها. وبينما كان يقوم بذلك، ساوره إحساس رائع بأنه يفعل شيئًا لم يسبق أن فعله في حياته قطّ، ولا يستطيع فعله في الصفّ ولا في الشارع ولا في أي مكان آخر. وشعر بنفسه حرًّا على نحو عجيب.

حين انتهى كل شيء، نظرت إليه "أليس" بعينين متلهّفتين وسألته: "أما زلت تقول إنك تشكّ في وجوده؟

-كلا"، قال إدوارد.

فقالت «أليس»: "سأعلّمك كيف تحبّه مثلما أحبّه أنا".

وقفا على الدرجات الواسعة بفناء الكنيسة وقد غمر قلبه المرح. لكن لسوء حظّه، مرت بقربهما في هذه الأثناء مديرة المدرسة، فلمحتهما.

3

كان ذلك منكّدًا. ينبغي أن أذكر (لمن غابت عنهم الخلفية التاريخية) بأن الكنائس في هذه الفترة لم تكن ممنوعة، ولكن لم يكن ارتيادها مع ذلك بلا مخاطر.

وهو أمر ليس من العسير فهمه: فأولئك الذين ناضلوا من أجل ما يسمّونه الثورة ما زالوا يشعرون بكثير من الفخر: فخر وجودهم في الجانب المناسب من خط الجبهة. وبعد مرور عشر أو اثنتي عشرة سنة (وحكايتنا تجري في هذه المرحلة تقريبًا)، كان خطّ الجبهة قد أخذ في التلاشي، ومعه جانبا هذا الخط الجيد والسيئ. فلا غرابة إذًا أن يشعر أنصار الثورة القدامى بالإحباط، وأن يبحثوا بنفاد صبر عن جبهات بديلة. وسمح لهم

الذين أن يجدوا أنفسهم من جديد (من خلال دورهم كملاحدة يناضلون ضد المؤمنين) في الجانب الجيد، وأن يحافظوا على سموّ مقامهم بأبّهتهم المألوفة والأثيرة.

لكن جبهة التعويض هذه كانت في الحقيقة نعمة بالنسبة للآخرين الذين -والكشف عن هذا ليس سابقًا لأوانه ربّما- تشكل "أليس" واحدة منهم. فمثلما تريد المديرة أن تكون في الجانب الجيد، تريد "أليس" أن تكون في الجانب المقابل. فقد أمّموا متجر أبيها خلال أيام الثورة، وهي ناقمة على من دبّروا هذه المكيدة. ولكن، كيف لها أن تعبر عن نقمتها؟ أتتأبّط سكينًا وتروح تثأر لأبيها؟ لم تكن هذه هي العادة في بوهيميا. وجدت "أليس" وسيلة أفضل للتعبير عن معارضتها: الإيمان بالرب.

بهذه الكيفية هبّ الرب، هبّ لنجدة الفريقين معًا، وبسببه وجد إدوارد نفسه بين نارين.

ولما جاءت المديرة صباح يوم الاثنين تبحث عنه في قاعة الأساتذة، شعر بضيق شديد. بطبيعة الحال لم يكن باستطاعته أن يستحضر الأجواء الوديّة التي خيّمت على لقائهما الأول، لأنّه منذ ذلك اليوم لم يسع قطّ (بفعل سذاجته أو إهماله) إلى استئناف محادثتهما الظريفة. لذلك عمدت المديرة إلى استفساره وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة مغتصبة:

"لقد التقينا بالأمس، أليس كذلك؟

-أجل، التقينا، قال إدوارد.

-لست أفهم كيف لشاب مثلك أن يرتاد الكنيسة؟"

استطردت المديرة، فهزّ إدوارد كتفيه وقد بدا عليه الضيق. حرّكت المديرة رأسها وقالت: "رجل شاب.

-لقد ذهبت لاكتشاف الطراز الداخلي الباروكي للكاتدرائية، قال إدوارد كما لو أنه يعتذر.

-الأمر هكذا إذًا، قالت المديرة بسخرية. لم أكن أعلم أنك تهتم بالهندسة المعمارية".

لم ترق هذه المحادثة لإدوارد، وتذكّر طواف شقيقه بزميلته في الصف مرّات ثلاث، وقهقهته عاليًا وهو ينصرف، وبدا كما لو أن المغامرة العائلية نفسها تتكرّر، فساوره الخوف. وعندما حلّ يوم السبت، اتصل هاتفيًا بـ "أليس" ليعتذر عن مرافقتها للكنيسة بأنه مصاب بضربة برد.

ولمّا التقاها في الأسبوع التالي، قالت له بنبرة مؤنّبة: "إنك رهيف جدًا، وتهيّأ لإدوارد أنّ كلام الفتاة تعوزه الرقة، فراح يكلّمها إذًا (بطريقة ملغزة وملتبسة، لأنّه كان يخجل من الاعتراف بخوفه وبدوافعه الحقيقية) عن المآسي التي يعيشها في المدرسة، وعن المديرة الرهيبة التي تضطهده بلا سبب ظاهر. كان يقصد إلى إثارة شفقة "أليس"، لكنها قالت له:

"أما أنا فرئيستي في العمل رائعة" وراحت تحكي بمرح طرائف عملها. وظلّ إدوارد ينصت للغوها المرح بينما كانت تعاسته تتعاظم.

4

مرّت على إدوارد أيّها السادة والسيدات أسابيع من العذاب! وعانى من شوق حارق لـ"أليس". كان جسدها يثيره، لكنه كان بعيد المنال. وكانت الأمكنة التي يلتقيان فيها موجعة أيضًا: كانا

يقضيان ساعة أو ساعتين بالتسكع في الأزقة المظلمة، أو يذهبان إلى السينما. وكانت رتابة هذين البديلين (اللذين لم يكن ثمّة سواهما)، والإمكانات الجنسية الهزيلة التي تسمح بها، كل ذلك جعل إدوارد يعتقد بأنّه ربما يلاقي نجاحًا مع "أليس" لو أتيح له لقاؤها في محيط آخر، فاقترح عليها إذًا، وقد علت محياه ملامح السذاجة، أن ترافقه خلال عطلة الأسبوع إلى الريف، إلى الشاليه الذي يملكه شقيقه جنب الماء في واد كثيف بالأشجار. صوّر لها بحماسة مفاتن الطبيعة البريئة، لكن "أليس" (الساذجة والواثقة في ميادين أخرى) أدركت مرماه، فرفضت بفظاظة. ولم تكن "أليس" وحدها التي تصمد في وجهه، بل أيضًا رب "أليس" (الحذر والمتيقظ على الدوام) شخصيًا.

كان هذا الربّ يستمد جوهره من فكرة واحدة (ليست له رغبات ولا آراء أخرى سواها): تحريم الممارسات الجنسية خارج الزواج. كان إذًا ربًّا مثيرًا للضحك بالأحرى، ولكن لا ينبغي أن يجعلنا هذا نسخر من "أليس". فمن أصل عشر وصايا نقلها موسى للإنسانية، تسع منها لم تكن تعرّض روحها لأيّ خطر، لأنّ "أليس" لم تكن تفكّر في القتل، ولا في جلب العار لأبيها، ولا في إغواء أزواج أقربائها؛ ثمّة وصية واحدة لم تكن تبدو لها بديهية، وتشكل من ثمّة تحديًا حقيقيًا: إنها الوصية السابعة لا تزنِ أبدًا. لذلك كان عليها لكي تظهر إيمانها وتؤكّده أن توجه كل عنايتها لهذه الوصية، ولها وحدها. وبهذا جعلت من ربّ مبهم، شائع ومجرّد، إلهًا محدّدًا ومعقولاً وملموسًا: ربّ مناوئ للزنا.

ولكنّني أسألكم أين يبدأ الزنا بالضبط؟ فكل امرأة ترسم هذه الحدود بناء على معايير غامضة تمامًا. فقد كانت "أليس" تسمح بطيب خاطر لإدوارد بتقبيلها، وبعد محاولاته العديدة وافقت في الأخير على أن يداعب نهديها، عدا أنها كانت ترسم في منتصف جسدها خطًّا فاصلاً صارمًا لا تسمح بتجاوزه، تمتدّ تحته منطقة المحرمات المقدّسة وتعنّت موسى والغضب الإلهي.

وشرع إدوارد في قراءة الإنجيل والكتابات اللاهوتية، وقرّر أن يتصدّى لـ"أليس" بأسلحتها نفسها.

قال لها: "صغيرتي «أليس»، لا شيء محرّم على من يحبّ الرب. فنحن عندما نرغب في شيء، نفعل ذلك بفضل رحمته. والمسيح لم يكن يعنيه إلا شيء واحد: أن نهتدي بالحب.

-لا شكّ في ذلك، أجابت "أليس"، ولكن ليس الحب الذي تفكّر فيه.

-ثمّة حبّ واحد فقط، ردّ إدوارد.

-هذا يخدمك، هه؟ قالت "أليس"، إلا أنّ الرب أقرّ بعض الوصايا، وعلينا الامتثال لها.

-نعم، إنه ربّ العهد القديم، ليس ربّ النصارى، ردّ إدوارد.

-كيف؟ الربّ واحد، أجابته "أليس".

-أجل، قال إدوارد، إلا أن يهود العهد القديم لا يتصورونه مثلنا. فقبل مجيء المسيح كان على الإنسان أن يمتثل لنسق من القوانين والوصايا الإلهية. ولم يكن لما يجري في نفسه أهمية

كبيرة. لكن المسيح اعتبر كل هذه التحريمات والأوامر شيئًا خارجيًا، وغدا الأهمّ في نظره هي حقيقة الإنسان الداخلية العميقة. فانطلاقًا من اللحظة التي يتبع فيها الإنسان فضيلة وجوده الورع المؤمن، يصير كل ما يفعله خيرًا ويروق للرب. ولهذا كان القديس بولس يقول: كل شيء طاهر بالنسبة للطاهرين.

-شريطة أن يكون المرء طاهرًا أجابت "أليس".

واستطرد إدوارد: "وقال القديس أغوسطين: أحبّ الرب وافعل ما شئت، أفهمتِ يا "أليس"؟ أحبّ الرب وافعل ما شئت.

-إلا أن ما تحبّه أنت غير ما أحبّه أنا، أجابت "أليس"". وأدرك إدوارد أنّ هجمته الكهنوتية أخفقت تمامًا هذه المرة أيضًا، ولهذا قال: "أنت لا تحبينني".

أجابته "أليس" باقتضاب رهيب: "بلى، لهذا السبب لست أرغب في فعل شيء لا ينبغي لنا أن نفعله".

وكما سبق أن قلت، كانت تلك الأسابيع مثقلة بالعذاب. وما كان يضاعف عذابه هو أن حبّه لـ"أليس" لم يكن حبّ جسد لجسد فحسب، بل بخلاف ذلك، كلّما صدّه جسدها، تعاظمت تعاسته وحنينه، وازداد أيضًا عشقه لقلب الفتاة. لكن لا جسد "أليس" ولا قلبها كانا يلتفتان لتعاسته. فقد كانا كلاهما فاترين، منغلقين معًا على نفسيهما وراضيين.

ما كان يضايق إدوارد أكثر في "أليس"، هي رزانتها التي لا تتزحزح. ورغم أنه كان هو نفسه شابًا متّزنًا، فقد شرع يحلم

بعمل متطرف يخرج "أليس" من رزانتها. وبما أن استفزازها بالقذف والتجديف (اللذين كانت تدفعه إليهما طبيعته) محفوف بالمخاطر، فقد اضطر للجوء إلى تطرّف مناقض (ومن ثمة فهو أصعب بكثير) ينبع من موقف "أليس" ذاته، ولكن يدفعه إلى حدوده القصوى على نحو يجعل "أليس" تخجل من تحفظها الفاتر. بعبارة أخرى: أبدى إدوارد ورعًا مغاليًا. لم يعد يهدر أي فرصة تتاح له للذهاب إلى الكنيسة (كانت رغبته في "أليس" أعتى من خوفه من المتاعب)، وصار يتصرّف فيها بخشوع غريب. كان يركع لأوهى الذرائع، في حين تظلّ "أليس" واقفة إلى جانبه تتلو صلواتها وترسم شارة الصليب، لأنّها تخاف من انسلال جواربها.

وذات يوم عاب عليها فتور إيمانها، وذكّرها بكلام يسوع: "أولئك الذين يقولون لي: ربي، ربي! لن يدخلوا جميعهم الجنة". قال لها إنّ إيمانها شكلي وظاهري وهش. عاب عليها حياتها الباذخة. عاب عليها رضاها على نفسها المبالغ فيه. وعاب عليها كونها لا ترى إلا نفسها من دون ما يجري حولها.

وبينما كان يتكلم (ولم تكن "أليس" مستعدّة لهذه الهجمة، لذلك بدا دفاعها ضعيفًا)، لمح صليبًا قديمًا من البرونز عليه تمثال للمسيح من الحديد الأبيض الصدئ، ينتصب وسط الشارع، فسحب ذراعه من ذراعها بعنف، وتوقف (للانتفاض على لامبالاة الفتاة، وتسجيل بداية هجمة جديدة)، وراح يرسم في الهواء شارة الصليب بحركات استعراضية مفخّمة، لكنه لم يتمكّن من ملاحظة أثر تلك الحركات على "أليس"، لأنه لمح

في تلك الأثناء حارسة المدرسة على الجانب الآخر من الطريق. كانت تحدّق فيه، فأدرك أنّه في ورطة.

5

وبعد يومين تأكدت مخاوفه حين أوقفته الحارسة في الممر وأخبرته بصوت عال أنّ عليه الحضور في الغد مساءً إلى مكتب المديرة: "نحن بحاجة إلى محادثتك أيّها الرفيق".

تمكّن القلق من إدوارد، وفي المساء ذهب كالعادة إلى موعده مع "أليس"، وتجوّلا في الشوارع، لكنه تخلّى عن حماسته الدينية. كان مغتمًّا، وأراد أن يشرك "أليس" فيما يقع له، لكنه لم يكن يملك الشجاعة لذلك، لأنّه كان يعلم بأنه مستعدّ لخيانة الرب من دون أدنى تردد في سبيل الحفاظ على عمله غير المحبوب (ولكنه ضروري). لذلك لم يقل شيئًا عن الدعوة المشؤومة، ولم يسمع من ثمّة أيّ عبارة مواساة. ووفد في اليوم التالي على مكتب المديرة وقد غمره شعور بالوحدة.

كان بانتظاره في الحجرة أربعة قضاة: المديرة والحارسة وأحد زملائه (قصير القامة ويضع نظارات) وشخص (أشيب) لم يعرفه، وكان الآخرون يدعونه الرفيق المفتش. دعت المديرة إدوارد إلى الجلوس ثم قالت له إنّهم استدعوه إلى مقابلة ودّية تمامًا وغير رسميّة، لأنهم كانوا جميعًا بالغي القلق بشأن الكيفية التي يتصرّف بها خارج المدرسة. كانت وهي تتحدث تنظر إلى المفتّش الذي مضى يحرك رأسه موافقًا على ما تقول، ثمّ التفتت للمعلم ذي النظارتين، الذي ما انفكّ ينظر إليها باهتمام طوال

تلك المدّة، والذي ما إن نظرت إليه حتّى شرع في خطبة طويلة. قال إننا نتوق إلى تربية جيل سليم وبعيد عن الأحكام المسبقة، وإننا مسؤولون بالكامل عن هذا الشباب لأننا - معشر المدرسين - نمثّل قدوة، ولا يمكن أن نسمح بوجود المتدينين بيننا. ومضى يفصّل هذه الفكرة خالصًا إلى أنّ سلوك إدوارد يمثّل فضيحة للمؤسسة برمّتها.

دقائق قبل ذلك، كان إدوارد مقتنعًا بأنّه سيتنكّر لربّه المكتشف مؤخرًا، وسيعترف بأن زيارته للكنيسة وشارة الصليب التي قام بها أمام الملأ لم تكن سوى حماقات، لكنّه لما رأى هذا الواقع أمامه، شعر بأنّ من المستحيل الاعتراف بالحقيقة. فمهما يحصل، لن يقول لهؤلاء الأربعة الذين هم بهذا القدر من الجدية والرصانة إنهم يشغلون أنفسهم عن سوء فهم وسخافة. كان يدرك أنّه إن قال لهم هذا، فسيبدو، رغمًا عنه، كما لو أنه يسخر من جديتهم. كان يعلم أن هؤلاء الناس لا ينتظرون منه سوى الاعتذار والأسف، وهم متأهبون لرفض ذلك. أدرك (دفعة واحدة، لأنّه لم يكن يملك الوقت للتفكير) أنّ الأهمّ بالنسبة إليه في تلك اللحظة هو أن يظلّ قريبًا من الحقيقة، أو بالأحرى، قريبًا من الصورة التي شكّلها هؤلاء عنه. فإذا كان يريد تصحيح هذه الصورة، فعليه أن يقبلها بشكل من الأشكال. لهذا قال:

"أيها الرفاق، هل لي أن أتحدّث بصراحة؟

-بالطبع، قالت المديرة. فأنت حاضر هنا لهذا الغرض.

-ولن تحنقوا عليّ؟

-قل ما لديك، ردّت المديرة.

-إذًا سأعترف لكم بكل شيء، قال إدوارد. إنّني أؤمن بالربّ حقًّا".

رفع بصره إلى قضاته واستطاع أن يلاحظ الارتياح الذي علاهم جميعًا، ووحدها الحارسة صرخت به: "اليوم أيّها الرفيق! في عصرنا هذا!".

واسترسل إدوارد: "كنت أعلم أنّني سأثير حفيظتكم عليّ بقول الحقيقة. لكنّني لم أتعود على الكذب. فلا تطلبوا منّي أن أكذب عليكم".

قالت له المديرة (بهدوء): "لا أحد يطالبك بالكذب. أنت محقّ بقولك الحقيقة. لكن ما أريده هو أن تشرح لي كيف لشاب مثلك أن يؤمن بالرب!

-اليوم، في هذا الزمن الذي نبعث فيه صواريخ إلى القمر! أضاف المعلم بانفعال بالغ.

-الأمر خارج عن إرادتي، قال إدوارد. أنا لا أرغب في الإيمان بالرب. لا أرغب في ذلك حقًّا.

-كيف لا ترغب وأنت تؤمن به!"، بادره الأشيب (بنبرة ودودة جدًّا).

وكرّر إدوارد اعترافه بصوت خافت: "لا أرغب في الإيمان به ولكنّني أؤمن".

ضحك المعلم ذو النظارتين: "كلامك متناقض!

-أيّها الرفاق، إنّني أقول لكم الأشياء كما هي، قال إدوارد. أعلم جيدًا أنّ الإيمان بالربّ يبعدنا عن الحقيقة. كيف سيكون

مصير الاشتراكية لو آمن الجميع بخضوع العالم لمشيئة الربّ؟ لن يفعل أحد شيئًا، وسيفوّض الناس له أمرهم.

-هذا صحيح، قالت المديرة.

-لم يبرهن أحد قطّ على وجود الرب" أعلن المعلم صاحب النظارتين.

واستطرد إدوارد: "الفرق بين تاريخ البشرية وما قبل تاريخها هو أن الإنسان تولّى مسؤولية قدَرِه، ولم يعد في حاجة إلى الرب.

-الإيمان بالرب يؤدي إلى الجبريّة، قالت المديرة.

-الإيمان بالرب يعدّ من بقايا العصور الوسطى"، قال إدوارد. ثم قالت المديرة شيئًا ما، ثم المعلم ثم إدوارد ثم المفتش، وكانت كلّ تلك الأفكار تتكامل بشكل متناغم، بحيث إنّ المعلم صاحب النظارتين لم يعد يتمالك نفسه وقاطع إدوارد:

"فلماذا إذًا تقوم بشارة الصليب في الشارع، ما دمت تعرف كلّ هذا؟".

وحدجه إدوارد بنظرة مفعمة بالأسى ثم قال: "لأنّني أؤمن بالرب.

-ولكن كلامك متناقض، كرّر المعلم صاحب النظارات متهلّلاً.

-أجل، قال إدوارد، ثمّة تناقض بين المعرفة والإيمان. أعترف بأن الإيمان بالرب يؤدي إلى الظلامية، وأعترف بأن من الأفضل ألا يكون الرب موجودًا، ولكن ماذا عساني أفعل لما

أشعر هنا، في أعماقي مشيرًا بسبابته إلى قلبه - بأنّه موجود؟ أرجو أن تفهموني أيّها الرفاق! إنّني أقول لكم الأمور كما هي، ومن الأفضل أن أقول لكم الحقيقة، لأنّني لا أريد أن أكون منافقًا، أريد أن تعرفوني على حقيقتي"، ثم طأطأ رأسه.

كان نظر المعلم قصيرًا، لذلك لم يكن يعلم أن حتّى الثوروي الأكثر تطرّفًا ينظر إلى العنف كشرّ لا بد منه، في حين أنّ فضيلة الثورة هي إعادة التربية. لم يكن هو نفسه، المتحوّل إلى عقيدة الثورة بين ليلة وضحاها، يكنّ احترامًا للمديرة، ولم يخطر بباله في هذه اللحظة أن إدوارد أفضل منه بألف مرّة. صحيح أن إدوارد ماثل أمام قضاته كحالة مستعصية تحتاج إلى إعادة التربية، ولكنه مطاوع. وبما أن المعلّم لم يكن يشكّ في ذلك، فقد شنّ على إدوارد حينئذ هجمة شرسة، مدّعيًا أنّ أمثاله ممّن عجزوا عن ترك إيمانهم القروسطي، هم أناس قروسطيون، ولا مكان لهم في المدرسة الجديدة.

تركته المديرة ينهي كلامه، ثم دعته للانضباط: "لا يعجبني إسقاط الرؤوس. الرفيق كان صادقًا وباح لنا بالحقيقة، وهو أمر ينبغي أن نأخذه في الاعتبار". ثم استدارت نحو إدوارد: "إنّ الرفاق محقّون حين قالوا إنه لا يسمح للمتدينين بأن يربوا شبيبتنا. وبناء عليه، قل لنا أنت ماذا تقترح.

-لست أدري أيّها الرفاق، قال إدوارد بنبرة حزينة.

-إليكم ما أرى، قال المفتّش. الصراع بين القديم والحديث لا يجري بين الطبقات فحسب، بل حتّى داخل كل فرد من الأفراد. وهذا الصراع هو الذي نراه لدى الرفيق. فهو يعرف،

لكن إحساسه يعيده إلى الخلف. فعلينا إذًا أن نساعده حتّى ينتصر العقل بداخله".

وافقت المديرة، ثم قالت: "ممتاز، سأتكفّل به شخصيًا".

6

نجح إدوارد إذًا في صدّ الخطر المباشر، وصار مصير مهنته كمعلم محصورًا بين يدي المديرة، وهو ما أشعره بنوع من الارتياح: تذكّر فعلاً كلام شقيقه الذي قال له إن المديرة كانت تبدي دائمًا ضعفًا أمام الشباب، فقرّر رغم كل تقلّبات وثوقه الشبابي (المفرط تارةً، والمشوب بالشك تارة أخرى) أن يخرج منتصرًا من هذه التجربة وذلك بنيل حظوة وليّة نعمته.

ولما زارها في مكتبها بعد بضعة أيام كما كان مقرّرًا، حاول أن يتكلّم بمرح، وألا يهدر أي فرصة تواتيه من دون أن يضمّن كلامه ملاحظة ودودة أو إطراء لطيفًا، أو أن يلمّح بغموض خفي لفرادة حالته: أيّ حالة رجل تحت رحمة امرأة. لكن لم يكن مسموحًا له بأن يكون هو من يختار لهجة المحادثة. فقد تحدّثت إليه المديرة بطريقة ودودة، لكن بتحفّظ بالغ. سألته عمّا يقرأ، ثم أشارت إلى عناوين كتب عديدة، ونصحته بقراءتها، لأنّها تنوي في ما يبدو القيام بعمل طويل النفس يستهدف فكره. وفي نهاية اللقاء، دعته لزيارتها في بيتها.

وانتصر هذا التحفظ على ثقة إدوارد المصطنعة، ودخل إلى شقة المديرة الصغيرة مطأطأ الرأس، بلا أدنى نيّة في إغرائها بسحره الذكوري. أجلسته على أريكة، وشرعت تحدّثه بنبرة

ودودة، وسألته عمّا يريد: ربما فنجان قهوة؟ أجاب بالسلب؛ إذًا فهو يرغب في كأس من الكحول؟ شعر بالحرج: "إذا كان لديك كونياك"، وخشي على التوّ أن يكون تفوّه بشيء غير مناسب، لكنّ المديرة أجابت بودّ: "لا، ليس عندي كونياك، كل ما عندي قليل من النبيذ..." وأحضرت زجاجة نصف فارغة يكفي محتواها بالكاد لملء كأسين.

ثم قالت إن على إدوارد ألا يعتبرها محقّقة؛ فكل شخص له الحقّ بطبيعة الحال في أن تكون له معتقداته التي يراها صحيحة. بالإمكان التساؤل (أضافت على الفور) حول ما إذا كان الشخص يصلح للتعليم أم لا يصلح، ولهذا السبب وجدوا أنفسهم مضطرّين لاستدعائه (وإن كان ذلك على مضض) ومجادلته، وأنّهم كانوا راضين جدًّا (على الأقلّ هي والمفتش) على الصدق الذي تحدّث به، ولم يحاول أن ينكر شيئًا. ثمّ إنها تحدّثت مطولاً مع المفتش عن إدوارد، وقررا استدعاءه للقاء جديد بعد ستة أشهر، وإلى أن يحين هذا الموعد، يتعيّن على المديرة أن تيسّر تطوّره. وأشارت مرّة أخرى إلى أنّ العون الذي تنوي تقديمه له لا يمكن أن يكون سوى عونًا أخويًّا، وأنها ليست محقّقة ولا شرطية. بعد ذلك تحدّثت عن المعلم الذي تصدّى لإدوارد بقساوة، وقالت: "هو أيضًا له أعداء، وسيكون مسرورًا بتوريط الآخرين. أما الحارسة فتذيع في كل مكان أنّك كنت وقحًا، وأنّك بقيت ثابتًا على موقفك. وهي ترى أنّه كان ينبغي طردك من المدرسة، ولا سبيل لجعلها تغيّر موقفها. بطبيعة الحال أنا لست متّفقة معها، لكن من جهة أخرى ينبغي فهمها. فأنا أيضًا لا

يسرّني أن أعهد بأبنائي لمعلّم يرسم شارة الصليب أمام الملأ في الشارع".

وعلى هذا النحو استعرضت المديرة بدفق متواصل من الجمل مظاهر تسامحها المغرية تارة، وأخرى مظاهر قسوتها المتوعّدة. ثم انتقلت لمواضيع أخرى وذلك حتّى تبرز فعلاً الطابع الودّي: تحدّثت عن الكتب، ورافقت إدوارد إلى مكتبتها، وأسهبت في الحديث عن "النفس المسحورة" لرومان رولان، وتبرّمت من كونه لم يقرأه. بعد ذلك سألته عمّا إذا كان يشعر بالارتياح في المدرسة، وبعد إجابة معهودة، راحت تتحدث بذلاقة: قالت إنّها تشكر القدر على مهنتها، وإنّها تحبّ عملها في المدرسة، لأنّها حين تعلّم الأطفال ترتبط بعلاقات ملموسة ودائمة بالمستقبل، وإنّ المستقبل يمكن أن يبرّر كل المعاناة الموجودة (فقال: "أجل، ينبغي الاعتراف بذلك") بكثرة حولنا. "فلو لم أكن أفكّر في أنّني أعيش من أجل شيء أعظم من حياتي، لكنت عاجزة ربما عن الحياة".

بدت فجأة في منتهى الصدق وهي تتفوّه بهذه الكلمات، فلم يفهم إدوارد بوضوح أكانت تقصد بهذا إلى الاعتراف أم إلى الشروع في مناظرة إيديولوجية حول معنى الحياة، ففضّل أن يرى في كلامها تلميحًا شخصيًا، وسأل بصوت مخنوق ومبهم:

"وحياتك في ذاتها؟

-حياتي؟ كرّرت المديرة.

-نعم حياتك، ألست راضية عنها؟".

وارتسمت على محيّا المديرة ابتسامة تشي بالمرارة، وكاد إدوارد يشعر بالشفقة عليها. كانت دمامتها مؤثّرة. كان الشعر الأسود يحيط بوجهها المستطيل ذي العظام البارزة، والزغب الأسود تحت الأنف يشبه الشارب، وأدرك كل البؤس المخيّم على حياتها دفعة واحدة. رأى القسمات التي تشي بشبقية جامحة، ورأى في الآن ذاته الدمامة التي تجعل إشباع ذلك الجموح مستحيلاً. وتخيّلها وهي تتحوّل إلى تمثال حي للألم يوم وفاة ستالين، ثم وهي تحضر بهمّة آلاف الاجتماعات، وهي تناضل بشغف ضدّ المسيح المسكين، وأدرك أنّ كلّ هذا لم يكن غير قناة كئيبة لتصريف شهوتها التي لم تجد وسيلة لتصريفها كما تشتهي. كان إدوارد لا يزال شابًا، ولم يكن مخزونه من التعاطف قد نفد. كان ينظر إلى المديرة بتفهّم. لكن صمته اللاإرادي بدا كما لو أنّه أشعرها بالخجل، فقالت بصوت أرادته أن يكون مرحًا:

"على كل حال، المشكلة ليست هنا يا إدوارد. الإنسان لا يعيش لنفسه فحسب، بل يعيش دائمًا لأجل شيء ما". ثم حدّقت في عينيه باستغراق واستطردت: "لكن ينبغي تحديد ما هو هذا الشيء، أهو شيء واقعي أم شيء خيالي. الربّ فكرة جميلة، لكن مستقبل الإنسان يا إدوارد، هو شيء واقعي. وأنا من أجل هذا الواقع عشت وضحّيت بكل شيء".

تفوّهت بهذه الجمل أيضًا باقتناع كبير جعل إدوارد لا ينفكّ يشعر بإحساس التفهم المفاجئ هذا الذي استيقظ بداخله قبل بضع لحظات، وبدا له من البلاهة الكذب على غيره، وظنّ أن

المنحى الحميمي الذي اتّخذته المحادثة يمنحه أخيرًا فرصة التخلي عن مكره الدنيء، فبادر إلى التأكيد:

"أنا متفق معك تمامًا، أنا أيضًا أفضّل الواقع. اعلمي أنّ ورعي لا ينبغي أن يؤخذ بجدّية مبالغ فيها!".

لكنه ما لبث أن تنبّه إلى أنه لا ينبغي الاغترار بتقلب المشاعر المباغت. فنظرت إليه المديرة نظرة اندهاش، وقالت بفتور واضح: "لا تمثّل عليّ، فما راقني فيك هي صراحتك، والآن أنت تحاول أن تتظاهر بغير حقيقتك".

لا، لم يكن مسموحًا لإدوارد أن يتجرّد من القناع الديني الذي لبسه ذات يوم. لذلك استسلم على الفور، وحاول جاهدًا أن يمحو الانطباع السيئ الذي أوحى به؛ "كلا، أنا لا أسعى إلى التهرّب. أنا مؤمن بالربّ طبعًا، ولا أستطيع إنكار ذلك أبدًا. كنت أريد فقط أن أقول إنّني أؤمن أيضًا بمستقبل الإنسانية، بالتقدم وما يرتبط به. إذا كنت لا أؤمن بذلك، فلماذا يصلح كل عملي كمعلم، وفي ما يفيد مجيء الأطفال إلى هذا العالم، ولأيّ شيء تصلح حياتنا برمّتها؟ وبالمناسبة فأنا أعتقد بأنّ تحسّن المجتمع وتقدّمه مرتبطان بمشيئة الربّ أيضًا. كنت أظنّ أنّ الإيمان بالرب والاشتراكية في الآن نفسه شيء ممكن، وأنّ الأمرين معًا يمكن الجمع بينهما.

-كلا، قالت المديرة بسلطة أمومية. هذان أمران لا يجتمعان.

-أعلم، قال إدوارد بأسى. فلا تلوميني على ذلك.

-أنا لا ألومك، فأنت لا تزال شابًا، وتتشبث بعناد بما تؤمن به. لا أحد يستطيع فهمك مثلي. أنا أيضًا كنت شابة مثلك، وأعرف ما يعنيه الشباب. ثم إنّني أحب فيك هذا الشباب تحديدًا، لذلك أجدك لطيفًا".

ها قد حانت اللحظة أخيرًا، ليس قبل الأوان ولا بعده بل في الوقت المناسب تمامًا. (هذا الوقت المناسب، كما نعلم، لم يختره إدوارد، بل هو الذي طاوع إدوارد لكي يغتنمه). فلما قالت المديرة إنّها تجده لطيفًا، أجابها بصوت معبّر قليلاً:

"أنا أيضًا أجدك لطيفة.

-حقًّا؟

-أجل.

-دعك من هذا الهراء! تقول هذا عن امرأة عجوز مثلي". ردّت المديرة.

ولم يجد إدوارد بدًّا من أن يجيب: "هذا غير صحيح.

-بلى". قالت المديرة.

ولم يتمالك نفسه فَرَدَّ باندفاع: "أنت لست عجوزًا البتّة. من البلاهة أن تقولي هذا.

-أتظنّ ذلك؟

-إنك تعجبينني كثيرًا بالطبع.

-لا تكذب، فأنت تعلم أنّه لا ينبغي لك أن تكذب.

-لست أكذب. إنك جميلة.

-جميلة؟ سألت المديرة بتجهّم مرتاب.

-أجل جميلة" ردّ إدوارد. وبما أنه كان يخشى انفضاح الطابع اللامحتمل لادعائه، فقد سارع إلى تعزيزه بالحجج: "تعجبني السمراوات مثلك.

-أتحبّ السمراوات؟ استفسرت المديرة.

-بجنون، قال إدوارد.

-ولماذا لم تأت لرؤيتي منذ حلولك بالمدرسة؟ شعرت كما لو أنّك كنت تتجنّبني.

-كنت متردّدًا، قال إدوارد. كان الجميع سيقول إنّني أتملّقك. لن يظنّ أحد أنّي جئت عندك لمجرد أنّك تعجبينني.

-ليس لديك ما تخشاه الآن. لقد اتفقنا على أنه علينا أن نلتقي من وقت لآخر".

نظرت في عينيه بحدقتيها العسليتين الواسعتين (ولنعترف بأنّهما لم تكونا تعدمان الجمال)، ولمّا همّ بالانصراف، داعبت يده بلطف بحيث تركها هذا المتهوّر وقد غمره شعور بالانتصار.

7

كان إدوارد مقتنعًا بأن هذه الورطة تحوّلت لمصلحته. وفي الأحد التالي ذهب إلى الكنيسة برفقة "أليس" بلا مبالاة طلقة، بل أكثر من ذلك استعاد وثوقه، لأنّ زيارة المديرة (رغم أنّ هذه الفكرة لا تثير فينا غير ابتسامة إشفاق) منحته دليلاً ساطعًا على جاذبيته الذكورية مقارنة بما مضى.

ثم إنّه لما وصل إلى الكنيسة ذاك الأحد لاحظ أن "أليس" تغيّرت: فما كادا يلتقيان حتّى تأبّطت ذراعه وظلّت ممسكة بها طوال الوقت حتّى عندما دخلا الكنيسة. كانت تظهر في العادة الحشمة والتحفّظ، لكنّها بدت يومئذ بخلاف ذلك تمامًا، إذ كانت تومئ برأسها وهي تبتسم لمجموعة من المعارف والأصدقاء.

كان الأمر غريبًا، ولم يفهم إدوارد منه شيئًا.

وبينما كانا يتجولان في الشوارع المظلمة بعد يومين من ذلك، لاحظ إدوراد باندهاش أنّ قُبَل "أليس"، التي كانت في العادة مبتذلة وبئيسة، صارت فجأة رطبة ومحمومة ومتلهفة. ولمّا وقف وإياها مقابل أحد مصابيح الشارع، لمح عينين ولهانتين تحدقان فيه.

"إنّني أحبّك، إن كنت في حاجة لمعرفة ذلك" قالت له "أليس" بغتة، ثم سارعت إلى إغلاق فمه: "لا، لا تقل شيئًا. إنّني أخجل من نفسي. لا أرغب في سماع شيء منك".

خطوا بضع خطوات ثم توقفا، فقالت "أليس": "لقد فهمت كل شيء الآن. فهمت لماذا كنت تعيب عليّ فتوري".

لكن إدوارد لم يفهم شيئًا وفضّل الاعتصام بالصمت. ثم سارا بضع خطوات أخرى، فقالت "أليس": "ثم إنك لم تخبرني. لماذا لم تقل لي؟

-ماذا تريدينني أن أقول؟ سأل إدوارد.

-أجل، هكذا أنت، قالت بحماسة هادئة. غيرك كان سيدقّ

الأبواق تبجّحًا، في حين تلوذ أنت بالصمت. ولكنّني أحبك لهذا السبب".

وبدأ إدوارد يفهم ما تقصد، لكنّه سأل: "عمّ تتحدثين؟

-عمّا وقع.

-وكيف علمت؟

-هيا! كل الناس يعلمون. لقد استدعوك وهدّدوك، لكنّك سخرت منهم. لم تنكر شيئًا. كل الناس معجبون بك.

-لكنّني لم أخبر أحدًا بالأمر.

-لا تكن ساذجًا، فأمر كهذا يحدث ضجّة. إنّه ليس شيئًا تافهًا على أيّ حال. أتظنّ أنّه لا يزال يوجد اليوم شخص يملك قليلاً من الشجاعة؟".

كان إدوارد يعلم أنّ أدنى حدث يتحول في مدينة صغيرة إلى أسطورة، لكنه لم يتصوّر يومًا أن تنشأ أسطورة من مغامراته التافهة التي لم يقدّر يومًا أهميّتها. ولم يفهم بوضوح إلى أيّ مدى سيتحمّل مواطنيه الذين هم، كما يعلم الجميع، مولعون بالشهداء، لأن الشهداء يشجعونهم على خمولهم الهادئ من خلال البرهنة لهم على أنّ الحياة لا تقدّم غير خيار واحد بين اثنين: تسليم أنفسهم للجلاد أو الطاعة. ولم يكن أحد يشكّ في أن إدوارد سيسلّم نفسه للجلاد، وكان الناس يتناقلون هذا الخبر بإعجاب ورضا، بحيث وجد نفسه آنئذ، من خلال "أليس"، في مواجهة صورة صلبِه الرائعة. ردّ برباطة جأش قائلاً: "بالطبع، لم أنكر شيئًا. ولكنّه أمر طبيعي. أيّ شخص مكاني كان سيتصرّف بالطريقة نفسها.

-أيّ شخص؟ صرخت به "أليس". انظر إلى الطريقة التي يتصرّف بها الناس من حولك! إنهم جبناء! كانوا سينكرون حتّى أمهاتهم!".

لاذ إدوارد بالصمت، ومثله فعلت "أليس". كانا يمشيان وقد شبكا ذراعيهما، ثم قالت "أليس" بصوت خفيض: "من أجلك سأفعل أيّ شيء".

كانت تلك جملة لم يسبق لإدوارد أن سمعها من أحد قط. كانت هذه الجملة هبة من السماء. من المؤكد أنّ إدوارد لم يكن يغفل أنها هبة غير مستحقة، لكنّه فكّر: بما أنّ القدر يرفض منحه الهبات التي يستحقّها، فإن من حقّه أن يقبل تلك التي لا يستحقها. وقال:

"لا أحد عاد بمقدوره أن يفعل شيئًا من أجلي.

-كيف ذلك؟ همست "أليس".

-سيطردونني من المدرسة، وأولئك الذين يتحدثون عنّي كبطل، لن يحرّكوا من أجلي ساكنًا. هناك شيء واحد أنا واثق منه. سأجد نفسي في الأخير وحيدًا تمامًا.

-كلا، قالت "أليس" وهي تحرك رأسها.

-بلى، قال إدوارد.

-كلا، كرّرت "أليس" وهي تكاد تصرخ.

-سينتهي بك الأمر أنت أيضًا لهجري، قال إدوارد بأسى.

-لن أفعل ذلك أبدًا، قالت "أليس".

-كلا يا "أليس"، قال إدوارد. إنك لا تحبينني، ولم تحبيني قط.

-هذا غير صحيح، وشوشت "أليس"، ولاحظ إدوارد بارتياح ابتلال عينيها.

-كلا يا "أليس"، هذه أشياء يستشعرها المرء. لقد كنت دائمًا بالغة الفتور معي، والمرأة التي تحبّ لا تتصرّف على هذا النحو. أدرك ذلك. والآن أنت تشفقين عليّ، لأنّك تعلمين أنّهم يريدون تحطيمي، لكنّك لا تحبّينني، ولا أريدك أن تحشري ذهنك بالأوهام".

ظلا يتمشيان وقد لاذا بالصمت، ومشبكين ذراعيهما. كانت أليس تبكي بصمت، لكنّها توقفت فجأة وقالت وهي تنتحب: "كلا، هذا غير صحيح. ليس من حقّك أن تقول هذا. إنه غير صحيح.

-بلى"، قال إدوارد. وبما أنّها استمرّت في البكاء، اقترح عليها أن يذهبا إلى الريف يوم السبت التالي. فشقيقه يملك شاليه في واد جميل على ضفة النهر. هناك يمكن أن يختليا أحدهما بالآخر.

8

جرى هذا يوم الثلاثاء، وعندما استدعت المديرة إدوارد من جديد يوم الخميس التالي، ذهب بوثوق مرح وهو مقتنع تمامًا بأنّ وسامته ستحيل نهائيًا كل مشاكل الكنيسة إلى سحابة دخان صغيرة. إلا أن ما يقع دائمًا في الحياة هو غير ما يتوقّعه المرء. فقد يخال نفسه يلعب دوره في مسرحية معيّنة، ولا ينتبه إلى أنّ الديكور تغيّر خفية، بحيث لا يخطر بباله أنّه صار يمثل في مشهد مسرحي مغاير.

جلس على الأريكة نفسها قبالة المديرة، وبينهما كانت توجد مائدة واطئة فوقها زجاجة كونياك وكأسان من كلا الجانبين. وكانت زجاجة الكونياك هذه هي الديكور الجديد الذي قد يوحي لرجل متبصّر ورزين أنّ مسألة الكنيسة لم تعد هي الموضوع.

لكن الساذج إدوارد كان شديد الزهو بذاته إلى حدّ أنّه لم يلحظ في البداية أيّ شيء. شارك في المحادثة الاستهلالية (حول موضوع غامض وعام) بمزاج رائق، وأفرغ الكأس التي قدّمتها له، وعبّر عن تبرّمه من الناس. وبعد نصف ساعة أو ساعة، حوّرت المديرة الحديث إلى مواضيع أكثر خصوصية، ومضت تتحدّث عن نفسها بإسهاب، وكان من المفروض أن يرسم هذا الكلام لإدوارد الشخصية التي ترغب في تمثّل صفاتها: شخصية امرأة عاقلة، في سنّ النضج، ليست في غاية السعادة، لكنّها جديرة بنصيبها من الحياة وراضية. امرأة غير نادمة على شيء، بل إنها لا تأسف على عدم زواجها، لأنّها لو كانت فعلت، لما تمكّنت ربّما من الاستمتاع بالنكهة الناضجة لاستقلالها، وكذا بمسرات حياتها الخاصة في شقّتها الجميلة حيث تعيش سعيدة، وحيث تأمل ألا يشعر إدوارد بالملل.

"كلا، أشعر بأنّي على ما يرام هنا" قال إدوارد بصوت مخنوق، لأن الضيق داهمه فجأة. فزجاجة الكونياك (التي طلبها بتهوّر خلال زيارته الأولى، والتي ظهرت على المائدة بسرعة متوعّدة) وجدران الشقة الأربعة (التي ترسم حدود فضاء يتقلّص أكثر فأكثر، وينغلق أكثر فأكثر) وحوار المديرة (الذي يتركّز على مواضيع تصير شخصية أكثر فأكثر) ونظرتها (المصوّبة عليه بصورة

خطيرة)، كل هذا جعله يفهم شيئًا فشيئًا التغيير الحاصل في البرنامج. انتبه إلى أنّه وضع نفسه في موقف يتطوّر بشكل محتوم، ولاح له بوضوح أن ما يهدّد مستقبله المهني ليس هو كراهية المديرة له، بل بخلاف ذلك، هو النفور الجسدي الذي تثيره فيه هذه المرأة النحيلة، التي يكسو الزغب تحت أنفها، والتي تحثّه على الشرب. وشعر بغصّة في حلقه.

طاوع المديرة وأفرغ الكأس، لكن قلقه الآن صار يتعاظم بحيث لم يعد الكحول يؤثّر فيه. في المقابل تخلّت المديرة تمامًا عن تحفظها المعهود بعد أن شربت بضع كؤوس، وامتلأ كلامها بإثارة أوشكت أن تكون منذرة. وقالت: "هناك أمر أغبطك عليه. إنّه شبابك. لم تعرف بعد معنى الخيبة والخذلان. أنت ما تزال ترى العالم بألوان الأمل والجمال".

ومالت بوجهها نحو وجه إدوارد من فوق الطاولة الواطئة، وسدّدت نحوه في صمت كئيب (وهي تبتسم بسمة متكلّفة) عينين كبيرتين بشكل رهيب. أما هو فكان يقول في هذه الأثناء إنّ إخفاقه في التمثيل سيجعل السهرة تنتهي بفشل ذريع. لذلك صبّ الكونياك في كأسه، وعبّ منه بسرعة جرعة كبيرة.

استطردت المديرة: "لكنّني أرغب في أن أراه بالألوان نفسها، بالألوان نفسها التي تراها أنت!"، ثمّ قامت من مقعدها، ونفخت صدرها وقالت: "أصحيح أنّني أعجبك؟ صحيح؟" ودارت حوال المائدة، وأمسكت بيد إدوارد: "صحيح؟

-نعم، قال إدوارد.

-تعال نرقص" قالت وهي تترك يد إدوارد وتسارع إلى مفتاح المذياع، فعالجته إلى أن عثرت على موسيقى راقصة، ثم وقفت باسمة أمام إدوارد.

وقف إدوارد، وأمسك بالمديرة وراقصها في فضاء الحجرة على إيقاع الموسيقى. ووضعت المديرة رأسها بحنان على كتفه، ثم رفعته فجأة لتحدّق في عينيه، وراحت تترنّم باللحن.

كان إدوارد من الضيق بحيث ترك المديرة مرارًا ليشرب. لم يكن يرغب في شيء سوى إنهاء هذه الحركات المقرفة اللانهائية، وكان في الآن نفسه يخشى هذا الإنهاء، لأن الفظاعات التي ستترتّب عنه ستكون أسوأ. واصل إذًا مراقصة المديرة المترنّمة عبر الغرفة الضيقة وهو يترقّب الأثر المأمول للكحول. ولمّا شعر في الأخير بأنّ حواسه شرعت تتشوّش من أثر الكونياك، شدّ المديرة إلى جسده بيد، ووضع الأخرى على صدرها.

أجل، لقد أقدم على الحركة التي كان مجرّد التفكير فيها في بداية السهرة يقرفه، والتي لست أدري أي شيء كان مستعدًا للتضحية به حتّى يتجنّبها. وصدقوني، فهو لم يفعل ذلك إلا لأنّه مرغم عليه حقًا: ذلك أنّ الوضعية التي وجد نفسه متورّطًا فيها منذ بداية السهرة لا مخرج له منها. نستطيع ولا شكّ أن نبطئ مجراها، ولكن لا سبيل لوقفها، بحيث إنّ إدوارد لما وضع يده على ثدي المديرة، لم يقم إلا بالإذعان لحتميّة لا مفرّ منها.

غير أن نتائج فعله تجاوزت كل التوقّعات. فقد شرعت المديرة تتلوى بين ذراعيه كما لو أنها واقعة تحت تأثير عصا سحرية، ثم ضغطت على فمه شفتها العليا المكسوة بالزغب. بعد

ذلك دفعته على الأريكة، ثم بحركة محمومة وتأوّهات عميقة، عضّت شفته وطرف لسانه بحيث آلمته كثيرًا. بعد ذلك أفلتت من بين ذراعيه وهي تقول: "انتظر!"، وهرولت نحو الحمام.

لعق إدوارد إصبعه، فلاحظ أنّ لسانه ينزف قليلاً. كانت العضّة مؤلمة إلى حدّ أنها أفقدته الثمالة التي بلغها بعناء. وبالتفكير في ما ينتظره شعر بغصة في حلقه من جديد. وتناهت إليه ضجّة الماء في الحمام، فرفع زجاجة الكونياك إلى شفتيه، وشرب جرعة كبيرة.

لكنّ المديرة كانت قد لاحت من الباب مجددًا وهي ترتدي قميص نوم شفّاف (تزيّنه التخاريم على الصدر)، وتقدمت ببطء نحوه. ضمّته بين ذراعيها، ثمّ تنحّت وهي تقول بنبرة معاتبة: "لماذا لم تخلع ملابسك؟".

نزع إدوارد سترته. وبينما كان ينظر إلى المديرة (التي تصوّب عليه عينيها الواسعتين) لم يكن يستطيع التفكير إلا في شيء واحد، أنّ جسده سيقوّض بلا شك الجهود المبذولة. ولهذا قال بصوت مرتعش وهو لا يفكّر إلا في استثارة شهوته: "تعرّي تمامًا".

تخلّصت من قميص النوم بحركة مفاجئة مشفوعة بتلهّف مثير، كاشفة عن جسد نحيل أبيض تلوح منه عانة سوداء بغزارة كئيبة. اقتربت منه ببطء، وأدرك إدوراد بجزع ما كان متأكّدًا منه على كل حال: لقد شلّ القلق جسده تمامًا.

أعلم أنّكم تعوّدتم، أيّها السادة، مع مرور السنين على هذا العصيان الموقّت لجسدكم، وأنّ هذا لا يزعجكم البتّة. لكن، هل

فهمتم؟ فإدوارد كان لا يزال شابًا آنذاك! وكان العمل التخريبي الذي يقوم به جسده يصيبه في كل مرّة بذعر لا يصدّق، وكان يعتبر ذلك بمثابة ندبة لا تزول، سواء أوقع ذلك بمحضر وجه جميل أو بمحضر طلعة دميمة ومضحكة كطلعة المديرة. ولم تعد المديرة إلا على بعد خطوة منه، فشعر بالخوف، ولم يعد يدري ما يفعل، فقال فجأة من دون أن يعرف كيف (وكان ذلك نتيجة اندفاع أكثر مما كان نتيجة مناورة محسوبة): "كلا، كلا! يا إلهي، كلا! هذه خطيئة ستكون خطيئة!"، وتنحّى بقفزة واحدة.

لكن المديرة اقتربت منه وهي تغمغم متذمّرة: "لماذا خطيئة؟ ليس في الأمر خطيئة!". تحصن إدوراد خلف المائدة التي كانا يجلسان إليها قبل لحظات: "كلا، ليس من حقّي أن أفعل هذا، ليس من حقّي".

أزاحت المديرة المقعد الذي كان يعوق طريقها، ومضت تتقدم نحو إدوارد من دون أن تزيح عنه عينيها الواسعتين: "ليس في الأمر خطيئة! ليس فيه خطيئة!".

دار إدوارد حول المائدة، ولم يعد وراءه سوى الأريكة، والمديرة قريبة جدًّا منه. لم يعد بوسعه أن يهرب، ولعل اليأس المطبق هو الذي جعله في هذه اللحظة الحرجة يأمر المديرة: "اجثي على ركبتيك!".

راحت تنظر إليه من دون أن تفهم، إلا أنه لما كرّر بصوت يائس، لكنه صارم: "اجثي على ركبتيك!"، جثت على ركبتيها أمامه بلهفة وشبكت ذراعيها حول ساقيه، فصرخ بها:

"اتركيني وضمي يديك!".

ونظرت إليه من جديد من دون أن تفهم.

"ضمّي يديك، أسمعت؟"

وضمّت يديها، فأمرها: "صلّي!".

ضمت يديها ورفعت نحوه عينيها المتلهفتين.

"صلّي! ليغفر لنا الرب!"، صرخ بها.

كانت يداها مضمومتين وهي تنظر إليه بعينيها الواسعتين بحيث إنه، فضلاً عن كسب وقت ثمين، بدأ يفقد، وهو في هذه الوضعية التي يراقبها فيها من الأعلى، الشعور المرهق بأنّه مجرّد ضحيّة، واستعاد وثوقه. تنحّى ليراها بكاملها وهو يردّد أمره: "صلّي!".

وبما أنها ظلّت صامتة، صرخ بها: "بصوت مسموع!".

وفعلاً راحت المرأة الجاثية، الهزيلة والعارية، تنشد: "أبانا الذي في السماء، ليكن اسمك مبجّلاً مقدّسًا، ليأت ملكوتك...".

كانت وهي تنشد كلمات الصلاة ترفع عينيها إليه كما لو أنّه هو الرب. وكان هو يراقبها باستمتاع متزايد: كانت جاثية أمامه، هي المديرة ومرؤوسها يُذلها. كانت أمامه، هي الثوروية، عارية مهانة بالصلاة. كانت أمامه امرأة تصلي، مهانة بالعري.

راقته صورة المهانة الثلاثية هذه، ثم حدث شيء لم يكن متوقعًا: كفّ جسده عن مقاومته السلبية، فانتعظ!

وحين قالت المديرة: "ولا تعرضنا للغواية"، خلع كل ملابسه بسرعة. وما إن قالت "آمين"، حتّى أنهضها بعنف، وسحبها إلى الأريكة.

9

وقع ذلك إذًا يوم الخميس، وفي يوم السبت، أخذ إدوارد "أليس" إلى الريف عند شقيقه الذي استقبلهما بودّ، وأعارهما مفتاح الشاليه الذي بملكيته.

ذهب العشيقان للنزهة، وقضيا فترة بعد الظهر كلّها في الغابة وبين المروج. كانا يتبادلان القبل، فتأكّد إدوارد بيديه المبتهجتين من تلاشي الخط الوهمي الواقع على مستوى السرة والفاصل بين منطقة البراءة ومنطقة الزنا. تاق في البداية إلى إثبات هذا الحادث الذي طال انتظاره بواسطة الكلام، لكنّه تردّد، وقدّر أن الأحرى به لزوم الصمت.

كان في غاية التيقظ ولا شك: فتغيُّر موقف "أليس" لم تكن له بالفعل علاقة بالجهود التي بذلها منذ أسابيع من أجل إقناعها. لم تكن له علاقة باستدلال إدوارد العقلي. كان مردّه فقط -بخلاف ذلك- إلى خبر تضحيته، ومن ثمّة فقد كان قائمًا على خطأ، بل لم تكن هناك أيّ علاقة منطقية بين هذا الخطأ والنتيجة التي استشفّتها "أليس" منه. لهذا علينا أن نفكر لحظة في الأمر: لماذا تدفع استماتة إدوارد في التمسك بالإيمان إلى حدّ الاستشهاد "أليس" إلى خرق القانون الإلهي؟ أكان عليها أن تخون ربّها أمام إدوارد لأنّه رفض خيانة الرب أمام لجنة التحقيق؟

إن التفوه بأبسط فكرة في هذه الظروف قد يوحي لـ"أليس" بعدم انسجام موقفها. ومن ثمّة، فقد فعل إدوارد خيرًا حين لاذ بالصمت من دون أن تفطن لسكوته. فقد كانت كثيرة الكلام

ومبتهجة، ولا شيء يشي بأنّ التغيير المفاجئ الذي حدث في روحها كان مأساويًا أو مؤلمًا.

ولما حلّ الليل، دخلا إلى الشاليه، وأشعلا النور، وهيآ السرير، وراحا يتبادلان القبل، فطلبت "أليس" من إدوارد إطفاء النور. وبما أنّ غبش الليل كان يتسلل من النافذة، قام إدوارد بإغلاق مصراعيها أيضًا نزولاً عند طلب "أليس". وهكذا لم تتعرّ "أليس" وتمنح نفسها له إلا في الظلام الدامس.

لقد انتظر هذه اللحظة لأسابيع، لكنّها الآن، وهو أمر غريب، وهي تتحقّق أخيرًا، لم تستجب أهميتها لمدى انتظاره. فقد بدا الجماع، بخلاف ذلك، في منتهى السهولة، وفي منتهى الألفة لدرجة أنّ إدوارد كاد يسهو عنها وهو يحاول طرد الأفكار التي كانت تعبر رأسه: راح يتمثل تلك الأسابيع الطويلة المهدورة التي عذبته فيها بفتورها، واستحضر كلّ المتاعب التي خلقتها له فيها بالمدرسة، وعوض أن يبدي لها امتنانه لأنّها منحته نفسها، شعر نحوها بنوع من الضغينة الحاقدة.

غاظه أن تخون بهذه السهولة ربّها المعادي للزنا، هي التي كانت فيما مضى تكنّ له تبجيلاً متشدّدًا. غاظه كيف أن صفاءها لم يكن يستطيع تكديره لا رغبة ولا حدث ولا انقلاب. غاظه أن تكون قد عاشت كل هذا بسهولة ووثوق ومن دون تمزّق داخلي. أجهد نفسه تحت تأثير هذا السخط كي يضاجعها بعنف وغضب، ولكي ينتزع منها صرخة أو أنّة أو كلمة أو شكوى، لكنّه لم يفلح. كانت الفتاة بكماء، ورغم كل ما بذله من جهد، انتهى عناقهما بتواضع وصمت.

إثر ذلك شدت نفسها إلى صدره ونامت بسرعة، في حين بقي هو صاحيًا لفترة طويلة، وتنبّه إلى أنه لا يشعر بأيّ سعادة. حاول أن يتمثّل "أليس" (ليس بمظهرها الجسدي، بل بجوهر كيانها إذا أمكن)، وأدرك فجأة أنّه لا يراها إلا مشتتة.

لنقف عند هذه الكلمة قليلاً: فـ"أليس"، كما رآها إلى حدود هذه اللحظة، كانت في نظره، رغم سذاجتها، كائنًا صارمًا، بملامح مرسومة بدقة: تبدو بساطة جسدها الجميلة مناسبة لبساطة إيمانها الأولية، وتبدو بساطة قدَرها كما لو أنّها هي سبب موقفها. كان إدوارد يعتبرها حتّى ذلك الحين كائنًا متماسكًا ومنسجمًا: فرغم أنه كان يهزأ بها ويلعنها، ويسعى للاحتيال عليها، لم يكن يملك (مكرهًا) إلا أن يحترمها.

لكن ها هو شرك الخبر الزائف (هذا الشرك الذي لم ينصبه عن قصد) يكسّر تناسق هذه الشخصية، وقال إدوارد في نفسه بأنّ أفكار "أليس" ليست في الواقع غير شيء جرى إلصاقه بقدَرها، وجرى إلصاق هذا القدَر على جسدها. ولم يعد يرى فيها غير جمع عشوائي لجسد وأفكار وسيرة، جمع لاعضوي واعتباطي وغير مستقر. كان يتصوّر "أليس" (وكانت تتنفّس بعمق فوق كتفه) وهو يرى جسدها من جانب، وأفكارها من جانب آخر، فراقه هذا الجسد، في حين بدت له الأفكار سخيفة. هذا الجسد وهذه الأفكار ليست بينهما أيّ وحدة. تراءت له مثل خطّ امتصته ورقة نشّاف: بلا حدود ولا شكل.

أجل، لقد أعجبه هذا الجسد حقًّا. وعندما استيقظت "أليس" في صباح اليوم التالي، أجبرها على أن تبقى عارية.

وبعد إصرارها في الليلة السابقة على إغلاق المصراعين، لأنّ بصيص النجوم الشاحب يزعجها، نسيت حينئذ حياءها. كان إدوارد يتفحصها (وهي تتقافز جذلى باحثة عن علبة شاي وبسكوت للفطور)، فانتبهت بعد لحظة إلى أنّه كان يبدو مهمومًا. سألته عمّا به، فقال لها إنّه مضطر للقاء شقيقه بعد الفطور.

ولما سأله شقيقه عن أحواله في المدرسة، أجاب إدوارد بأنّها ليست سيئة، فقال له شقيقه: "إن سيشاكوفا هذه امرأة خبيثة، لكنّني سامحتها منذ زمن طويل. سامحتها لأنّها لم تكن تعي ما تفعل. كانت تريد الإساءة إلي، لكن بفضلها أنعم اليوم بكل هذه السعادة. فأنا أكسب حياتي بشكل أفضل كفلاح، ثمّ إن الصلة بالطبيعة تنقذني من القلق الذي يسحق سكان المدن.

- هذه المرأة جلبت لي الحظّ أنا أيضًا" قال إدوارد مستغرقًا، وحكى لشقيقه كيف أنّه عشق "أليس"، وتظاهر بالإيمان، وكيف اضطرّ للمثول أمام لجنة تحقيق، وكيف حاولت سيشاكوفا هذه إعادة تقويمه، وكيف أنّ "أليس" منحته نفسها في الأخير معتقدة أنّه ممّن ضحّوا بأنفسهم. لكنّه لم يحك له كلّ الوقائع، وكيف أنّه أجبر المديرة على إنشاد أبانا، وذلك بعدما تهيّأ له أنه قرأ لومًا في عيني شقيقه، فلاذ بالصمت. وقال له أخوه:

"لديّ بلا شك عيوب، لكنّني متأكّد من شيء. لم يسبق لي أن مثّلت على الناس، وحرصت دائمًا على أن أقول لهم ما أفكّر فيه صراحة".

كان إدوارد يحبّ شقيقه كثيرًا، فساءه استهجانه لما فعل،

وأراد أن يبرّر موقفه، فراحا يتجادلان. وفي النهاية قال إدوارد:

"أعلم أنّك حرصت طول حياتك على أن تكون شخصًا مستقيمًا، وأنك فخور بذلك. لكن اطرح على نفسك سؤالاً: لماذا قول الحقيقة؟ ما الذي يجبرنا على ذلك؟ ولماذا ينبغي اعتبار الصدق فضيلة؟ تصوّر أنك صادفت مجنونًا وادّعى أمامك أنّه سمكة، وأنّنا جميعًا سمك. أتراك تجادله؟ أتراك تتعرّى أمامه لتقنعه بأنّك لا تملك زعانف؟ أتراك تقول له صراحة ما تفكّر فيه؟ هيّا، قل لي!".

لزم شقيقه الصمت، فاستطرد إدوارد: "لو أنّك قلت له الحقيقة فحسب، واقتصرت على إخباره برأيك الحقيقي فيه، فمعنى هذا أنّك توافق على الخوض في نقاش جاد مع مجنون وأنّك أنت نفسك مجنون كذلك. ينطبق هذا بالضبط على العالم الذي يحيط بنا. فإذا أصررت على أن تقول له الحقيقة بصراحة، فهذا معناه أنّك تأخذه على محمل الجد. وأخذُ شيء غير جاد على محمل الجدّ معناه أننا نفقد كل جديتنا. فأنا مضطر للكذب لكي لا آخذ مجانين على محمل الجدّ وكي لا أصاب أنا أيضًا بالجنون".

10

انتهى يوم الأحد، وأخذ العشيقان طريق العودة. كانا منفردين في المقصورة (ومن جديد راحت الفتاة تثرثر بابتهاج)، وتذكّر إدوارد كيف ظلّ سعيدًا حتّى زمن قريب لفكرة أنّه يمكن أن يجد في شخصية "أليس" الاختيارية جدية لم يتوقع أن

تحصل له أبدًا، وأدرك بأسى (وكانت عجلات القطار تضرب برتابة مفاصل السكة) أنّ المغامرة الغرامية التي عاشها لتوّه مع "أليس" كانت سخيفة، صنعتها مصادفات وأخطاء، وتخلو من الجدية والمعنى. كان ينصت لكلام "أليس"، ويرى إيماءاتها (كانت تضغط على يده)، وقال في نفسه إنّها إشارات بلا معنى، شيكات مصرفية بلا رصيد، أوزان من ورق، وإنّه لا يمكن أن يعطيها من الأهمية أكثر مما يمكن أن يوليه الرب لصلاة المديرة العارية؛ ثمّ قال في نفسه فجأة إنّ كلّ الناس الذين يحتكّ بهم في تلك المدينة لم يكونوا في الواقع غير خطوط امتصتها ورقة نشّاف، كائنات ذات مواقف قابلة للتداول بينهم، مخلوقات من دون جوهر صلب. لكن الأسوأ، الأسوأ بكثير (قال في نفسه بعد ذلك) هو أنّه لم يكن هو ذاته غير ظلّ لهذه الشخصيات الظلية، لأنّه كان يصرف كلّ طاقات ذهنه من أجل هدف وحيد هو التكيّف معهم ومحاكاتهم. ورغم أنّه كان يحاكيهم وهو يضحك منهم في أعماقه، ومن دون أن يأخذهم على محمل الجد، ورغم أنه كان يجهد نفسه من أجل الهزء بهم خلسة (مبرّرًا من ثمّة ما يصرفه من جهد من أجل التكيّف)، فإنّ ذلك لم يغيّر شيئًا، لأنّ التقليد، حتّى ولو كان بسوء نية، يظلّ تقليدًا. فالظلّ الذي يضحك بتكتّم يبقى ظلًّا، يظلّ شيئًا ثانويًا وحقيرًا.

كان ذلك مهينًا، مهينًا بصورة مروّعة. وكانت العجلات تضرب برتابة مفاصل السكّة (والفتاة تثرثر)، فقال إدوارد:

"أأنت سعيدة يا "أليس"؟

-نعم، قالت "أليس".

-أما أنا فحزين.

-أجننت؟ قالت "أليس".

-ما كان لنا أن نفعل ذلك. ما كان يجب أن نفعله.

-ماذا أصابك؟ أنت من رغب فيه.

-أجل، قال إدوارد. ولكنها غلطتي الكبرى التي لن يغفرها لي الرب. كانت خطيئة يا "أليس".

-أرجوك، ماذا أصابك؟ قالت الفتاة بهدوء. ألم تكن تردّد أن الرب يريد الحب، الحب أولاً!".

ولمّا لاحظ أنّ "أليس" تبنّت تدريجيًا سفسطته اللاهوتية التي لم تقدّم له كبير عون في معركته الصعبة، استشاط غضبًا وقال: "إنّما قلت لك ذلك لكي أختبرك. والآن أعرف مقدار إخلاصك للرب! لكن من تخون الرب مرّة، فهي قادرة على خيانة رجل مائة مرّة!".

كانت "أليس" تبحث دائمًا عن أجوبة جاهزة، لكنها لو تنبّهت قليلاً، لما بحثت عنها، لأنّ تلك الأجوبة لن تفيد في شيء سوى أنها تثير في نفس إدوارد سورة الغضب الانتقامي. وراح يتكلم بإسهاب (موظّفًا عبارتي غثيان وتقزّز جسدي) حتّى انتهى إلى أن انتزع -أخيرًا- من هذا الوجه الفتي نحيبًا ودموعًا وتأوّهات.

وقال لها في محطة القطار: "الوداع"، وتركها باكية. لم يدرك نتائج ما فعل إلا بعد ساعات من عودته إلى بيته، لما هدأ ذلك الغضب الغريب الذي ساوره: وتخيّل الجسد الذي كان إلى

حدود ذلك الصباح يتقافز أمامه عاريًا. وحين قال في نفسه إنّه هو من طرد ذلك الجسد الجميل طوعًا، نعت نفسه بالأحمق، وراودته رغبة في أن يلطم نفسه.

لكنّ ما وقع قد وقع، ولا يمكن تغييره. وحتّى أكون وفيًّا للحقيقة، عليّ أن أضيف أنّ هذا الجسد الجميل الذي ضيّعه إدوارد أصابه بنوع من الحزن، لكنّه ما لبث أن قبل هذه الخسارة. لقد عانى بعيد استقراره في هذه المدينة الصغيرة من نقص في العلاقات الجنسية، لكنه كان نقصًا مؤقّتًا. ذلك أنّه ما لبث أن تجاوز هذا النقص، إذ صار يزور المديرة مرّة في الأسبوع (وخلّصت العادة جسده من قلق البداية)، وقرّر أن يزورها بانتظام ما دامت الأمور لم تتوضّح في المدرسة بشكل نهائي. علاوة على ذلك، كان يحاول، بنجاح متزايد، إقامة علاقات مع نساء وفتيات عديدات، ممّا جعله يستمتع أكثر باللحظات التي يمضيها وحيدًا. وصار يعشق النزهات الفردية التي يقوم بها أحيانًا (تفضلوا بتركيز انتباهكم قليلاً على هذا التفصيل) لزيارة الكنيسة.

لا تجزعوا، فإدوارد لم يصر مؤمنًا، وأنا لا أنوي إنهاء قصتي بمثل هذا التناقض الصارخ. لكن، بالرغم من اقتناعه بعدم وجود الرب، فقد كان يدير فكرة الرب في رأسه بسرور وحنين.

الرب هو الجوهر، بينما لم يعثر إدوارد قطّ (وقد مضت سنوات عديدة على مغامراته مع "أليس" ومع المديرة) على شيء جوهري، لا في علاقاته الغرامية، ولا في مهنته، ولا في أفكاره. إنه أشرف من أن يقبل بوجود الجوهري في اللاجوهري، لكنّه أضعف من ألا يتوق سرًّا إلى الجوهري.

آه، أيّها السادة والسيّدات، كم هو حزين أن يعيش المرء وهو غير قادر على أن يأخذ أيّ شيء أو أيّ شخص على محمل الجد!

ولهذا السبب يتوق إدوارد إلى الرب، لأنّ الرب وحده المعفى من فريضة الظهور، والذي يمكن أن يكتفي بالوجود فقط، لأنّه هو وحده يشكل (الوحيد والفريد وغير الموجود) النقيض الوجودي لهذا العالم الذي هو غير جوهري بمقدار ما هو موجود.

هكذا يزور إدوارد الكنيسة بين الفينة والأخرى ليجلس ويرفع إلى القبّة عينين حالمتين. ونحن سنتركه في لحظة كهذه: عند نهاية ما بعد الظهر، حيث الكنيسة صامتة وخالية، وإدوارد جالس على مقعد خشبي وهو حزين من فكرة أنّ الرب غير موجود. ولكن حزنه تعاظم في هذه اللحظة بحيث تراءى له فجأة الوجه الحقيقي والحيّ للرب ينبثق من أعماقه. انظروا! هذا صحيح! إدوارد يبتسم! وبسمته سعيدة...

احفظوا هذه البسمة في ذاكرتكم من فضلكم.

كتبت في بوهيميا

بين 1959 و 1968.

صدر للمترجم عن المركز الثقافي العربي:

* كتاب الضحك والنسيان: ميلان كونديرا، (ترجمة)، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، 2009. (حاز جائزة الأطلس الكبير للترجمة التي تمنحها سفارة فرنسا في المغرب، دورة 2010).

* الهوية: ميلان كونديرا (ترجمة)، المركز الثقافي العربي، بيروت / الدار البيضاء، 2010.

* رقصة الوداع: ميلان كونديرا، (ترجمة)، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، 2010.

ميلان كونديرا

غراميات مرحة

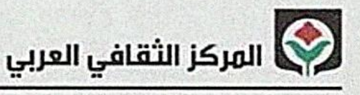
لطالما اعتُبرت "غراميات مرحة" نقطة انطلاق مشروع ميلان كونديرا الروائي. إنها جمع بارع بين حكايات خرقاء وشخصيات شاذة ومشاهد هزلية، تعالج مواضيع أثيرة لدى الكاتب: الحب والإخلاص المستحيل، الهوية وأسرارها، سوء التفاهم ومشاكل التواصل، القمع السياسي...

ففضلا عن أسلوبه السلس والمرح، يدفعنا كونديرا كعادته إلى التفكير في غموض العلاقات الإنسانية وتعقيداتها، ولاسيما العلاقات بين الأزواج. وقصصه حافلة بعبارات ومقولات جعلت هذه الرواية ضرباً من الكتابة تدفع القارئ إلى مُساءلة نفسه وعلاقاته بالآخرين.

"إن أكبر مصيبة يمكن أن تحلّ بالرجل هي الزواج السعيد، بحيث لا يعود له أمل في الطلاق."

"نجتاز الحاضر بعيون معصوبة، وأقصى ما نستطيعه هو أن نستشعر ونخمّن ما نعيشه. ونحن لا ندرك ما عشناه ونفهم معناه إلا لاحقا، لما تزول العصابة عن أعيننا، ونعيد تفحّص الماضي."

علي مولا



الدار البيضاء:ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت:ص.ب 113/5158
markaz@wanadoo.net.ma
cca_casa_bey@yahoo.com



لوحة الغلاف: تفصيل من بيكاسو